أدب فناء المقربين

شرح

زيارة الجامعة الكبيرة

العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي

الجزء الأول

دار الإسراء للطباعة والنشر

أدب فناء المقرّبين

شرح زيارة الجامعة الكبيرة

أدب فناء المقرّبين

شرح زيارة الجامعة الكبيرة

العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي

الجزء الأول

دار الإسراء للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

• إسم الكتاب ....أدب فناء المقربين

شرح زيارة الجامعة الكبيرة

• تأليف ....آية الله جوادي أملي

• تعريب ....وجيه الهجري

• الطبعة ....الثانية

• سنة الطبع ....٢٠١٣ م ـ ١٤٣٤ هـ

دار الإسراء للطباعة والنشر

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش

بناية الحسنين. ط ١. تلفون : ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٨

فهرس العناوين

السَّلامُ عَلَيْكُم...

يا أهلَ بيتِ النُّبوّةِ

وَمَوضعَ الرِّسالةِ

وَمُختلَفَ المَلائكةِ

وَمَهْبِطَ الوَحي

وَمَعدِنَ الرَّحمَةِ

وَخُزّانَ العِلْمِ

وَمُنْتَهَى الحِلْمِ

وَأُصُولَ الكَرَمِ

وَقَادَةَ الأُمَمِ

وَأولياءَ النِّعَمِ

وَعَناصِرَ الأبْرارِ وَدَعائِمَ الأخيارِ

وَساسَةَ العِبادِ

وَأرْكانَ البِلادِ

وَأبْوابَ الإيمانِ

وَأُمَناءَ الرَّحمنِ

وَسُلالَةَ النّبيّينَ وَصَفْوَةَ المُرسَلينَ وَعِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ العالَمينَ

وَرَحمةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ

السَّلامُ عَلى أئمّةِ الهُدى

وَمَصابيحَ الدُّجَى

وَأعْلامِ التُّقى

كلمة الناشر

أكمل التحيّات والصلوات على أجدر المحبوبين، الذين تبدّلت بيُمن وجودهم دار العدم إلى دار الوجود الرحيبة، وتغيّرت ظلمة العدم إلى نور الوجود.

أخلص التحيّة وأزكى السلام على أجساد ذوي الوله الطاهر وأرواحهم، والعاشقين الذين وطّأوا سبيل الوصول وطريق الصعود، ودلّوا بسنّتهم وسيرتهم متين حبل الوصل والعروة الوثقى لبلوغ الديار الإلهيّة.

أفضل التحيات الإلهيّة وصلوات الملائكة، وسلام كلّ الصالحين للساحة المقدسة لأكمل البشر، وأفضل المخلوقات، وأطهر عباد الله، الذين حظّوا بمقام ﴿أَوْ أَدْنى﴾، فصاروا أئمة المتّقين وأسوة المؤمنين وقدوة الأحرار.

سلام لا حدّ له وتحيّات لا عدّ لها ولا منتهى على أبدان وأرواح روّاد صفات الجمال ومرايا أسماء الجلال الإلهيّة، الذين وهبوا العالم البهجة والجمال من جهة، ونزّهوا النفس والعالم من الشرّ والفساد من جهة أخرى.

بورك وجود معتلي الشمس، ومن لم يكن ضوء الشمس والقمر ولمعان الحسن والصلاح إلاّ منهم؛ هم الذين نوّروا ثريا الملكوت وزينوه بأسمائهم، وجمّلوا ثرى المُلك بوجودهم.

إنّ القلب لا يطمئنّ إلاّ إذا سطعت فيه أسماؤهم الجميلة وأشرقت فيه طلعتهم البهيّة.

هنيئاً لتلك الذوات المقدسة الذين غار من وجودهم القدّيسيّون وغبطهم عليه الكرّوبيّون؛ أولئك الذين هم فخر الملكوتيين، ومحور الكون، الذين يباهي بوجوهم ربّ الروح والكون، ويفخر بوجودهم من سواهم.

أولئك هم رابط حلقتي الوجود ووسيط عالم الوجوب ودار الإمكان، الذين عدّهم خالق العالم وآدم منه[١]، وبخلقهم أثنى الله على ذاته وحمدها، ورهن وجود الجنّ والإنس والملائكة بهم؛ الهائمون عشقاً لدى الإله.

السلام على الراقد تحت القبّة الخضراء، الذي به يسكن العالم، وتحت قبته الخضراء ينطوي الفلك؛ فهو فلك أفلاك دار الوجود.

تحيّة لمصطفى دار الوجود، الصادر من مقام الحمد الإلهي، والساطع من اسم الحقّ الحميد، المعروف في عالم الجبروت بالمحمود، وفي عرصة الملكوت بأحمد، وفي دار المُلك بمحمّد.

السلام على الإمام الذي برق منه العلوّ والعظمة، وسطعت منه الكرامة، الذي طلع من مقام علوّ الحقّ، واستعلى بعالي اسم الله، فصار معدن السموّ والفضيلة للعالمين.

السلام والتحيّة على عليّ المرتضى، الذي يكتحل بتراب عرشه العاشقون.

السلام على طوبى الوجود فاطمة المرضيّة، «الفاطر» اسمها في الساحة الربوبيّة، و «الفاطمة» فيما سواها؛ تلك التي بنور وجودها وُجد العالم وسعُد.

أجل... هي زهرة السماء وزهراء الأرض، التي كان نصيبها من الدنيا الغربة والظلامة، والبعل المظلوم، والضلع المكسور، والحقّ المغصوب، والرمس المكتوم؛ لوجودها أزكى سلام وتحيّة.

السلام على حُسن العالم وجمال الروح، على مَن هو «محسن» لدى الله و«حسن»

---

١ . بمعنى أنّه تعالى خلقهم من نوره، كما جاء في عدد من الروايات. (المعرّب).

في وادي الإمكان؛ منبع كافّة الفضائل، ومعدن كلّ المحامد؛ السابغ على غربة البقيع الصفاء، والمبدّل وحدته ووحشته بالنشوة والرجاء.

سلام المريد الخاضع لمقام خامس أهل الكساء، المتجلّي بغاية التجلّي باسم الله «قديم الإحسان»، والمسمّى في رقيقة الوجود بـ«الحسين»؛ ذلك هو زينة الأرض وحلية السماء، المتألق في عالم العرش والكرسي.

السلام والتحيّات الزاكيات على جميع الأئمّة وقدوة ميدان العمل وأسوة باحة العلم والإيمان؛ لا سيّما ذلك الإمام الذي أنشأ بلامع كلامه وتلؤلؤ بيانه هذا المعرفة الشامخة، وبلور أرقى صور العشق والحبّ؛ الإمام الذي غدت زيارته البديعة أروع وأجمل مسلك لمحبّة أهل البيت والإخلاص لهم، وأعلى منار في معرفة الله ومعرفة الإمام، وفي بيان نحو ارتباط ذلك الظاهر بهذا المظهر؛ سلامنا الخالص وحبّنا الزاكي نهديه لوجود الإمام عليّ النقي عليه السلام.

وسلام على ختم العالم وآدم وخاتم الدار الفانية؛ ذلك المعروف في السماوات بمحمّد وفي الأرض بالمهدي، الذي بوجوده استقرت السماء والأرض، وببركة وجوده يُرزق الورى؛ أعني به الإمام صاحب العصر والأمر، الحجّة بن الحسن العسكري عجّل الله فرجه، الذي نكنُّ له العشق والحبّ.

راجين أن يدوم في ظل وجوده النظام الإسلامي، وأن ينال القائد المعظّم آية الله السيّد الخامنئي ـ المجاهد والمضحّي في سبيل علوّ اسمه المبارك ـ آماله الرفيعة، وهي تلك الآمال الاسلاميّة الأصيلة نفسها.

وسلامنا وودّنا لجميع شهداء طريق الفضيلة والعدالة، لا سيّما سالكي طريق الشهادة في مختلف مناطق البلد الإسلامي العزيز إيران، ونخصّ بالذكر إمام الشهداء الإمام الخميني، قائد النظام وقافلة الثورة العظيمة.

إنّ الزيارة من أعظم المواهب الالهيّة؛ فهي تجلو القلوب وتعطفها إلى المعبود.

ونحن نعتزّ بزيارة مَن القربُ منهم قربٌ من الله، وطاعتهم طاعة لله، ومحبّتهم محبّةٌ لله، وبغضهم بغضٌ لله، وبحضورهم يصبغون الكون والمكان بصبغة الله، ويجعلون من الكلّ إلهيّاً؛ فنحن نسير إليهم جميعاً مشتاقين، وندعوا إليهم الآخرين.

إنّ الزيارة الجامعة الكبيرة إحدىٰ أفضل الزيارات التي هي بصدد بيان عظمة وعلو وجود الأئمّة الأطهار، وبذلك تمهّد الطريق لمعرفةٍ أعلىٰ وعرفانٍ أكمل؛ فقد انطوت في هذه الزيارة معارف غزيرة وكثيرة، هي بحاجة إلىٰ شرح وبيان؛ لكي يتجلّىٰ بالبرهان المقام الحقيقي لتلك الذوات المقدّسة، ويُعلم مدىٰ تأثيرها العملي في عوالم الوجود وشؤون الكون كافّة؛ لأنّ الفهم الأكمل والأتمّ من أحسن طرق الارتباط والأنس والمعاشرة. وإذا ما اطّلع المرء علىٰ الدور المؤثر والفاعل لتلك الذوات المقدّسة، وعرف بأنّ دواء كلّ داء وشفاء كلّ مرض يكمن في تولّيها، وسعىٰ إلىٰ زيارتهم عن معرفة وتبصّر، فهو لايضمن خير الآخرة ودار البقاء فحسب، بل يضمن أيضاً خير الدنيا والعالم الفاني، ويعطي للحياة المعنىٰ والكمال.

إنّ هذه الأبحاث المسمّاة بـ «أدب فِناء المقرّبين» عبارة عن شرح للزيارة الجامعة، مستفاد من نور كلمات وكتابات سماحة المعلّم آية الله جوادي آملي، الزاخرة بالمعارف الفلسفيّة والعرفانيّة والتفسيريّة، والمفعمة بالعشق للأئمّة الأطهار عليهم السلام، تلك الجواهر المقدّسة؛ فاتّسمت بكمال وجمال متميّزين، ما يجعلها مؤثرةً تأثيراً بالغاً في مسار معرفة وعشق تلك المنارات الإلهيّة، ومن المؤمّل أن تقدّم مجموعة أبحاث هذه الزيارة لمحبّي أهل البيت ضمن ستّة مجلدات، إن شاء الله.

وختاماً، نعرب عن امتناننا وتقديرنا لكلّ من سعىٰ في إحياء ونشر هذه الأبحاث، وأسهم في مراحل إعداد هذا السفر القيّم المختلفة، من تحقيق وتقويم وتعريب، سائلين المولىٰ العليّ القدير لهم مزيداً من النجاح والتوفيق.

مركز إسراء للنشر

حكمة الزيارة

الزيارة هي حضور عرفاني للعاشق في ديار المعشوق، هي لقـاء الزائـر العاشـق لحظيرة المزور، هي إظهار الوله والشغف من المحبّ للمحبـوب، هـي فـتح وبـذل القلب المعطى بكلّه في محضر صاحب القلـب، هـي التـسليم المطلـق مـن الجنـدي المضحّي أمام القائد، هي إعلان التواضع من المتديّن قبال الدين وأئمة الدين، هـي إبراز للإيمان والالتزام الديني.

الزيارة هي إعلام المريـد بالوفـاء الـصادق للمـراد، هـي إعـلان تعلّـق المطيـع بالمطاع، وإعلام بتجاهل الذات والتضحية بها في سبيل المحبوب.

الزيارة هي عرض الذات على الميزان والمقياس، هي الوقوف أمام مـرآة الكـمال ومعياره، هي إراءة صراط الكـمال لمـن ينـشد التعـالي؛ لـيعلم إلى أيّ مـدى يمكنـه الوصول!.

الزيارة سفر المشتاق والعاشق العارف؛ تنبع من عمـق القلـب، وتجتـاز طريـق القلب لتصل في نهاية المطاف إلى المقصود في منزل القلب، لتحطّ ركابها فيه.

فلسفة الزيارة

إنّ تعظيم وتكريم وتجليل وتأبين الشخصيات النبيلة، المـاهرة والمهذّبـة، وذات

التأثير الثقافي والدور البنّاء، المصلحة وصانعة التاريخ، و... وكذلك تخليد أسمائها وذكراها بعد الموت؛ كلّ ذلك لازم المحبّة وقرين عشق الإنسان للمحاسن والكمال، وممّا له جذور في فطرة الإنسان وتكوينه[١].

إنّنا اليوم نرىٰ الشعوب والأمم المختلفة يكرمون كبار شخصياتهم في العلم والأدب والمهارات عن طريق عقد المؤتمرات والندوات واللقاءات، ويذكرون فضائلهم وكمالاتهم، ويفخرون بهم. وهذا التكريم لا يختصّ بالعصر الراهن، بل هو ممتدّ علىٰ طول التاريخ، وإن اختلف كيفاً وكمّاً.

إنّ اهتمام المجتمعات المختلفة بحفظ آثار أماجدها وإحياء ميراث أسلافها وانتشار المتاحف؛ أمثلة لتكريم مفاخرها، وبهذا اللحاظ لا فرق في تكريم وتعظيم ذوي الكمال بين الأحياء منهم والأموات.

هذا التكريم والاحتفاء وإن اختلفت كيفياته وصوره يوماً بيوم، لكنّه يحكي عن تجذّر حبّ الإنسان وعشقه الفطريّ للكمال؛ فكل إنسان يحبّ الكمال في أعماق ذاته وفطرته الربانيّة، ويعشق الكمال كلّ العشق، ويمتدح أصحاب الكمال والجمال، ويتواضع لهم، وأحد أسباب وبواعث عبادة الإنسان للكمال المطلق هو هذا الحبّ للكمال، حتىٰ عبّاد الأصنام إنّما يخضعون للهياكل الخشبيّة والحجريّة لظنّهم أنّها ذوات كمال وجمال، وإن كانوا مخطئين في ظنّهم وعملهم.

---

١ . الأمور الفطريّة تُطلق علىٰ: ١ ـ السلوكيّات والطبائع الجمعيّة العامّة، التي لا تختص بعرق ولا لون ولا تاريخ ولا بقعة. ٢ ـ ما لا يحتاج إلىٰ تحصيل وكسب، بل كان مشبعاً في وجود الإنسان خلقةً وتكويناً. ٣ ـ ما لا يمكن إزالته من النفوس بالقوّة والإكراه والشائعات الباطلة، وإن أمكن نوعاً ما التقليل من شدّته؛ لكن تبقىٰ تلك الشائعات كالغبار علىٰ الوجه الشفاف للمرآة، يزيله أدنىٰ نسيم. يشار إلىٰ أنّ الأمور الفطريّة باعتبار توافقها وانسجامها مع الطبيعة الإنسانيّة ونظام الخلقة سببٌ لكمال الإنسان، إذا ما سير بها في الاتجاه الصحيح وأفيد منها الاستفادة المرضيّة. (انظر: الفطرة في القرآن، ص ٢٦).

الشخصيات الصانعة للتاريخ

لم يزل الطالحون على مرّ العصور يقفون بوجه الصالحين، يصنعون الأحداث ذات التأثير الممتدّ في مصير الشعوب، ويخلقون التحولات العميقة في المجتمعات الإنسانيّة؛ ولكن بعد الموت تدفن اسماؤهم وذكراهم مع أبدانهم، وربما يُذكرون بالثناء حيناً من الدهر بسبب بعض الأهداف السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الوطنيّة و... لكن سرعان ما يلفّهم النسيان. ومن أمثلة هذا التكريم الشكلي الخاوي تكريم ملوك العار، ملوك الألفي وخمسمائة سنة، الذي كان يرعاه النظام الملكي البهلوي المشؤوم، الذي استبدل التاريخ الهجري بتاريخ الخزي الملكيّ محاربةً للإسلام والتاريخ الإسلامي، ودعا للملك كوروش بالنوم الهادئ المريح! لكنّ ذلك كان تعباً لا طائل منه، فلم يعد على فاقدي الهوية وعبّاد السلف البالي بالنفع والفائدة، بل أتت نار الثورة الإسلاميّة الحارقة للظلم على كلّ تلك الجهود، فلم يبقَ أثر لا للنقش ولا للعرش!

والسرّ في عدم الثبات هذا عدم وجود جذور لمثل هؤلاء «الناس» في عواطف وأحاسيس البشر، فحتى المادحين لهم غير مؤمنين بهم؛ ولكن يحدوهم على هذا التكريم والتجليل أهداف ومآرب خاصّة، فيتوسلون بذلك في ركوب التيار، فاذا حققوا أهدافهم الخاصّة، أو يئسوا منها، ختموا بختم البطلان على تلك الأمجاد الوهميّة ونبذوها وراء ظهورهم.

إنّ الباطل كزبد الماء يشبه بعضه بعضاً، ويبقى حيناً من الوقت ظاهراً معتمداً على الحقّ؛ ولكن لا يوجد فيما بينه اتحاد وانسجام أبداً، كما لا يمكن القول إنّ الزبد الطافي في هذا الجزء من النهر هو عين الزبد الطافي السابق، الحاصل على بعد متر والذي زال وانعدم، أو إنّه هو الزبد الحاصل بعده على بعد عدّة أمتار؛ لأنّ كلّ زبد

له وجود مبتور ومنفصل عمّا قبله وبعده، مع أن الماء الخارج من النبع يسيل على امتداد مجرىٰ النهر كلّه، حتىٰ يصل إلىٰ البحر، وكلّ من يرىٰ ذلك الماء في أيّ جزء من النهر يحكم بدون تردد بأنّه الماء نفسه المنحدر من الجبل.

ثمّ إنّ الحقّ بمنزلة اليقظة في حياة البشر، والباطل بمنزلة نومهم، والنوم واليقظة وإن امتزجا؛ لكنّ اليقظة تغطي مساحة من حياة الانسان ويغطي النوم مساحة، بفارق أنّ اليقظات متّصلة فيما بينها، بينما النومات منفصلة، بدليل أنّ الإنسان له أنّ يتعلّم بعضاً من درسٍ ما ويحفظه ثمّ يتعلّم ما بقي غداً؛ بينما لا يمكن لأحد أن يرىٰ في نومه بعض حلمِ الليلة ويرىٰ بقيّته في ليلة الغد.

علىٰ أنّ حركة الحقّ علىٰ طول التاريخ حركة متّصلة الأجزاء دائماً؛ فنداء التحسّر الذي انطلق من الصدر الموجوع لأبِ موحدّي العالم، شيخ الأنبياء نوح عليه‌السلام، بسبب عناد أمّته ورفض الإله الواحد وعبادته والايمان بالمعاد، انطلق أيضاً من صدر النبيّ إبراهيم عليه‌السلام، وأمين مكّة النبيّ محمّد بن عبد الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، حينما نادىٰ العالم علىٰ جبل الصفا: «يا صباحاه».

ولا ريب في أنّ من أبرز سمات كلّ نبيّ من أنبياء الله تصديق الأنبياء السابقين، والتبشير بمجيء نبيّ بعده. أمّا حركة الباطل علىٰ طول التاريخ فهي حركة منفصلة الأجزاء؛ لأنّ كلّ مبطل إنّما يدعو الناس إلىٰ هواه ويرفض غيره من أهل الباطل، وإن كان جميع أهل الباطل يشتركون في الدعوة إلىٰ التحرر من الدين ورفض الإله. وما التكريم الظاهري إلاّ للوصول إلىٰ مآربهم الخاصة، من غير أن يكون بينهم توادّ وترابط قلبي.

شعر:

المؤمنون كثر لكنّ الإيمان واحد

جسومهم متعددة لكنّ الروح واحدة

الأرواح الحيوانيّة لا اتّحاد بينها
فلا تطلب الاتّحاد في الأرواح الجوفاء
لكلّ من الذئاب والكلاب روح منفصلة
والمتّحد هي أرواح رجال الله
إنّما يتحارب هؤلاء البشر
ولم يسمع أحد بتحارب بين الأنبياء

وفي المقابل، تبقىٰ أسماء الشخصيات الصالحة وذكراهم حيّة دوماً؛ بسبب الركيزة العقديّة، والأحاسيس والعواطف التي يتمتّعون بها في نفوس الشعوب؛ والتابعون لهم يدأبون علىٰ إبقاء ذكراهم ماثلة حتىٰ وإن تسبّب ذلك في تعليقهم علىٰ المشانق، ولهم في ذلك ثبات قدم وإن بترت أقدامهم، ويقدمون علىٰ تحمّل العناء في سبيل الفوز بحلاوة المعنىٰ.

إنّ ذكر مناقب وفضائل آل طه وياسين، واستشعار الفرح والسرور في ذكرىٰ ميلادهم من جهة، وإظهار التألم والحزن لمصائبهم من جهة أخرىٰ، موجب للتقرّب إلىٰ الله؛ لأنّ الارتباط العقلي والعاطفي بتلك الذوات النورانيّة ـ وهم البشر الكُمّل ـ سبب للإفادة من معارف القرآن، والاستفاضة من سنّة المعصومين، وتوثيق عرىٰ العلاقة مع خليفة الله، كما أنّه تعظيم لأسماء وذكرىٰ أولياء الله أيضاً.

ومن هنا، فإنّ إقامة مراسم العزاء لسيّد الشهداء والمظلومين، الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام ـ الذي يزداد عاماً بعد عام جلالاً وعظمةً باعتراف الموالي والمعادي ـ مثال بارز لذلك، وليس هو استبداد رضا خان وحده الذي فشل في تجفيف جذور شجرة طوبىٰ هذه؛ بل إنّ الغزو الثقافي المبيّت للمستحمرين، وشبهات وتشكيكات أذنابهم المتغرّبين ومرتزقة الغرب، لم يستطع كلّ ذلك أيضاً الحدّ من نموّها وازدهارها المتواصل يوماً بيوم؛ لأنّها ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[١].

وهكذا فإنّ صفوف العزاء تموج حيويةً في رؤوس وصدور المعزّين من كلّ عام، فيزلزلون بندائهم «يا حسين» المدن والقرىٰ، ويجددون بدموع عيونهم ذكرىٰ كربلاء الفجيعة؛ إنّهم يسكبون ماءً بارداً علىٰ الوهم الباطل والجهد العاطل للذين يريدون بترّهاتهم إطفاء شمس العالم المتعاظمة للنهضة الحسينيّة.

إنّ هذا الثوران التلقائي يُفهِم كلّ كليل الذهن بطيء الفهم أنّ دم الحسين بن علي عليه السلام المسفوك في «كربلاء»، تلك الناحية النائية من أرض العراق، في عاشوراء سنة ٦١ هجري قمري، لم يذهب هدراً، بل إنّ قطراته كلّها قد حُقنت بإرادة ربّ العالمين في هيكل العالم الإسلامي الكبير، وهو نفسه الذي يلقي في آذان العالم كلّ سنة نداء الإمام الحسين: «هل من ناصر ينصرني؟»، ويلهب حماس الشعوب الإسلاميّة وغيرها ويبعث فيها الحركة.

حقّاً أين يمكن العثور في هذه الكرة الأرضيّة علىٰ إنسان قد وثّق عرىٰ الوصل بينه وبين الحسين بن علي، ومع ذلك يقرّ له قرار يوم عاشوراء؟! يقول العارف الواصل المرحوم ميرزا جواد ملكي التبريزي: رأيت صبياً من أبنائي يمتنع في عشرة المحرم من تناول اللحم والمرق ويكتفي بالخبز من دون إدام، ويظهر أنّ الذي دعاه لذلك الحبُّ والعشق الباطني؛ لأنّه ـ حسب علمي ـ لم يتحدّث معه أحد في هذا الأمر.

معنى الزيارة

الزيارة إحدىٰ وسائل الاعتزاز بالمفاخر وذوي الكمال، وهي في الحقيقة سبب لبقاء واستمرار الحياة العلميّة والأخلاقيّة والمعنويّة، بالإضافة إلىٰ كونها عامل ربط

---

١. إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.

الجيل المعاصر وجيل المستقبل بالجيل السابق، وقناة ارتباط روحي بهم وبكمالاتهم.

«الزيارة» من مادة «زوّر»، ومعناه الأصلي الميل والعدول عن شيء، ويقال للكذب «زُور» لميله وانحرافه عن طريق الحق[١]. يقول أحمد بن فارس مضيفاً: ومن الباب: الزائر؛ لأنّه إذا زارَك فقد عدَلَ عن غيرك[٢].

ويقول الفيومي: والزيارة في العرف قصد المزور إكراماً له واستئناساً به[٣]

وقال بعض: إنّما أطلق على ملاقات الأولياء والعظماء اسم «زيارة» لأنّ في ذلك انحرافاً عن الماديّات، وعدولاً عن عالم الطبيعة، وتوّجهاً للعالم الروحاني، رغم حضور جسم الزائر في المحيط المادي الطبيعي.

وكأنّ المورد الوحيد الذي استعمل فيه القرآن الكريم هذه المفردة بهذا المعنى في آية ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[٤]. يقول المفسّرون في تفسيرها: إنّ طائفتين من قريش وهما بنو عبد مناف وبنو سهم بن عمرو تفاخرتا[٥]، وفخرت كلّ قبيلة على الأخرى برجالاتها وكبرائها، فاستعلت بنو عبد مناف، ممّا دعا بني سهم جبراً لخسارتهم في هذا التفاخر إلى القول إنّ كثيراً من كبرائهم قد هلكوا في العصر الجاهلي بسبب الظلم والعدوان، ولو كانوا أحياءً لعلونا عليكم، فانتهى بهم الأمر

---

١. الزاء والواو والراء أصل واحد يدل على الميل والعدول، من ذلك الزور: الكذب؛ لأنّه مائل عن طريقة الحق... يقال: إزورّ عن كذا أي مال عنه (مقاييس اللغة، مادة «زور»). وذكر الراغب الأصفهاني مادة أخرى لهذه المفردة.

٢. مقاييس اللغة، مادة «زور».

٣. المصباح المنير، مادة «زور».

٤. التكاثر: ١ ـ ٢.

٥. وقال بعض: إنّهما طائفتان من اليهود، انظر: مجمع البيان، ج٩ ـ ١٠، ص٨١١، ذيل الآية المذكورة.

إلىٰ زيارة المقابر لعدّ قبور موتاهم[١]؛ من هنا أطلق القرآن «الزيارة» علىٰ عمليّة الذهاب لأحد ولقياه أو القصد إلىٰ شيء ما.

الزيارة في الروايات

روىٰ عبد الله بن عمر، ابن الخليفة الثاني، عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «من جائني زائراً لا تحمله إلاّ زيارتي كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة»[٢].

وقد نقل المتتبّع الكبير العلامة الأميني هذا الحديث عن ستة عشر محدّثاً وحافظاً من السنّة، كما أثبت اسم واحدٍ وأربعين رجلاً من كبارهم، نقلوا عن عبد الله بن عمر أنّ الرسول الأكرم قال: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[٣]. وقد نقل هذا العالم الأمين ـ علاوة علىٰ هاتين الروايتين ـ عشرين رواية أخرىٰ في هذا السياق من مصادر أهل السنّة.

وروىٰ إسحاق بن عمّار، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مرّوا بالمدينة فسلّموا علىٰ رسول الله ﷺ، وإن كانت الصلاة تبلغه من بعيد»[٤].

فالزيارة من بعيد وإن كانت مقبولة وموصىٰ بها أيضاً؛ لكنّ هذه الرواية تفيد أنّ لحضور الزائر عند المزور وعند قبره خصوصيّة؛ لذا وردت التوصية بها. ومن تلك الخصوصيّات:

١) الإفادة من الجوّ المعنوي للعتبات الشريفة، التي هي محل تردّد الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء، ومثاب خاص للروح العالية للمزور، والدعاء فيها

---

١ . تفسير الصافي، ج٥، ص٣٦٩، وهناك تفسير آخر للآية، انظر: الميزان، ج ٢٠، ص٣٥١؛ لكن مع بقاء «زرتم» في معنىٰ اللقاء والقصد.

٢ . الغدير، ج٥، ص٩٧.

٣ . المصدر السابق.

٤ . وسائل الشيعة، ج١٤، كتاب الحج، ب٤ من أبواب المزار، ح٣.

باعتبارها من محالّ استجابة الدعاء؛ فحتىٰ الفرقة الوهابيّة تجيز الدعاء في المسجد الحرام ومسجد النبيّ، ويمارس أتباعها ذلك انتفاعاً بالجوّ المعنوي فيهما.

٢) ترويج الثقافة التوحيديّة وولاية أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام في الطرق والمدن الواقعة في مسار المشاهد المشرفة.

٣) هي مظهر الحبّ الصادق للمزور والتعلّق به.

٤) تعارف المجتمعات والأطياف المختلفة، والاطلاّع علىٰ المعوّقات والعقبات والامكانات عند الأطراف المختلفة.

٥) العمل بالوصايا القرآنيّة الكليّة، بالسير في آفاق الأرض والنظر في عواقب عصيان المجرمين: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[١].

٦) الوفاء للمقتدىٰ به والالتزام بالعهد المعقود معه.

٧) من بركات التردّد علىٰ مزارات الأئمّة المعصومين ومداومة السفر والترحال إليها أن أصبحت بمرور الأزمان مراكز علم وتبليغ وترويج للدين، ومنطلق الثورات والنهضات، ومعقد المواثيق والعهود من أجل الثورات التحرريّة وحركات استرداد الحقوق.

يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «من زارني أو زار أحداً من ذريتي زرته يوم القيامة فأنقذته من أهوالها»[٢].

وقال لعلي عليه السلام: «ياعلي! من زارني في حياتي أو بعد موتي، أو زارك في حياتك أو بعد موتك، أو زار ابنيك في حياتهما أو بعد موتهما، ضمنت له يوم القيامة أن أخلّصه من أهوالها وشدائدها حتىٰ أصيّره معي في درجتي»[٣].

---

١. النمل: ٦٩.

٢. وسائل الشيعة، ج١٤، كتاب الحج، ب٢ من أبواب المزار، ح٢٣.

٣. المصدر السابق، أبواب المزار، ب٢، ح١٤.

هذا الرواية ومثيلاتها تدل على أن لا فرق بين حياة النبي الأكرم ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام وبين مماتهم؛ لأن للزيارة حال الحياة والموت أجراً واحداً وأثراً متساوياً. من هنا ينبغي على الزائر أن يحضر في مزاراتهم الشريفة وكأنّه يحضر بحضرتهم أحياءً، وليكن حظّه من الزيارة حال الموت هو تلك الآثار البناءة عينها للزيارة حال الحياة؛ إذ الكون مع النبيّ الأكرم ﷺ في درجة واحدة لا يكون جزافاً وبدون تخطيط مسبق، بل لا بدّ من السنخيّة الروحيّة والأخلاقيّة والمعنويّة، وهذه السنخيّة يجب أن تكتسب في الدنيا.

ويجب في الزيارة التوّجه إلى مقام المزور، فالتمعّنُ في نصّ الزيارة والمجاهدة في تهذيب وتزكية النفس يعين في تحصيل هذه السنخيّة وتكمليها. سأل زيد الشحّام الإمام الصادق: ما لمن زار رسول الله؟ فقال: كمن زار الله عزّ وجلّ فوق عرشه. قال: قلت: فما لمن زار أحداً منكم؟ قال: كمن زار رسول الله ﷺ[١].

يقول الشيخ المفيد في معنى هذا الحديث: «هو أنّ لزائره عليه السلام من المثوبة والأجر العظيم والتبجيل يوم القيامة كمن رفعه الله إلى سمائه، وأدناه من عرشه الذي تحمله الملائكة، وأراه من خاصّة ملائكته ما يكون به توكيد كرامته»[٢]. وللمجلسي الأول كلام مشابه لهذا أيضاً[٣].

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: من زار قبر ولدي عليّ كان له عند الله كسبعين حجّة مبرورة، قال الراوي تعجباً: سبعين حجّة؟! قال: نعم وسبعين ألف حجّة. قال: سبعين ألف حجّة؟! قال عليه السلام: ربّ حجّة لا تُقبل...[٤].

---

١ . الكافي، ج٤، ص٥٨٥، ح١.
٢ . تهذيب الأحكام، ج٦، ص٤.
٣ . أُنظر: روضة المتقين، ج٥، ص٣٦٣.
٤ . الكافي، ج٤، كتاب الحجّ، باب فضل زيارة أبي الحسن الرضا عليه السلام، ص٥٨٥.

قال فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء الملاّ محسن الفيض الكاشاني: الروايات التي تفيد أنّ ثواب زيارة الأئمّة الأطهار أكثر من الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله أكثر من أن تُحصىٰ، والسّر في ذلك:

أولاً: إنّ الحجّ والجهاد ونحوهما يقوم به كلّ من يدّعي الإسلام وإن كان ناصبيّاً؛ بينما زيارة الأئمّة الأطهار مختصّة بمن يعرفون قدرهم ومنزلتهم ـ ولو معرفة ناقصة ـ ويؤمنون بإمامتهم.

ثانياً: إنّ الحرم الشريف للأئمة هو محفل أرواحهم العالية المقدّسة، ومحضر أشباحهم النوريّة البرزخيّة، فتلك الأرواح الحيّة والمبتهجة الطاعمة من فضل ربّها تحضر في تلك الأماكن الشريفة؛ ولذا فالزائر يتعبّد ويتضرّع ويتنفّس في مشهد تحضره روح الإمام المعصوم.

ثالثاً: زيارة الأئمّة صلة وتودّد إليهم عليهم السلام، وتحبّب إلىٰ رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والشيعة ومحبيّهم، بل هي تقرّب إلىٰ سائر أنبياء الله وأوليائه، وسبب لإدخال السرور عليهم، ولاستجابة الدعاء، وتجديد لعهدِ الولاية، وإحياء للأهداف واستنصار علىٰ الأعداء. وهذه الأمور كلها عبادة لله، وموجبة لنيل المرء للأفضال والبركات الإلهيّة والفوز برضاه؛ لأنّه إن كان إبهاج المؤمن العامّي فيه كلّ هذا الفضل والثواب، ففضلُ وأجر إبهاج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار لا يمكن بيانه ودركه، وهم المعصومون من الخطأ والذنب، جعلهم الله أئمة للمؤمنين وخلق لأجلهم السماء والأرض، وهم الصراط والسبيل إليه والدليل عليه، وباب الرحمة الإلهيّة ووسيلة الاتصال بينه تعالىٰ وبين عباده.

وأمّا الحجّ والعمرة والجهاد وما شابه ذلك فهي وإن استوجبت إنفاق المال وترك الوطن وتحمّل المشاق؛ لكنّها ليست بمرتبة الزيارة، لأنّها وإن كانت عبادة لله وامتثالاً لأمره وسبباً لرضاه ورضا أوليائه، إلاّ أنها قلّما حصلت بها تلك الفضائل

الأخرى[١].

قال الامام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «إنّ لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبةً في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة»[٢].

وهذه الرواية دالّة على ما يلي:

١ ـ إنّ زيارة قبر الإمام علامة الوفاء والاقتداء بالإمام القدوة، حيث ورد فيها: «إنّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم».

ولقد رأى المنادي بدعوة الرسول ـ أعني بلالاً الحبشي ـ رسول الله في النوم ـ وكان حينذاك مقيماً في الشام ـ وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني؟!.[٣]

ففي هذه الرؤيا عُنون ترك زيارة قبر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالجفاء؛ لأنّ زيارته وفاء بالعهد.

٢ ـ ينبغي أن تكون الزيارة عن رغبة وحبّ وشوق وعشق قلبي للمزور؛ لقوله عليه السلام: «رغبةً في زيارتهم».

٣ ـ ينبغي أن تقترن الزيارة بالتصديق القلبي بما يحبّه المزور ويرغب فيه، وضحّى من أجله؛ لقوله عليه السلام: «وتصديقاً بما رغبوا فيه».

ورد عن الأئمة الميامين أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ: والله لتقتلنّ بأرض العراق وتدفن بها. قلت: يا رسول الله! ما لمن زار قبورنا وعمّرها وتعاهدها؟ فقال لي: «يا أبا الحسن! إنّ الله جعل قبرك وقبر وُلدك بقاعاً من بقاع الجنّة وعرصة من

١ . أُنظر: الحقائق، ص٢٨٧.

٢ . الكافي، ج٤، ص٥٦٧.

٣ . تاريخ الاسلام، ج١٧، ص٦٧، في ترجمة إبراهيم بن محمد بن سليمان الشامي.

عرصاتها، وإنّ الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوته من عباده تحنُّ إليكم وتحتمل المذلّة والأذىٰ فيكم، فيعمّرون قبوركم ويكثرون زيارتها تقرّباً منهم إلىٰ الله ومودّةً منهم لرسوله، أولئك يا عليّ المخصوصون بشفاعتي والواردون حوضي، وهم زوّاري غداً في الجنّة. يا عليّ! من عمّر قبوركم وتعاهدها فكأنّما أعان سليمان بن داود علىٰ بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك له ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الاسلام، وخرج من ذنوبه حتىٰ يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمه، فابشر وبشّر أولياءك ومحبّيك من النعيم وقرّة العين، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر؛ ولكن حثالة من الناس يعيّرون زوار قبوركم بزيارتكم كما تعيَّر الزانية بزناها، أولئك شرار أمّتي، لا نالتهم شفاعتي ولا يردون حوضي»[١].

يجدر التنبه إلىٰ نقطة مهمة هنا، وهي أنّ الثواب المذكور في أمثال هذه الروايات دليل علىٰ خطر شأن المزور وجلالة قدره، كما تحكي عن الآثار الإيجابيّة الفرديّة والاجتماعيّة الحاصلة للزائر.

الزيارة في الفقه

أفتىٰ فقهاء الشيعة والسنّة بأستحباب الزيارة استناداً إلىٰ التوصيات المؤكّدة والكثيرة الواردة في شأنها، فقال فقيه الإماميّة الكبير، المحقق الحلّي: «يستحبّ زيارة النبيّ ﷺ للحاج استحباباً مؤكداً»[٢]، بل قال: «إذا ترك الناس زيارة النبي أجبروا عليها لما يتضمن من الجفاء المحرّم». وقال المرحوم الشيخ الطوسي: «... وكذلك

---

١ . تهذيب الأحكام، ج٦، باب فضل زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، ح٥٠؛ بحار الأنوار، ج٩٧، ص١٢٠.

٢ . شرائع الاسلام، ج٤، ص١٠٧، نشر مكتبة اسماعيليان، ايران.

إن تركوا زيارة النبيّ ﷺ كان على الإمام إجبارهم عليها»[١]. واعتمد هؤلاء العظام على حديث مرويّ عن الرسول الأكرم، قال: «من أتى مكة حاجّاً ولم يزرني إلى المدينة جفاني»[٢]، وإن ناقش بعض الفقهاء[٣] في هذه الإيجاب، إلاّ أنّ الشهيد الثاني قال: «استلزام ترك الجميع زيارته ﷺ التهاون بأعظم السنن وأجلّها، فيجبرون عليها إلى أن يقوموا بما يدفع ذلك»[٤].

وقال العالم السنّي الكبير ابن قدامة: ويستحب زيارة قبر النبي ﷺ لما روى الدارقطني بإسناده عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ فزار قبري بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي». وفي رواية «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[٥]. وقال ابن هبيرة: أئمة المذاهب الأربعة متّفقون على استحباب زيارة النبيّ[٦].

وقال بعض فقهاء الشيعة: ويمكن إثبات رجحان زيارة قبور الصلحاء والأبرار والمتّقين الأخيار بالأدلة الأربعة [الكتاب والسنّة والعقل والإجماع]، فضلاً عن زيارة الأنبياء والأوصياء المعصومين والعلماء العاملين[٧]، ثمّ شرع في التدليل على مدّعاه.

---

١ . المبسوط، ج١، ص٣٨٥، كتاب الحج.

٢ . جواهر الكلام، ج٢٠، ص٥٢. وفي الكافي (ج٤، ص٥٤٨) هكذا: عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى مكة حاجّاً ولم يزرني إلى المدينة جفوته يوم القيامة، ومن أتاني زائراً وجبت له شفاعتي، ومن وجبت له شفاعتي وجبت له الجنة».

٣ . انظر: جواهر الكلام، ج٢٠، ص٥٢.

٤ . مسالك الأفهام، ج٢، ص٣٧٤.

٥ . المغني والشرح الكبير، ج٣، ص٥٨٨.

٦ . جاء في (الموسوعة الفقهيّة) إصدار وزارة الأوقاف الكويتيّة: أجمعت الأمة الإسلامية سلفاً وخلفاً على مشروعية زيارة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذهب جمهور العلماء من أهل الفتوى في المذاهب إلى أنّها سنّة مستحبة. (المعرّب).

٧ . مهذب الأحكام، ج١٥، ص٣٣.

وقد بحث الفقيه الإمامي العلم في جواهر كلماته مسألة استحباب زيارة الصدّيقة الكبرىٰ فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين عليّ وأبنائهما المعصومين عليهم السلام في شرحه لكلام المحقق الحلي رحمه الله[1].

وعلاوة علىٰ ذلك فقد ثبت في محله أنّ الأئمّة الأطهار نور واحد في أربعة عشر رواقاً، فورد في الزيارة الجامعة: «... وأنّ أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة». وروىٰ زيد الشحام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيّهما أفضل الحسن أم الحسين عليهما السلام؟ قال: «إنّ فضل أولنا يلحق فضل آخرنا، وفضل آخرنا يلحق فضل أولنا.... خلقنا واحد، وعلمنا واحد، وفضلنا واحد، وكلّنا واحد عند الله عزّ وجلّ.... أولنا محمد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمد»[2].

وقريب من هذا ما سأله عبد الرحمن بن مسلم، قال: دخلت علىٰ الكاظم عليه السلام فقلت له: أيّما أفضل الزيارة لأمير المؤمنين، صلوات الله عليه، أو لأبي عبد الله عليه السلام؟ أو لفلان أو فلان؟ وسمّيت الأئمّة واحداً واحداً، فقال لي: «يا عبد الرحمن بن مسلم! من زار أولنا فقد زار آخرنا، ومن زار آخرنا فقد زار أولنا، ومن تولىٰ أولنا فقد تولىٰ آخرنا، ومن تولىٰ آخرنا فقد تولىٰ أولنا، ومن قضىٰ حاجة لأحد من أوليائنا فكأنّما قضاها لجميعنا...»[3].

وروي أيضاً عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال في شأن فاطمة الزهراء عليها السلام: «إنّ الله قد وكّل بها رعيلاً من الملائكة، يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها، وهم معها في حياتها وعند قبرها وعند موتها، يكثرون الصلاة عليها وعلىٰ أبيها وبعلها وبنيها؛ فمن زارني بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي، ومن زار

---

١ . جواهر الكلام، ج٢٠، ص٨٥ ـ ١٠٠.

٢ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٣٦٣.

٣ . المصدر السابق، ج٩٧، ص١٢٢.

فاطمة فكأنّما زارني، ومن زار عليّ بن أبي طالب فكأنّما زار فاطمة، ومن زار الحسن والحسين فكأنّما زار عليّاً، ومن زار ذريّتهما فكأنّما زارهما»[١].

فالزيارة لأيّ واحدٍ منهم زيارة لجميعهم حقيقة، وهم على درجة واحدة في الفضل؛ لكن بعض العوارض الخارجيّة كبعد الطريق والغربة وشدّة ظلم الحكّام الظالمين و... تكون سبباً في ورود توصية خاصّة لزيارة بعض الأئمّة، والوعد عليها بثواب خاص، كالإمامين الحسين والرضا، كما يمكن أن تكون تضحية الإمام الحسين المنعدمة النظير لأجل حفظ الدين سبباً لذلك أيضاً.

وبناءً على هذا، فلو لم يكن لدينا دليل خاص على زيارة الأئمّة العظام فانّ إثبات فضيلة واستحباب زيارة النبيّ الأكرم ﷺ كافٍ في إثبات فضيلة وثواب زيارة سائر الأئمّة وفاطمة الزهراء.

حديث العشق

فيضٌ هو الحضور بين يدي الإمام المعصوم أو المثول عند مرقده المطهّر، وهو يحصل في مرحلة من مراحل الزيارة، وفي كلّ زيارة يجلس الزائر ـ بعد اللقاء الظاهري والسلام المعتاد ـ عند المزور المعشوق للحديث، ليطيل اللقاء ويزداد لذّةً بالوصال.

إنّ كليم الحقّ تعالى قصد في ذلك الوادي المقدّس النار ليأخذ منها قبساً، وإذا به يسمع نداء محبوبه متحدّثاً معه، فسأله حينها: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ فقال موسى مجيباً: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[٢]. قال بعض المفسّرين:

١. المصدر السابق، ج٩٧، ص١٢٢، ح٢٨.
٢. طه: ١٧ ـ ١٨.

«و إطنابه عليه السلام بالإطالة في ذكر أوصاف العصا وخواصّها قيل: لأنّ المقام وهو مقام المناجاة والمسارّة مع المحبوب يقتضي ذلك؛ لأنّ مكالمة المحبوب لذيذة»[١].

فلا شكّ في أنّ أنجع عامل لإطالة المناجاة إظهار العشق والميل للمعشوق وذكر محاسنه. قال الإمام الصادق لهشام بن سالم: «إذا أحببت رجلاً فأخبره بذلك، فإنّه أثبت للمودة بينكما»[٢].

إنّ إظهار العشق مقروناً بالثناء وذكر كمالات المعشوق هو من جهة تكليف، بل هو تشريف ينير العاشقَ، ويفهمه عظم وظيفته تجاه هكذا معشوق ومحبوب، وهو من جهة أخرىٰ عمل يبهج قلب المعشوق ويطمئنه بأنّ حبّ العاشق ليس صوريّاً ومتزلزلاً؛ وبالنتيجة فإنّ الترنّم بالثناء وتعداد الأوصاف والكمالات، يجعل اللقاء أحلىٰ وأكثر حيويّة وأجلىٰ عشقاً وأشدّ حرارةً، ويبلغ به أوج كماله.

إنّ مضمون عريضة الثناء هذه هو رسالة العشق والحبّ، وهي المسمّاة اصطلاحاً بـ «الزيارة»، فالعاشق يعلن بتلاوتها حبّه وارتباطه الكامل بالمعشوق من جهة، ويلبّي إحدىٰ حاجياته الفطريّة ـ يعني الترنّم بالثناء وتمجيد الكمالات ـ من جهة أخرىٰ.

الزيارة المأثورة وغير المأثورة

تارةً يترنّم الزائر بكمالات المزور بحسب ما يخترعه من جملات، وهذا ثناء يكشف فقط عن مدىٰ ميل الزائر للمزور، والإعلام بتولّيه له وتبرّيه من مخالفيه، وبيان موقفه من المزور، وإظهار لمشاعره؛ وتارةً يثني عليه بحسب الوارد علىٰ لسان المعصوم، وهذا الصنف من الزيارات هو المسمّىٰ اصطلاحاً بـ«الزيارة المأثورة».

١ . تفسير الميزان، ج١٤، ص١٤٣، في تفسير الآية المذكورة.

٢ . الكافي، ج٢، باب إخبار الرجل أخاه بحبّه، ص٦٤٤.

وهذه الزيارات لا تعلّم كيفيّة إظهار التولّي والتبرّي وحسب؛ بل هي نصّ لمعرفة المزور والعلم بمنزلته؛ لأنّ كلّ أمرئ يتكلّم بمقدار معرفته، وكلام كلّ أمرئ منبئ عن سقف معرفته وعلمه؛ لأنّ «الكلام صفة المتكلم»[1] و «كلٌّ يأتي بما هو أهله»[2].

شعر:

إنّ كأس الخزف يدلي بسرّه حينما ينادي[3].

المرء مخبوء تحت لسانه، هذا اللسان حجاب على القلب[4].

إنّ الزيارة مدرسة تعليم وتربية، وهذه الزيارات هي كُتب هذه المدرسة، فقد أوضح فيها الأئمّة ـ الذين ما فتروا عن تعليم وتربية أتباع الحقّ، وبيان حقائق ومعارف الدين ـ بحوثاً في التوحيد وصفات الله، والنبوّة والإمامة، وتاريخ حياة الأئمّة ومظلوميتهم ومآسيهم، وفضحوا فيها ظلم الحكّام الجناة لطلاّب الحقّ والحقيقة والعدالة وناصريهم، وبيّنوا فيها لزوم الانسجام الفكري ووحدة الهدف وتنسيق العمل و... في هذه الزيارات تُكرّر نعوت المزور حين السلام عليه، ولا يُكتفى بذكر الاسم؛ وذلك لأجل كشف مرتبة المزور لدى الزائر، وليعرف مدى ما تحمله معشوقه ومحبوبه من مشاقّ في سبيل إعلاء كلمة التوحيد، وإقامة الصلاة وأداء الزكاة، وإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة كتاب الله، و...

الزيارات المأثورة قسمان

١ . زيارات خاصّة، يزار بها إمام بخصوصه، والزائر يظهر فيها ولاءه وسلامه لأحد أئمة النور، مثل «السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام

---

١ . أمثال وحِكم، ج١، ص٢٦٨.

٢ . المصدر السابق، ج١، ص١٢٧.

٣ . المصدر السابق، ج٣، ص١١٨٤.

٤ . المصدر السابق، ج٣، ص٧٩، نقلاً عن مولانا.

عليك يا محمد بن عبد الله...»، «السلام عليكِ يا ممتحنة، امتحنكِ الذي خلقكِ قبل أن يخلقكِ، وكنتِ لما امتحنكِ به صابرة...»، «السلام على أبي الأئمّة وخليل النبوّة والمخصوص بالأخوّة...»، «السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك...»، «اللهمّ صلّ على علي بن موسى الرضا المرتضى، الإمام التقي النقي...»، «السلام على محيي المؤمنين ومبير الكافرين، السلام على مهدي الأمم وجامع الكلم...».

٢. الزيارات ذوات المحتوى العام والمعنى الكلّي، فيصح أن يزار بها أيّ إمام، كزيارة أمين الله والزيارة الجامعة والزيارة الرجبيّة التي مطلعها: «الحمد لله الذي أشهدنا مشهد أولياءه في رجب...»[١] والزيارة الجامعة الصغيرة و... [٢].

مراحل إثبات الكمال

ثمّة مراحل ثلاث لإثبات أيّ فضيلة وكمال:

الأولى: إمكان اتّصاف الإنسان بذلك الكمال.

الثانية: ضرورة الاتّصاف به؛ بمعنى ما هي السلبيات المترتّبة على عدم حصول تلك الفضيلة وذلك الكمال وعدم التحلّي بهما؟ وما هي الفوائد إذا ما اتّصف الشخص بهما؟

الثالثة: تعيين المصاديق الخارجيّة لذوي ذلك الكمال وتعريفهم للآخرين.

عناصر معرفة المراحل الثلاث

بمقدور العقل فهم الكليّات فقط، وله القدرة دوماً على إثباتها أو نفيها، وليس

١. انظر هذه الزيارات في «مفاتيح الجنان».

٢. ذكر المرحوم العلامة المجلسي ١٤ زيارة جامعة في كتاب الزيارت من البحار (ج٩٩، ص١٢٦ ـ ٢٠٩).

بمقدوره النظر فيما يرجع إلى المصاديق الخارجيّة؛ لأنّه يعدّها خارجةً عن مدار إدراكه. ومن هنا فالمرحلتان الأولى والثانية قابلتان للإدراك والنظر العقلي، فالعقل قادر على إثبات إمكانيّة تحصيل الإنسان لفضائل من قبيل مظهريّة الأسماء الإلهيّة الحسنى والعصمة والعلم بالغيب و... ونفي إمكانيّة اتّصافه بصفات مثل وجوب الوجود. وحينها سيُثبت في المرحلة الثانية ضرورة وجود رجال عظماء وكاملين؛ ليغدوا مشاعل هداية للبشريّة، ويقودوا المجتمع الإنساني إلى المنزل المقصود، ويُدرك مدى الفاجعة المهولة التي ستحل بالمجتمعات البشريّة إذا ما فقد هكذا رجال!! ويوجد بالطبع براهين نقليّة على هذا المعنى مؤيدة للعقل في إقامة البرهان، وليست مختصّة بهاتين المرحلتين فقط؛ لكنّ العقل عاجز في المرحلة الثالثة، وهي مرحلة إثبات اتّصاف شخص معيّن بكمال معيّن؛ لأنّ ذلك من الأمور الجزئيّة.

وكلّ الزيارات ـ ومنها الزيارة الجامعة الكبيرة وهي محور هذه المجموعة من البحوث ـ تتكفّل بالمرحلة الثالثة، يعني الإثبات النقلي لفضائل وكمالات الحجج الطاهرين، كما هو الحال في الكثير من الروايات.

دور العقل في تشخيص المصداق

إنّ مجال فعالية العقل ـ كما ذُكر ـ تنحصر في مرحلتين: إمكان اتّصاف الإنسان بالكمالات وضرورة ذلك؛ لكنّه يستطيع إعانة الإنسان في تعيين المصداق أيضاً، في حدوده الكليّة لا غير، فيستدلّ العقل في إطار عونه للإنسان بالطريقة التالية:

١ ـ إنّ نظام الكون الموجود هو النظام الأحسن.

٢ ـ كما أنّ وجود الجنّة والنار، والملائكة المدبّرة للأمر، والوحي والتشريع و... لازم لا ينفكّ عن النظام الأحسن؛ فوجود المعصوم وهو الإنسان المتحلّي بهذه الكمالات والفضائل والمرتبط بخالق الوجود في النظام الأحسن أمر لازم أيضاً.

(وهذه المقدمة هي المرحلة الثانية).

٣ ـ لا بدّ لهكذا أفراد من أن يكونوا موجودين فعلاً في المجتمعات البشريّة، وإلاّ لما صار النظام أحسن.

٤ ـ إنّ المعجزة معيار سليم لمعرفة هكذا أفراد؛ لأنّ خالق النظام الأحسن لا يجريها على يد المضلّلين لعباده، لأنّه حكيم ولا يفعل العبث، بل يجريها على أيدي رسله المعصومين لتكون دليلاً على حقيّتهم.

والنتيجة: إن أتى مدّعي النبوّة بمعجزة فهو رسول الله جزماً، ومأمور من قبله، وكلامه ـ وهو لا يقول إلاّ الحقّ ـ حجّة على الكلّ.

كما يُستنتج أنّ هكذا إنسان معصوم لو أيّد عصمة شخص معيّن أو ذهب إلى كونه خليفته من بعده، تثبت عصمة ذلك الشخص المعيّن أو خلافته، وبالتالي يكون كلامه حجّة أيضاً؛ باعتبار أنّه معصوم ومؤيّد من قبل المعصوم.

وإضافة إلى ما مضى، فإنّ العقل هو الكفيل بإيضاح معنى المعجزة والفرق بينها وبين العلوم الغريبة، فبمعونة العقل يمكن لنا أن نفهم أنّ الفعل الخارق للعادة هل هو من قبيل المعجز أو السحر ونحوه؛ وعليه فبهداية العقل ودلالاته وتحليلاته يمكن التفريق بين المعجزة وغير المعجزة، بل يمكن بمعونته تمييز النبيّ المعصوم من المتنبّئ غير المعصوم؛ لكن كلّ ذلك بنحو كلّي لا جزئي، ومحل البحث فيه الفلسفة وعلم الكلام، المتكفّل ببيان الكليّات العقليّة في المسائل الاعتقاديّة.

زيارة العارف بالحقّ

أكّدت روايات كثيرة على ضرورة معرفة المزور ومنزلته، فعن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال في شأن الإمام الرضا: «إنّ ابني هذا يموت في أرض غربة،

فمن زاره مسلّماً لأمره، عارفاً بحقّه، كان عند الله عزّ وجلّ كشهداء بدر»[١]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «زوروا الحسين ولو كلّ سنة، فإنّ كلّ من أتاه عارفاً بحقّه غير جاحد لم يكن له عوض غير الجنّة، ورزق رزقاً واسعاً، وأتاه الله بفرج عاجل...»[٢]. وقال أيضاً: «وكّل الله بقبر الحسين عليه السلام أربعة آلاف ملك، شُعثاً غبراً، يبكونه إلى يوم القيامة، فمن زاره عارفاً بحقّه شيّعوه حتى يبلغوه مأمنه، وإن مرض عادوه غدوة وعشيّة، وإن مات شهدوا جنازته واستغفروا له إلى يوم القيامة»[٣]. وقال لبشير: «يا بشير! من زار قبر الحسين بن علي صلوات الله عليه عارفاً بحقّه كان كمن زار الله في عرشه»[٤]. وورد مثل هذه الروايات في شأن سائر الأئمّة عليهم السلام أيضاً.

والسّر في تأكيدهم عليهم السلام على معرفة الزائر بمنزلة المزور هو أنّ إدراك ومعرفة مقام وشأن المزور سبب لكمال الزيارة، لا أن تكون أفعالاً بلا روح، مقرونةً بالغفلة، ومجرّد تقبيل للضريح والباب والجدار من دون معرفة، أو الدوران العبثيّ حول الضريح والتفرّج على الآثار الفنيّة وعدّ العمد والمصابيح والشموع والأبواب والنوافذ و... وما شابه ذلك، فإنّ ذلك بالسياحة أشبه منه بالزيارة! والثواب الأخروي والآثار الدنيويّة الواردة في الروايات مترتّب على الزيارة الواقعيّة، وهي

١ . بحار الأنوار، ج٩٩، ص٤١. كانت معركة بدر أولى المعارك المصيرية بين المسلمين والمشركين، وكان المشركون فيها في أوج قدرتهم، وكان المسلمون قليلي العِدّة والعَدّة، وكان للنصر أو الهزيمة في هذه المعركة تأثير عميق في مسيرة الإسلام ومصير المسلمين، والمشاركة فيها حاكية عن الصدق في الإيمان. من هنا صار وصف «البدريون» عنوان فخر كبير للمشاركين في تلك المعركة، وصارت هذه المشاركة معياراً لمقايسة الأعمال وبيان وزنها في بعض الموارد.

٢ . بحار الأنوار، ج٩٨، ص٢.

٣ . كامل الزيارات، ص٣٤٩، باب٧٧، ح١.

٤ . بحار الأنوار، ج٩٨، ص٧٧.

تتحقق حينما يحصل ارتباط قلبي مع المزور، وتكون سبباً لتحوّل الزائر، وليس مترتّباً على السياحة والزيارة الجسديّة والصوريّة.

ويشهد لهذه الدعوى كلام البزنطي، قال: قرأت كتاب أبي الحسن الرضا عليه السلام: «أبلغ شيعتي أنّ زيارتي تعدل عند الله عزّ وجلّ ألف حجّة» قال: فقلت لأبي جعفر عليه السلام: ألف حجّة؟ قال عليه السلام: «إي والله، ألف ألف حجّة لمن زاره عارفاً بحقّه»[1].

إنّ المعرفة ليست شرطاً في كمال زيارة الأئمّة الأطهار وحسب، بل قد ورد هذا التعبير في شأن طواف الكعبة أيضاً. قال إبراهيم التيمي: كنت أطوف بالبيت الحرام، فاعتمد عليّ أبو عبد الله عليه السلام فقال: ألا أخبرك يا إبراهيم ما لك في طوافك هذا؟ قال: قلت: بلى جعلت فداك، قال: «من جاء إلى هذا البيت عارفاً بحقّه فطاف به أسبوعاً وصلّى ركعتين في مقام إبراهيم عليه السلام، كتب الله له عشرة آلاف حسنة، ورفع له عشرة آلاف درجة»[2].

وجاء في شأن المؤمن أيضاً عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قالا: «أيّما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفاً بحقّه كتب الله له بكلّ خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، فإذا طرق الباب فُتحت له أبواب السماء، فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا أقبل الله عليهما بوجهه، ثمّ باهى بهما الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبديّ تزاورا وتحابّا فيّ، حقٌّ عليّ ألاّ أعذبهما بالنار بعد ذا الموقف...»[3].

---

١ . بحار الأنوار، ج٩٩، ص٣٣.

٢ . وتتمّة الرواية هي: ثمّ قال: ألا أخبرك بخير من ذلك؟ قال: قلت: بلى جعلت فداك، فقال: «من قضى أخاه المؤمن حاجة كان كمن طاف طوافاً وطوافاً، حتى عدّ عشراً، وقال: أيّما مؤمن سأله أخوه المؤمن حاجة، وهو يقدر على قضائها ولم يقضها له، سلّط الله عليه شجاعاً في قبره ينهش أصابعه». (بحار الأنوار، ج٧١، ص٣١٩).

٣ . بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٤.

فالدور الأساس في فضل وكمال الزيارة هو للمعرفة بحقّ المزور.

إنّ مسائل من قبيل ما هي حقيقة شخصيّة الإمام المعصوم عليه السلام؟ وكيف يمكن معرفته؟ وما هو حقّه؟ وما حقّ معرفته؟... تتطلّب بحوثاً مطوّلة[١]؛ ولكن يمكن القول بإيجاز:

الإمام جامع كلام التكوين والتدوين، وعنده كتاب الحقيقة والشريعة، ومحيط بالنشأة الحقيقيّة والاعتباريّة، وهذه الجامعيّة ليست من شأن نظام الوجود بعوالمه الثلاثة (عالم العقل وعالم المثال وعالم الطبيعة)؛ لأنّ كلاً من المراحل الثلاث لنظام الوجود تكوين محض، ولا يوجد فيها سوى الوجود والعدم، كما أنّها ليست في رتبة نظام التدوين للقرآن الكريم؛ لأنّ كلّ مضامينه، الأعم من الإخبار والإنشاء اللفظيين، هي مفاهيم للعلم الحصولي وحاكية عنه، وإن كانت ينابيعها العليا حقائق تكوينيّة لنظام الوجود؛ لكنّ الإنسان الكامل، وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام هم المثل الأعلى له، إضافة إلى مجال التكوين الوسيع، متسلّط على منطقة الاعتبار الرحبة أيضاً؛ لأنّ الإنسان موجود مفكّر ومختار، وهو يستنّ بالقوانين الاعتباريّة، بغضّ النظر عن قوانين نظام الوجود. علماً أنّ عماد هذه القوانين الاعتباريّة هي القوانين التكوينيّة، وأصول النظام الموضوعي هي التي تشرق بنورها على فروع المنظومة الاعتباريّة؛ ومن هنا فليس بمقدور أيّ موجود أن يكون بمستوى جامعيّة الإنسان الكامل، فهو لا غير من بمقدوره أن يصبح «كوناً جامعاً».

---

١. سأل أبو ذر سلمان الفارسي (رضوان الله عليهما) عن معرفة أمير المؤمنين عليه السلام فقال سلمان: يا جندب! فامض بنا حتى نسأله عن ذلك. لمعرفة جواب الإمام لهذين الصحابيين الجليلين ينظر بحار الأنوار، ج٢٦، ص١ ـ ٧.

إنّ الجامعيّة الموضوعية والعلميّة لأهل بيت النبوّة والإمامة بمعنى:

أولاً: تحلّيهم بكلّ كمال ممكن.

ثانياً: إنّ كلّ ما لديهم مصون من العيب والنقص.

ثالثاً: إنّ ما يتحلّون به في مرحلة الحدوث باقٍ لا يزول.

ويمكن استنباط مقام جمع الجمع هذا من كونهم عليهم السلام عِدل القرآن، ذلك الكتاب الإلهي الفريد. فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله باتّفاق محدّثي الشيعة والسنّة: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1]. ومخاطبو هذا النداء هم وارثو التمدّن الإسلامي الثري والقوي على مدى سعة الزمان والكرة الأرضيّة، فلا يستثنى جيلُ أيّ عصر ولا شعبُ أيّ مصر من هذه التوصية السارّة.

إنّ هذه الوصيّة العامّة تدلّ على التناسق الكامل بين التكوين الإنساني والتدوين الإلهي، بنحو يكون جميع الناس في هذه الأرض محتاجين في مقامي العلم والعمل إلى هداية وقيادة القرآن والعترة، إلى حين فجر المعاد.

وما من مدرسة توجد إلى نهاية ليل البشريّة إلاّ وهي بحاجة إلى عرض فكرتها عن الكون والعالم على القرآن والعترة، ومعرفة الجواب نفياً أو إثباتاً من ذينك الثقلين.

وهكذا عمل يتطلّب عزماً من المجتمع الإنساني وتصميماً من الأمّة الإسلاميّة؛ كي تفعّل القدرة الذهنيّة لديها لاستنطاق ذينك الثقلين العظيمين أولاً، ولتعدّ أذناً واعية لاستماع نداء الحياة منهما ثانياً، وليعرض المنظّرون نقدهم والباحثون

---

١ . سنن الترمذي، ج٥، ص٣٢٩، الحديث ٣٨٧٦، ط، دار الفكر؛ بحار الأنوار، ج٢، ص١٠٠ و ج٢٣، ص١٠٨.

تحقيقاتهم النافعة بعد تنقيحها وترتيبها على مدرسة الثقلين قبل اعتمادها؛ كي يفيدوا من هذا السؤال والجواب والصعود والهبوط، فيصفو فكر البشر وتثبت لهم قدم العمل، ولا يبتلوا بالوقوع في شرَك تضليل الأجانب وتلبيس الشيطان ثالثاً.

هذه المعرفة بمقام ومنزلة الإمام ستخلق أرضيّة مناسبة لإطاعة المزور والتسليم له في أوامره ونواهيه، التي هي حكم الله. وثمّة حديثٌ للإمام الصادق عليه السلام حول فضيلة زيارة الإمام الرضا عليه السلام عن معرفةٍ، فقد سأله حمزة بن حمران قال: جُعلت فداك! وما عرفان حقّه؟ قال: يعلم أنّه مفترض الطاعة غريب شهيد...»[١]، وقال هند الحنّاط: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «من زار الحسين عليه السلام عارفاً بحقّه يأتم به غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر»[٢]. وهذا الإمام الكاظم عليه السلام أيضاً في حديث يرى أنّ غفران الذنوب أقل أجر لزيارة قبر الحسين عليه السلام؛ لكن بشرط معرفة الزائر بحقّ الإمام وحرمة ولايته. قال عليه السلام: «أدنى ما يثاب به زائر الحسين عليه السلام بشاطئ الفرات إذا عرف حقّه وحرمته وولايته أن يغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر»[٣]. وجاء في رواية أخرى: «من نوى من بيته زيارة قبر إمام مفترض طاعته وأخرج لنفقته درهماً واحداً كتب الله جلّ ذكره له سبعين ألف حسنة، ومحى عنه سبعين ألف سيئة، وكتب اسمه في ديوان الصدّيقين والشهداء»[٤].

وبحسب رأي أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، المجسّدين للإسلام النبويّ والعلويّ الحقّ، خُلق الإنسان حرّاً، فلا طاعة لأحد في عنقه. قال علي عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً»[٥]، بل إنّه محدود الاختيار في هذا الأمر

---

١ . بحار الأنوار، ج٩٩، ص٣٥، ح١٧.

٢ . كامل الزيارات، الباب ٥٤، ح٧.

٣ . المصدر السابق، الباب ٥٤، ح٤.

٤ . بحار الأنوار، ج٩٧، ص١٢٤، ح٣٤.

٥ . نهج البلاغة، الرسالة ٣١، الفقرة ٨٧.

أيضاً، فكما لا يحقّ له المخاطرة بسلامته كأن يقطع يده ورجله، أو يعمي عينه ويصمّ أذنه، كذلك ليس له أن يفرّط في حريّته وعزّته وكرامته، وسرّ ذلك أنّ العزّة ليست وسيلة للاكتساب ليعرضها في سوق المعاملات، بل هي أمانة إلهيّة خاصّة في يده، والله تعالىٰ هو صاحب السلطة فيها، وليس للمؤمن أن يتصرّف فيها بما يتجاوز تصرّف الأمين الصالح؛ لـ «أنّ الله فوّض إلىٰ المؤمن أمره كلّه، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين**﴾، فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً»[١]. وعلىٰ هذا فالديمقراطيّة وحكم الشعب لا يكون صالحاً للاجراء ـ حسب النظام السياسي للإسلام ـ إلاّ وفق محور الدين وفي نطاق الشرع؛ وحينها تكون آراء الشعب سبباً للتعهّد الشرعي من قِبل الحكّام، فيكون نقضه وتجاهله حراماً شرعاً، وليس محض عقد عرفي بحيث تكون مخالفته عملاً غير أخلاقي وحسب.

والنتيجة: إنّ اختيار الإنسان بيد الله، وطاعة الله والانقياد إليه واجب علىٰ الجميع، وإطاعة الآخرين (النبيّ والإمام والأب والأم والحاكم و...) تجب علىٰ المكلّف عرضاً؛ لأنّ هكذا طاعة وتبعيّة أوجبها الله سبحانه، وإلاّ فمع صرف النظر عن أمره تعالىٰ لا حاكميّة ولا ولاية لأحد علىٰ أحد.

وعلىٰ هذا فالزائر إنّما يكون عارفاً بحقّ إمامه وبولايته وحرمته ومقتدياً به ومتبّعاً له إذا ما علم أنّه معصوم، وأنّه الأفضل والأعلم من غيره، وأنّه خليفة رسول الله ﷺ، ومنصوب من قِبل الله تعالىٰ، وعلم أنّ أوامره وتعاليمه أوامر الله سبحانه، وأنّ اتّباعه في شؤون الحياة كلّها واجب، فيخطط حياته علىٰ ضوء الاقتداء بسيرته واتّباع سنّته. وهكذا معرفة وإن كانت ذات تشكيك ومراتب كثيرة، وكلّ

---

١. بحار الأنوار، ج٦٤، ص٧٢.

امرئ يفيد منها بمقدار قابليته؛ لكنّها بحاجة لأن تُبنىٰ علىٰ مقدمات عديدة لتكون مستدلّة ومبرهنة، والزيارات المأثورة إحدىٰ منابع معرفة مقام المزور.

وبلحاظ دلالة الروايات علىٰ كون معرفة الإمام هي معيار كمال الزيارة، فمن المناسب هنا ذكر رواية عن الامام علي عليه السلام. يقول الشارح المعتزلي ابن أبي الحديد: لّما كره القوم المسير إلىٰ الشام عقيب واقعة النهروان، أقبل بهم أمير المؤمنين، فأنزلهم النخيلة، وأمر الناس أن يلزموا معسكرهم، ويوطّنوا علىٰ الجهاد أنفسهم، وأن يقلّوا زيارة النساء وأبنائهم، حتىٰ يسير بهم إلىٰ عدوّهم، وكان ذلك هو الرأي لو فعلوه؛ لكنّهم لم يفعلوا، وأقبلوا يتسلّلون ويدخلون الكوفة، فتركوه عليه السلام وما معه من الناس إلاّ رجال من وجوههم قليل، وبقي المعسكر خالياً، فلا من دخل الكوفة خرج إليه، ولا من أقام معه صبر.

فلما رأىٰ ذلك دخل الكوفة. وبعد أيام خطب فيهم ثانية، وفي ضمن إعرابه عن تبرّمه وعدم رضاه عدّد الحقوق المتقابلة بين الرعيّة والراعي، فقال:

«أيّها الناس! إنّ لي عليكم حقاً ولكم عليَّ حقّ؛ فأمّا حقّكم عليَّ فالنصيحة لكم وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا»[١].

فالحقّ الذي عليه هو:

١ ـ النصيحة لهم.

٢ ـ جمع الفيئ وإنفاقه عليهم وعدم الإفادة الشخصيّة منه.

٣ ـ أن يعلمّهم لئلاّ يجهلوا.

٤ ـ أن يهذّبهم ويؤدبّهم كي يعلموا.

ثمّ قال: «وأمّا حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم».

---

١ . شرح نهج البلاغة، مج١ ـ ٢، ص٣٩٢.

والحقّ الذي له هو:

١ ـ أن يفوا له بالبيعة.

٢ ـ أن يخلصوا له وينصحوا في السرّ والعلن.

٣ ـ أن يلبّوا دعوته إذا دعاهم.

٤ ـ أن يمتثلوا أمره.

والسؤال هنا هو: إنّ نصيحة عليّ عليه السلام للناس أمر لاشية فيه ولا إشكال؛ لأنّها من حقوقهم، لكن ما معنى نصيحتهم له وهو المعصوم والأفضل والأعلم من غيره؟ إذ لا سبيل للخطأ والنسيان والسهو إليه عليه السلام؛ لأنّه الإنسان الكامل المنصوب تنصيباً خاصّاً من قِبل ربّ العالمين، فهل يصحّ واقعاً نصيحة البشر الناقصين للمعصوم الكامل؟

والجواب: إنّ هذا الاشكال ناتج من عدم الدقّة في معنى النصيحة، ومنشأه خلط المصداق بالمفهوم كما يقال في الاصطلاح، فلا بدّ لنا من التعرّف على أصل هذه المفردة.

كلمة «النصيحة» مشتقّة من مادة «نصح» ويقابله «الغشّ»، والغشّ يُطلق على غير الخالص، فيقال: «حليب مغشوش» للمزوج بالماء. والغشّ في المعاملة هو أن يمزج البائع الرديء بالجيّد، ويبيعه على أنّه جيّد كلّه، أو أنّ المشتري يخلط النقود المزيّفة بالنقود الصحيحة، ويعطيها البائع على أنّها نقود معتبرة[1].

فيكون معنى كلمة «النصح» الخلوص والنقاء من أيّ عيب ونقص؛ وعليه فالنصح مأخوذ فيه معنى الخلوص والتنزّه والنقاء، و«الغشّ» هو المشوب والمعيب بغيره، وكلّما خلص الشيء وصفى اقترب من النصح، وكلّما زاد فيه العيب صار

---

١ . غشّه غشّاً ـ من باب قتل والاسم غِش بالكسر ـ لم ينصحه وزيّن له غير المصلحة، لبن مغشوش مخلوط بالماء. (المصباح المنير، ويلاحظ أيضاً: المقاييس، العين، الصحاح).

للغشّ أقرب. والله سبحانه حينما أمر المؤمنين بالتوبة أوصاهم بأن تكون توبتهم خالصة لا غشّ فيها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾[١].

هذا المعنى العام للنصح يصدق في كلّ مورد بحسبه، ففي علم الأخلاق يقولون: النصيحة ضدّ الحسد، بمعنى أنّ المرء عليه أن يحبّ لأخيه المؤمن النعمة التي فيها صلاحه. وببيان آخر:

إنّ من يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه، فهو ناصح، وإن لم يحب لأخيه المؤمن ما يحبّ لنفسه، أو أحبّ له ما لا يحبّه لنفسه فهو حسود[٢]. فالنصيحة في الحقيقة بمعنى حبّ الخير للآخرين، ومحبُّ الخير يقال له «ناصح»؛ لأنّه ذو لون واحد وصافي النيّة تجاه غيره، فلا يخونه ولا يمكر به. قال العلاّمة المجلسي رحمه الله: «والاسم النصيحة، وهي فعل أو كلام يراد بهما الخير للمنصوح، واشتقاقها من نصحت العسل إذا صفيته؛ لأنّ الناصح يصفّي فعله وقوله من الغشّ، أو من نصحت الثوب إذا خطته؛ لأنّ الناصح يلمّ خلل أخيه كما يلمّ الخياط خرق الثوب»[٣].

أمّا النصيحة القوليّة المعروفة فسميّت بذلك لأنّها مصداق من مصاديق الصدق والصفاء والنقاء وحبّ الخير، لا أنّها في نفسها «نصح».

وأحد موارد توصيات الروايات النصح للمستشير، فالناصح هو من يستشار، فقد جاء أنّ «من استشاره أخوه فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبّه»[٤]، وقال الإمام المجتبى عليه السلام وهو يحمد أحد أصحابه: «ولا يستشير إلاّ من يرجو عنده النصيحة»[٥].

---

١ . التحريم: ٨.

٢ . معراج السعادة، ص٤٥٥.

٣ . بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٥٧.

٤ . المصدر السابق، ج٢، ص١٠٤.

٥ . المصدر السابق، ج٦٦، ص٢٩٥ نقلاً عن الكافي.

ومن مستثنيات الغيبة في حكم الشرع النصيحة للمستشير[١].

ولا شكّ في أنّ المستشير ليس بحاجة في مشورته إلىٰ مجرّد النصح والإرشاد القولي، بل هو بحاجة إلىٰ حبّ الخير والصفاء والصدق من المشير؛ كي يُعمِل عقله ويشير عليه بما يراه بكلّ صدق.

قال النبي الأكرم ﷺ: «من يضمن لي خمساً أضمن له الجنّة، قيل: وما هي يارسول الله؟ قال: النصيحة لله عزّ وجلّ، والنصيحة لرسوله، والنصيحة لكتاب الله، والنصيحة لدين الله، والنصيحة لجماعة المسلمين»[٢].

وقد صرّح الفيّومي بأنّ «نصح» يتعدّىٰ باللام، فقال: نصحت لزيد أنصح نصحاً ونصيحة، هذه اللغة الفصيحة، وعليها قوله تعالىٰ: **﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾**، وفي لغة يتعدّىٰ بنفسه، فيقال: نصحته[٣].

وقد جاء مثل هذا التعبير في القرآن الكريم أيضاً، قال تعالىٰ: **﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ﴾**[٤].

وربما تجاسر جهول عريّ من معرفة الإمام فقال: يصحّ نصح الإمام المعصوم، كما دعىٰ بعض المتنسّكين الجاهلين[٥] رسول الله إلىٰ أن يعدل! ولكن يجب التحقيق؛

---

١. المصدر السابق، ج٧٢، ص٢٣٩ نقلاً عن قواعد الشهيد.

٢. بحار الأنوار، ج٢، ص٦٥.

٣. المصباح المنير، مادة «نصح».

٤. التوبة: ٩١.

٥. هو حرقوص بن زهير، المعروف بابن أبي خويصرة التميمي، قال للنبي حين تقسيم غنائم حنين: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: يا رسول الله! ائذن لي فأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: دعه.. ثمّ أخبر أنه سيكون من الخوارج، وصار من رؤوسهم بعد هزيمتهم في النهروان. (بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٧).

لمعرفة أيّ معنىٰ يراد من النصيحة لله في الآية الكريمة؟

يقول لغوي العرب الكبير ابن الأثير: النصيحة: كلمة يُعَبَّرُ بها عن جملة هي إرادة الخير للمَنْصوح له، وليس يُمكنُ أن يُعَبَّر هذا المعنىٰ بكلمة واحدة تجْمَع معناه غيرها.

وأصل النُّصح في اللغة: الخُلوص. يقال: نَصَحْتُه ونَصحتُ له.

ومعنىٰ نصيحةِ الله: صِحَّةُ الإعتقاد في وحدانيّته وإخلاصُ النِيَّة في عبادتِه.

والنصيحة لكتاب الله: هو التصديق به والعمَلُ بما فيه.

ونصيحة رسوله: التصديق بنُبُوَّته ورسالتِه والانْقياد لما أمَر به ونَهَىٰ عنه.

ونصيحة الأئمّة: أن يُطِيعَهم في الحقّ ولا يَرىٰ الخروجَ عليهم إذا جارُوا. ونَصيحة عامّة المسلمين: إرشادُهم إلىٰ مصالِحِهم.[1] اهـ.

وعلىٰ هذا فمعنىٰ النصيحة في كلام أمير المؤمنين«وأمّا حقّي عليكم... والنصيحة في المشهد والمغيب» هو حبّ الخير والطاعة، وهذا لا ينافي مقام العصمة في شيء، كما أنّ معنىٰ النصيحة في أول كلامه «فأمّا حقّكم عليّ فالنصيحة لكم» هو ذلك أيضاً؛ لكنّ حبّ الخير تارةً يكون بمظهر الارشاد والتوجيه اللساني، وتارةً يكون بمظاهر أخرىٰ.

دعوة إلى الكمال

إنّ التخلّق بأخلاق الله وجذب البشر إلىٰ الله هو هدف رسالة الأنبياء، ونداؤهم أن«تخلّقوا بأخلاق الله»[2]، وهذا معنىٰ ما سمّاه القرآن الكريم بالتنوّر:

---

١ . النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة «نصح».

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٣٤.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١]، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، يعني أنّ الرأفة والرحمة الرحيميّة لله تقتضي إنزال آيات بيّنات على عبده المصطفى لإخراج العباد من الظلمات إلى النور. من هنا على البشر أن يضعوا التخلّق بأخلاق الله والتنوّر والاصطباغ بصبغته تعالى غاية كبرى وهدفاً أعلى لهم؛ لأنّهم كلّما تقدّموا في هذا المسار اقتربوا أكثر من كمالهم.

وكافّة المعارف الدينيّة المختزلة في العقائد والأحكام والأخلاق، سواء تلك الواردة في الآيات والروايات الفقهيّة والحقوقيّة أم الواردة في الزيارات والمناجاة والأدعية، موظفة لتحقيق هذه الغاية. وببيان آخر:

مخاطبو الشرائع الالهيّة ـ وهم البشر ـ تارةً يدعون إلى التنور والتخلّق بأخلاق الله ببيان صريح وواضح، وتارةً ببيان ضمني، والخطاب الضمني لمعارف الأديان الإلهيّة كافّة هو الاصطباغ بصبغة الله.

إنّ ذكر كمالات الله سبحانه وتعداد صفاته وأسمائه الحسنى يتضمن خصّيصتين:

الأولى: قابليّة البرهنة والاستدلال. يقول الحكماء والفلاسفة في هذا المجال: الله وجود محض، والوجود منشأ كلّ كمال، فللّه تعالى كمال[٣].

---

١. ابراهيم: ١.

٢. الحديد: ٩.

٣. قال الملا السبزواري: ... لأنه (الوجود) منبع كلّ شرف. انظر: شرح المنظومة، الفريدة الأولى في الوجود والعدم، غررٌ في أصالة الوجود، ج٢، ص٦٣. ويقول خواجة طوس: وهو (الوجود) خير محض. انظر: كشف المراد، المقصد الأول، الفصل الأول، المسألة الرابعة. وفي شرح هذا الكلام يقول عالم الحلّة الكبير: إذا تأملنا كلّ ما يقال له خير وجدناه وجوداً... فحكموا بأنّ الوجود خير محض والعدم شرُ محض؛ ولهذا كان واجب الوجود تعالى أبلغ في الخيريّة والكمال من كلّ موجود لبرائته عن القوّة والاستعداد... اهـ. المصدر نفسه.

وذكر صفات الكمال في أواخر آيات القرآن الكريم هو استدلال على الأسماء والأفعال المذكورة في تلك الآيات، وهو ما يسمّى اصطلاحاً بحكومة الأسماء الكليّة على الأسماء الجزئيّة.

وتفصيل هذا المبحث له مجال آخر.

الثانية: قرن الدعوة بذكر الكمالات والصفات والأسماء الحسنى الإلهيّة ليس بداعي مدح الذات، بل هذه الدعاوى المبرهنة والمدلّل عليها هي دعوة إلهيّة للعباد الطامحين إلى السعادة، بمعنى: لتكونوا أنتم أيضاً هكذا.

وحينما يرغّبنا الأئمّة عليهم السلام ويحثّونا على قراءة دعاء الجوشن الكبير وإحصاء الأسماء الإلهيّة فليس المراد محض التلفظ والتعداد؛ بل الغرض أن يبني الإنسان ذاته عبر تعداد هذه الأسماء ومعرفة معنى هذه الصفات، ويتخلّق بها[1]، فدعاء الجوشن الكبير وماشابهه هو في الحقيقة نداء ودعوة من الحقّ تعالى.

وطريق الوصول للكمالات وتفعيل العقل هو الانعتاق من الغضب والشهوة؛ لأنّ هذا الانعتاق ـ المتجلّي في التبعيّة لحبيب الله صلى الله عليه وآله ـ يقرّب الإنسان من مصدر الحياة والوجود الذي هو الحقّ تعالى، منشأ الكمالات كلّها، ويحببّه إليه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[2]، وكلّما قرب الإنسان من مصدر الكمال ازدادت كمالاته، فالقرب من الإله العليم القدير الكريم الحكيم و... يصيّر الإنسان عالماً قادراً كريماً حكيماً، وإذا ما أسلم الإنسان عينه وأذنه لله سيكون مظهراً للسميع والبصير، وإذا ما استعمل علمه في مرضاته صار مظهراً للعليم، وإذا ما آثر إرادة الباري تعالى صار مظهراً للمريد، وهكذا.

---

١ . «إنّ لله تبارك وتعالى تسعةً وتسعين اسماً... من أحصاها دخل الجنّة...». بحار الأنوار، ج٤، ص١٨٦.

٢ . آل عمران: ٣١.

إنّ سرّ التوصية بنيّة القربة حين الإتيان بالأعمال هو تقرّبُ الإنسان إلى الله والتمظهر بأسمائه وصفاته.

وجاء في بعض الروايات اعتبار الصلاة والزكاة وسيلتين للتقرّب من الله: «الصلاة قربان كل تقيّ»[١]،«إنّ الزكاة جُعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الاسلام»[٢]، وأطلق عنوان«قربان الله»[٣] على البقرة والبعير والكبش، وهي ما تُذبح بآداب وشرائط خاصّة، والمسمّاة اصطلاحاً «أضحية».

إنّ لكلّ عبادة سرّاً وحكمةً، ووعي الإنسان بتلك الحكمة سبب لمزيد توفيق له في بناء الذات وتكاملها.

والأضحية في منى وغيرها مظهر لذبح الهوى الشيطاني والرغبات النفسانيّة. قال المرحوم الأستاذ الهي قمشه اي في هذا المجال:

شعر:

حينما تصل منى احذر العجب بالنفس
احلق الرأس، يعني اقلع من رأسك الغرور
واخلع الاحرام والبس ثوب التقوى
واذبح النفس البهيميّة حين ذبح الأضحية[٤].

إنّ كلاً من هذا العبادات: الصلاة والزكاة والأضحية ونحوها؛ ذكرت من باب المثال والمصداق، وإلاّ فالقربان يطلق على كلّ مقرّب للعبد من الله، فكلّ عمل عبادي وحتى غير العبادي قربانٌ وسبب لتقرّب الإنسان من الله؛ شريطة اقترانه بقصد القربة، وإن لم يُسمّ قرباناً ولا يكون سبباً للتقرّب، وإن كان مثل الصلاة.

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ١٣٦.

٢. المصدر السابق، الخطبة١٩٩، الفقرة ٧.

٣. بحار الأنوار، ج٩٦، ص٢٩٧، ح٢٠.

٤. ديوان الحكيم الإلهي قمشه اي، ص٩٥٩، أسرار الحج.

ثــمّ إنّ الكــمالات المــذكورة للأئمــة الأطهــار عليهم السلام في الزيــارات والخطــب والروايات دعاوىٰ، لكنّها:

أولاً: مبرهنة ومقرونة بالدليل؛ لأنّ تلـك الـذوات المقدسـة مظـاهر كاملـة لله سبحانه، وكلّ كمال ذاتي استقلالي إلهي ثابت لهـم عرضـاً وتبعـاً، وبـما أنّهـم كـاملي المظهريّة فهم في رتبة من الكمال ليس بمقدور الممكنات بلوغ رتبة أعلىٰ منها.

وثانياً: مقرونة بالدعوة، فهم يقولون تصريحاً أو تلويحاً: إننا فزنا بالأفق الأعـلىٰ من الكمالات في ظـلّ الطاعـة والعبوديّـة لله، فاتّبعونـا إن كنـتم في طلـب الكـمال؛ ليكمل كلّ منكم بحسب حدّه المناسب.

شعر:

اتّباع رسول الحقّ يجلب حبّ الحقّ

فاتبّع الرسول واطلب حبّ الله

الدين سفينة النجاة وآل الرسول ربّانها

فاسكن هذه السفينة واعتصم بالله[1].

وعليه فإنّ الزيارة هي شاخص عالٍ لطريق الكـمال؛ ليعـرف الإنـسان إلىٰ أيـن يمكن أن يصل وليعرف وسيلة بلوغ ذلك الطريق المهيع.

وعلىٰ هذه المعنىٰ تدلّ عبارات كثيرة موجودة في ثنايـا الزيـارات، مثـل: أعـلام التقىٰ، منار الهدىٰ، العروة الوثقىٰ، نـوره، برهانـه، صراطـه، أدلاء عـلىٰ صراطـه، مصابيح الدجىٰ، أئمة الهدىٰ، و...

التولّي والتبرّي

إنّ التولّي والتبرّي أحد أبرز وأظهر علامات الإيمان، حتـىٰ أنّهـما موجـودان في

---

١ . ديوان الفيض الكاشاني، ص٣٢.

النباتات والحيوانات أيضاً في مظهر الجذب والدفع، ويتجليان في الإنسان في مظهر الحبّ والبغض والنفور والميل. فكلّ حيوان أو شجرة يجذب إليه ما يحبّ ويطرد عنه ما يكره، وكلّ إنسان ـ وبحسب عقيدته ـ يرتضي بعض الأمور ويحبّها ويكره بعضاً آخر منها ويبغضها ويغضب بسببها، وجُعل الحبّ والبغض معياراً للإيمان في الروايات أيضاً، فعن الإمام الباقر قال: «هل الدين إلاّ الحبّ والبغض»[١].

وسأل أبو حمزة الثمالي الإمام الباقر عليه السلام: قال: قلت: أصلحك الله! أيّ شيء إذا عملته أنا استكملتُ حقيقة الإيمان؟ قال: «توالي أولياء الله وتعادي أعداء الله، وتكون مع الصادقين كما أمرك الله»[٢]. وفي رواية أخرى للإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله والبغض في الله، وتوالي وليّ الله وتعادي عدوّ الله»[٣]. فعدّهما أوثق عرى الإيمان مطلقاً يدلّل على أنّهما أوثق حتى من الصلاة والصوم والزكاة والحجّ والعمرة والجهاد في سبيل الله.

وجوب التلازم بين التولّي والتبرّي

لا ريب في عدم كفاية كلّ من التولّي والتبرّي منفرداً عن الآخر، فلا يمكن الفوز بالسعادة بالتولّي وحدّه ولا سبيل للخلاص من الشقاوة بالتبرّي فقط. يقول اسماعيل الجعفي: قلت لأبي جعفر عليه السلام: رجل يحبّ أمير المؤمنين عليه السلام ولا يتبرأ من عدوّه، ويقول: هو أحبّ إليّ ممّن خالفه، فقال: «هذا مخلّط وهو عدوّ، فلا تصلّ خلفه، ولا كرامة إلاّ أن تتّقيه»[٤].

١ . بحار الأنوار، ج٦٥، ص٦٣.

٢ . بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٧.

٣ . بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٧.

٤ . وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، باب ١٠ من أبواب صلاة الجماعة، ح٣.

إنّ من يتمسّك بأحد هذين الأمرين المهمّين ويهمل الآخر كمن يقرّ بوجود إلـه ويعترف بوحدانيّته؛ ولكنّه لا يكفر بالأوثان والآلهة المزيّفة! أو كمن يكفر بدين عبّاد الأصنام لكنّ قلبه خالٍ من الإيمان بالله. من هنا قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ بني أميّة أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك؛ لكي اذا حملوهم عليه لم يعرفوه»[1]، وقال العلاّمة المجلسي في شرح هذا الحديث:

«الظاهر أنّ المراد أنّهم لم يعلّموهم ما يخرجهم من الإسلام من إنكار نصّ النبيّ والخروج على أمير المؤمنين عليه السلام وسبّه وإظهار عداوة النبيّ وأهل بيته وغير ذلك؛ لئلا يأبوا عنها إذا حملوهم عليها، ولم يعرفوا أنّها شرك وكفر.

وبعبارة أخرى: يعني أنّهم لحرصهم على إطاعة الناس إيّاهم اقتصروا لهم على تعريف الإيمان ولم يعرّفوهم معنى الشرك؛ لكي إذا حملوهم على إطاعتهم إيّاهم لم يعرفوا أنّها من الشرك، فإنّهم إذا عرفوا أنّ إطاعتهم شرك لم يطيعوهم»[2].

إنّ التولّي والتبرّي كالإيمان بالله والكفر بالطاغوت؛ جناحا السلوك إلى الكمال والتعالي والترقي، فلا يغني أحدهما عن الآخر أبداً، ولا يستطاع الصعود بأحدهما دون الآخر، كالعينان اللتان لا بدّ من فتحهما معاً لطيّ طريق الحقّ والوصول إلى منبع النور. وفي هذا السياق روي أنّه قدم رجلٌ على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إنّي أحبّك وأحبّ فلاناً، وسمّى بعض أعدائه، فقال عليه السلام: «أمّا الآن فأنت أعور، فإمّا أن تعمي وإمّا أن تبصر»[3].

والمعنى: إمّا أن تبصر عيناك معاً لتبصر إحداهما فضائلنا فتحبّنا، وتبصر الأخرى رذائل أعدائنا، فتبغضهم، وإمّا أن تعميان معاً؛ لأنّ الحقّ والباطل والنور

---

١ . أصول الكافي، ج٢، ص٤٥١.
٢ . مرآة العقول، ج١١، ص٢٣٤.
٣ . بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٨.

والظلمة لا يجتمعان في مكان واحد، فأنت إذا ما بقيت على هذه الحال إمّا أن تفقد كلا عينيك وتعمى، وإمّا أن تبصر عينك الأخرى فيبغض قلبك عدوّنا. وفي رواية أخرى قيل للإمام الصادق: إنّ فلاناً يواليكم إلاّ أنّه يضعف عن البراءة من عدوّكم، قال: «هيهات! كذب من ادّعى محبّتنا ولم يتبرأ من عدوّنا»[١].

محبّة محبّي الأئمّة

علاوة على وجوب محبّة أولياء الله، يجب أيضاً محبّة محبّيهم الذين صدّقوا عهدهم ووفوا به، كسلمان وأبي ذر والمقداد وعمّار وغيرهم. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«والولاية للمؤمنين الذين لم يغيّروا ولم يبدّلوا بعد نبيهم واجبة، مثل سلمان الفارسي، وأبي ذرالغفاري، والمقداد بن الأسود الكندي، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وحذيفة بن اليمان، وأبي الهيثم بن التيهان، وسهل بن حنيف، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الصامت، وعبادة بن الصامت، وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، وأبي سعيد الخدري، ومن نحا نحوهم وفعل مثل فعلهم، والولاية لأتباعهم والمقتدين بهم وبهداهم واجبة»[٢].

وجملة «والولاية لأتباعهم والمقتدين بهم وبهداهم واجبة» تشير إلى أن علّة وجوب التبعيّة والاقتداء هي اهتداؤهم. وعليه فكلّ من تحققت فيه هذه العلّة وجب تولّيه، وفي الحقيقة إنّ هذا التولّي معلول لتبعيّتهم واقتدائهم، لا لشخص التابع والمقتدي؛ فإذا ما زلّت قدم امرء من أتباع الأئمّة الأطهار عليهم السلام والمقتدين بهم، فتولّيه يكون واجباً بمقدار اقتدائه واتباعه، ويجب التبرّي من زلاّته.

---

١. بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٨.

٢. بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٢، ح٣.

ولعنصريّ التولّي والتبرّي في زيارة عاشوراء ـ قياساً بالزيارات الأخرىٰ ـ مكانة بارزة وخاصّة واستثنائية؛ لأنّ الزائر بها من جهة لا يقتصر علىٰ التسليم مائة مرّة علىٰ مقتداه ومراده، سيّد العشق وساقيه، يعني الحسين بن عليّ، بل يسلّم أيضاً مائة مرّة علىٰ أولاده الذين اطمأنّوا في جواره، وعلىٰ الفراشات العاشقة التي تحلّقت حول شمع وجوده الشامخ، واحترقت بنار حبّه؛ ومن جهة أخرىٰ هو يلعن يزيد الذي امتدّت يده الآثمة لتخنق صوت الحقّ، وليس يزيد وحده؛ بل يلعن مائة مرّة كافّة أشياعه وأتباعه ومبايعيه، وأولَ من سنّ وارتضىٰ ظلم أئمة النور وآخر تابع لهم علىٰ ذلك، وسرّ هذا السلام واللعن الخاصّين أنّ عاشوراء تعكس ضراوة حرب الإمامة العلويّة والسلطان الأموي، التي هي استمرار لحرب الإسلام والكفر.

ملاحظة: كما أنّ التخلية مقدمة علىٰ التحلية، فالتبرّي سابق رتبةً للتولّي؛ من هنا كان التبريّ في زيارة عاشوراء أولاً ثمّ ثُنّي بالتولّي، وإن احتُمل أن تكون البراءةَ من أعداء الولاية عند الذائبين فيها بمنزلة إزالة الغبار عن الوجه الشفاف لمرآة الولاية، كما هو الحال في نفي الآلهة المزيفة في الكلمة الطيبة «لا إله إلاّ الله»؛ فإنّه إماطة لغبار الشرك ليتجلّىٰ ويظهر التوحيد الأصيل الثابت المستقر.

مظاهر الحبّ والبغض

يتجلّىٰ الحبّ والبغض في صور متنوعة، منها الحضور في محفل أو مكان معيّن، من قبيل المشاركة في هذا الزمان في التظاهرت والمسيرات والمؤتمرات الحزبيّة بقصد إتخاذ موقف معيّن، أو تأكيد العهد والوفاء لفريق أو فكر وخط ما، ورفض الفريق الآخر المقابل. والزيارة بهذا اللحاظ إحدىٰ طرق إعلان المواقف؛ لأنّ الزائر يوضح موقفه الفكري والعقدي والسياسيّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ و... عبر حضوره عند المزور أو في حرمه، وترنّم العاشق بزيارته، ويعلن إلىٰ أيّ جبهة

ينحاز، وأنّه لو كان في عصر المزور فإلى جانب مَن سيقف ومع من سيحارب؟ هذا الانحياز والاعلان عن الموقف يتجلّى في فقرتي اللعن والسلام.

السلام في القرآن

للسلام المعروف في المجتمعات الإسلاميّة ركيزة وامتداد في كتاب الله، فقد حيّا ربّ العالمين عباده الصالحين هداة الأمم بأفضل التحيّات، فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[1] و... وحينما يصل الدور إلى خاتم الرسل وفخر العالم محمد بن عبد الله ﷺ لا يسلّم ويصلّي عليه وحسب؛ بل يكلّف المؤمنين أيضاً بالصلاة عليه، تبعاً لله تعالى وللملائكته، وبهذا يرفعون ذكره ويعلون اسمه، ويعربون له ﷺ عن محبّتهم وولائهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[2]. وهذا الأمر الإلهي ليس مختصّاً بمؤمني عصر النزول، بل هو عام، يشمل مؤمني العصور اللاحقة إلى يوم القيامة. ومن هنا فليس التسليم على الرسول الأكرم مقصوراً على زمان حياته ﷺ، بل يمكن التسليم عليه أيضاً بعد مماته، وقد سلّم القرآن على أنبياء الله العظام بعد موتهم؛ ففي شأن يحيى الشهيد عليه السلام يقول: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[3]، وحكى عن لسان النبي عيسى عليه السلام أنّه سلّم على نفسه فقال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[4]، وروي عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «من سلّم عليّ في شيء من الأرض أُبلغته، ومن

---

١ . الصافات: ١٠٩، ٧٩، ١٣٠ بالترتيب.

٢ . الأحزاب: ٥٦.

٣ . مريم: ١٥.

٤ . مريم: ٣٣.

سلّم عليّ عند القبر سمعته»[١]، وفي رواية أخرى «إنّ لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلّغوني عن أمتي السلام»[٢].

وهذا السلام ليس محصوراً بالصالحين كإبراهيم ونوح وغيرهما المذكورين في القرآن الكريم، وإنما هو شامل لكلّ مهتد بهدي الله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[٣]؛ وعليه فسلامنا في نصّ الزيارة على أئمّة النور و الهداية عليهم السلام ليس سوى اتباعاً لسنّة القرآن الكريم؛ لأنّه أجاز أصل التسليم على الصالحين والأموات.

مراحل التولّي والتبرّي في الزيارة الجامعة

إنّ الزائر في هذه الزيارة يذكر أولاً مراتب من رُتب عبوديّة الأئمّة الأطهار عليهم السلام لله سبحانه[٤] والنعم الإلهيّة الخاصّة بهم[٥]، ثمّ يذكر بلوغهم قمّة الإنسانيّة وأنّهم آيات الله الكاملة[٦]، ويقرّ أنّهم أئمّة النور وأنّهم مع الحقّ والحقّ معهم يدور حيثما داروا، لا يدور في غير مدارهم ولا يرجع إلاّ إليهم، فلا يخرج منهم إلاّ الحقّ؛ لأنّهم ذابوا في جمال محبوبهم وفنوا في كمالاته، فهم كعاكس الصدى، الذي لا صوت له، وما يُسمَع منه فهو من غيره؛ وعليه فمن يستمع إليهم فهو يصغي إلى الله تعالى، ومن يردّ كلامهم فهو يردّ كلام الله سبحانه، ومن يضع قدمه

---

١ . بحار الأنوار، ج٩٧، ص١٨٢.

٢ . المصدر السابق، ج٩٧، ص١٨١.

٣ . طه: ٤٧.

٤ . مثل: المطيعون لله، القوّامون بأمره، العاملون بإرادته و...

٥ . مثل: اصطفاكم بعلمه، وارتضاكم لغيبه، اختاركم لسرّه، اجتباكم بقدرته، عصمكم الله من الزلل و...

٦ . مثل: فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق والمقصّر في حقّكم زاهق والحقّ معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه.

علىٰ صراطهم فهو يضعها في صراط الله المستقيم، ومن ينكص عنه فإنّما ينكص عن صراط الله تعالىٰ. من هنا فالزائر يقرّ أنّ مَن قبل ولايتهم فقد قبل ولاية الله، ومَن عاداهم فقد عادىٰ الله، ومن أحبّهم فقد أحبّ الله، ومن أبغضهم فقد أبغض الله، ومن تمسّك بحبلهم فقد اعتصم بحبل الله: «من والاكم فقد والىٰ الله، ومن عاداكم فقد عادىٰ الله، ومن أحبّكم فقد أحبّ الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله، ومن اعتصم بكم فقد اعتصم بالله».

بعد هذا الإقرار الكلّي يصل إلىٰ مرحلة التولّي والتبرّي:

١ ـ في المرحلة الأولىٰ، يظهر الزائر أنّه مؤمن بما يؤمنون به في الفكر والعقيدة، وأنّه كافر بما يكفرون به وبأعدائهم «مؤمن بكم وبما آمنتم به، كافر بعدوّكم وبما كفرتم به». وهو بجملة «أُشهد الله وأشهدكم» يدلل علىٰ صدق دعواه وإيمانه، وليس هذا وحسب؛ بل هو بجملة «مستبصر بشأنكم وبضلالة من خالفكم» يثبت أنّ إيمانه هذا ليس عن تقليد أعمىٰ؛ بل عن بصيرة بأهل العصمة والطهارة عليهم السلام ومعرفة بأعدائهم.

٢ ـ في مرحلة التصميم والعمل، يقول معلناً: «موالٍ لكم ولأوليائكم، مبغض لأعدائكم ومعادٍ لهم».

٣ ـ في هذه المرحلة، يعلن الزائرُ عن عزمه الراسخ فيما ذكره في مرحلتي الاعتقاد والتصميم، ويقول: إنّ حبّي وعشقي ليس حبّ مسلمٍ يطلب العافية وهمّه نفسه؛ بل عشقُ مسلم محارب مقدام في الميدان. وبهذا اللحاظ فهو أعدّ نفسه للجهاد والبراز المتواصل في سبيل الفكر والعقيدة التي آمن بها، وللإعراب عن هذا الاستعداد يقول: أنا معكم في السلم والحرب دفاعاً عن العقيدة وأنا «محقّق لما حقّقتم، مبطل لما أبطلتم». فهو يتحمّل المشاقّ في إحقاق كلّ فكر يرونه حقّا وسعوا جاهدين في إحقاقه، ويبطل كلّ عقيدة أبطلوها.

ثمّ يترقىٰ ويقول: أنا«سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم»، فهو يحيا مسالماً موادعاً مع المسالمين لهم الراغبين فيهم، ويحيا محارباً ومعادياً لمحاربيهم.

٤ ـ في هذه المرحلة ـ وهي مرحلة الإعلام عن الغاية من المقاومة وثبات القدم في التولّي والتبرّي ـ يصل الزائر إلي بيان النتيجة من تلك المراحل الثلاث:

أ) التسليم القلبي والاعتقادي«قلبي لكم مسلّم».

ب) الانقياد في الفكر والرأي«ورأيي لكم تبع».

ج) التهيؤ الكامل لساحة العمل والعون «ونصرتي لكم معدّة».

ونتيجة هذه المقاومة والوفاء أنّ الله تعالىٰ يحيي دينه بالأئمّة الأطهار«حتىٰ يحيي الله دينه بكم».

إنّ الدين ماء حياة لا موت معه أبداً؛ لأنّه كلام الله سبحانه المبيَّن عن طريق الوحي؛ وبما أنّ الله حيّ خالد إذ هو ﴿**الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ**﴾[1] فكلامه حيّ خالد أيضاً.

والمجتمعات البشريّة إنما تحيا بقربها من بالوحي وتمسّكها به، وتموت بنأيها عنه ﴿**لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[2].

عناء السفر

لكلّ زيارة فضل وأجر ودور بنّاء؛ ولكن لا شكّ في أنّه إذا ما اقترنت الزيارة بمقدمات ـ لا سيّما الشاقّة منها ـ فستكون أدلّ علىٰ صدق وحبّ وإخلاص الزائر، وبالتالي سيكون أجرها وفضلها ودورها أكبر. من هنا أكد الأئمّة الأطهار عليهم السلام علىٰ السفر ـ سواء البعيد أم القريب ـ لأجل زيارة الحبيب ولقاء المعشوق والحضور

١ . الفرقان: ٥٨.

٢ . يس: ٧٠.

في حرمه، كما أفتى فقهاء أهل السنّة باستحباب زيارة شهداء أحد عموماً، وسيّد الشهداء حمزة خصوصاً ـ الذي يقع قبره اليوم خارج المدينة المنوّرة ـ فقالوا: ويُسنّ له أن يأتي قبور الشهداء بأحد ويبدأ بسيّد الشهداء حمزة، رضي الله عنه[١]. وكانت فاطمة رضي الله عنها تزور قبر عمّها حمزة كلّ جمعة، فتصلّي وتبكي عنده[٢]. وهذا بلال مؤذن الرسول الأكرم ﷺ رأى في منامه النبيّ ﷺ وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال؟! أما آن لك أن تزورني. فانتبه بلال حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرّغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين فجعل يضمّهما ويقبّلهما[٣].

شدّ الرحال

تعتقد الفرقة الوهابيّة ـ التي تحسب نفسها حاملة راية التوحيد من بين مختلف الفرق الإسلاميّة، وبهذا الشعار تلهب بسوط التكفير سائر الفرق الإسلاميّة حتى الفرق السنيّة ـ أنّ السفر لأجل الزيارة حرام، وتستدل على هذه الدعوى بحديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، فقد رويا عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى»[٤].

---

١ . الغدير، ج٥، ص١٦٠.

٢ . مستدرك الحاكم، ح١٣٤٥. وقال ما نصّه «هذا الحديث رواته عن آخرهم ثقات، وقد استقصيت في الحثّ على زيارة القبور تحرياً للمشاركة في الترغيب، وليعلم الشحيح بذنبه أنّها سنّة مسنونة، وصلى الله على محمد وآله أجمعين».

٣ . تاريخ الاسلام، في ترجمة إبراهيم بن محمد بن سليمان الشامي.

٤ . صحيح البخاري، ج١، ح١١٣٢؛ صحيح مسلم، ج٢، باب لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، ح١.

وبغضّ النظر عن البحث السندي، فهذا الحديث يناقش من جهات عدّة:

الأولى: إنّ «شدّ الرحال» كناية عن السفر، فلا فرق فيه بين السفر البعيد والقريب، والمنقول عن عبد الله بن عمر في روايات عديدة أنّ الرسول الأكرم ﷺ كان يذهب كلّ يوم سبت راكباً وماشياً إلى مسجد قبا ـ وكانت آنذاك قرية على بعد عدّة كيلو مترات من المدينة المنورة ـ ويصلّي هناك ركعتين[1]، ومن الواضح أنّ فعل الرسول الأكرم ﷺ هذا مناف للحصر المفاد في الحديث المذكور، ولا مجال للقول: إنّ «شدّ الرحال» إلى مساجد أخرى جائز للرسول دون غيره؛ لأنّه لم يقل أحد بأنّ جواز شدّ الرحال إلى مطلق المساجد من خصائص النبيّ[2]. وشاهد هذا المعنى أنّ عبد الله بن عمر وهو راوي هذه الروايات كان أيضاً مداوماً على ذلك. قال ابن دينار: وكان ابن عمر يفعله[3]. وشاهده الآخر الروايات التي تحثّ الناس على الذهاب إلى مسجد قبا، وتعدّ صلاة ركعتين فيه كعمرة مقبولة؛ إذ نقل العلاّمة الأميني عن مصادر أهل السنة أنّ الرسول الأكرم ﷺ قال: «من خرج حتى يأتي هذا المسجد ـ يعني مسجد قباء ـ فيصلي فيه كان كعدل عمرة»[4]. ولم يفرّق في ذلك بين الرسول الأكرم ﷺ وغيره. أضف إلى ذلك أنّ الرواية وارادة أصلاً لتشويق الآخرين للذهاب إلى مسجد قبا، فهل من الممكن أن يحثّ الرسول الأكرم الناس على فعل محرّم؟!

---

١ . المصدر السابق، ح١٨٦٤ و١٩٩٥؛ صحيح مسلم عن أبي هريرة ح٥١٦ و٥٢٠.

٢ . خصائص النبي في الاصطلاح الفقهي يراد منها تلك الأحكام المكلّف بها خصوص شخص النبي، بلحاظ وضعه الخاص، مثل وجوب صلاة الليل والزواج من أكثر من أربع نسوة في وقت واحد، وتحريم نكاح زوجاته من بعده، وجواز دخول مكة بدون إحرام... يراجع كتاب (إيضاح الفوائد ج٣، ص١١).

٣ . صحيح مسلم، ح٥٢١.

٤ . الغدير، ج٥، ص١٦٣ نقلاً عن الحاكم. وهو في مستدركه، ح٤٢٤٦.

الثانية: لو دلّ هذا الحديث على عدم جواز السفر فالمقصود السفر إلى المساجد الأخرى باستثناء المساجد الثلاثة، لا السفر لأجل زيارة المشاهد المشرّفة والمراقد المطهّرة؛ لأنّه يلزم حينئذ تقدير كلمة حتى يصحّ دخولها في المستثنى منه، ويكون للحديث معنى صحيح، ويمكن تصحيح التقدير بأحدى الصورتين التاليتين:

أ) لا تشدّ الرحال إلى أيّ مكان إلاّ إلى ثلاثة مساجد.

وهذا تقدير لا يصحّ أبداً ـ إذ لم يفتِ أحدٌ بحرمة السفر السياسيّ والتجاريّ والاقتصاديّ والسياحيّ وغير ذلك. أجل... السفر بقصد الحرام كالسفر فراراً من ساحة حرب الحقّ ضد الباطل، أو تهرباً من أداء حقّ الدائنين مع إمكانه حرام.

ب) لا تشدّ الرحال إلى مسجد من المساجد إلاّ إلى ثلاثة مساجد.

وهذا التقدير يناسب المستثنى، ومقتضاه النهي عن السفر إلى (المساجد) الأخرى؛ ولكنّه أجنبيّ عن مسألة السفر إلى المشاهد الشريفة، فليست هي من المستثنى منه.

الثالثة: لو كان للحديث سند صحيح فهو لا يدل على حرمة السفر، بل هو في مقام الإرشاد إلى أنّ السفر إلى غير تلك المساجد الثلاثة سفر لا فائدة منه؛ لأنّ بقيّة مساجد الدنيا متساوية، فلا معنى لشدّ الرحال والقصد إلى أحدها. قال عالم أهل السنة الكبير أبو حامد الغزالي بعد أن ذكر فضائل مكّة والمدينة وأرض المقدس (المسجد الأقصى وما حوله):

«وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلاّ الثغور، فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم؛ ولذلك قال ﷺ: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى». وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء

والصلحاء، وما تبيّن لي أن الأمر كذلك، بل الزيارة مأمور بها؛ قال صلىٰ الله عليه و سلم: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً».

وقال أيضاً:

«والحديث إنّما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد؛ لأنّ المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلاّ وفيه مسجد، فلا معنىٰ للرحلة إلىٰ مسجد آخر؛ وأما المشاهد فلا تتساوىٰ، بل بركة زيارتها علىٰ قدر درجاتهم عند الله عزّ و جلّ».

ثمّ قال:

«ثمّ ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شدّ الرحال إلىٰ قبور الأنبياء عليهم‌السلام مثل إبراهيم وموسىٰ ويحيىٰ وغيرهم عليهم‌السلام؟ فالمنع من ذلك في غاية الإحالة، فإذا جوّز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها»[١].

وهنا فائدتان:

أ: إنّ رواية «لا تشدّ الرحال...» رويت بألفاظ مختلفة:

«تشدّ الرحال إلىٰ ثلاثة مساجد»[٢].

إنّ رسول الله قال: «إنّما يسافر إلىٰ ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة ومسجدي ومسجد إيلياء»[٣]. وهذا النصّ يؤيّد ما احتمله الغزالي من أنّ السفر إلىٰ سائر المساجد بلا فائدة.

ب: إنّه ليس من السهل تجاهل كلام علَمٍ له مكانة مرموقة عند أهل السنّة كالغزالي، والأمر الملفت في كلامه أنّه لم يجز زيارة قبور أنبياء الله والسفر لذلك وحسب؛ بل أجاز أيضاً زيارة قبور الأولياء والعلماء والصالحين، فكيف والحال

---

١. إحياء العلوم، ج١، ص٢٤٤، كتاب أسرار الحج، الفصل الأول، باب فضيلة المدينة.

٢. صحيح مسلم، ح٥١٢.

٣. صحيح مسلم، ح٥١٣.

هذه يحرّم فقهاءُ الوهابيّة السفر بقصد زيارة قبر النبيّ الأكرم؟! إنّه لأمر غير واضح.

الرابعة: إن أُثبت أصل الجواز فستكون المقدمات اللازمة جائزة أيضاً بلا شك.

ولا ريب في جواز الصلاة في أيّ مسجد من مساجد الدنيا، كما لا ريب في تشريع زيارة القبور، كما مرّ؛ وعليه فلا من شبهة في جواز السفر بقصد الذهاب إلى مسجد ما، أو بقصد الذهاب إلى قبر مطهّر ومرقد منوّر، لا سيّما أنّ كثيراً من الروايات بصدد الترغيب في الزيارة.

أجل... ربما يحرم ذلك بسبب بعض العوارض الأخرى، مثل نهي الوالدين، وهذا ما يسمّى اصطلاحاً بالعناوين الثانوية؛ لكنّ هذه الحرمة عرضيّة، لا صلة لها بأصل السفر، وكلّ حلال ربما حرم بسبب العناوين الثانوية الطارئة.

الخامسة: يظهر أنّ الوضاعين المقتاتين على موائد البلاط الأموي لم يغفلوا عن وضع مثل هذه الروايات وبثّها؛ مخالفةً لشيعة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، كما في مسألة الحطّ من فضل مسجد الكوفة ـ مثلاً ـ الذي هو حرم أمير المؤمنين، باعتبار كثرة الفضائل المروية في فضله، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما بقي ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا عبد صالح إلاّ وقد صلّى فيه، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ به ليلة أسري به، فاستأذن ربّه فصلّى فيه ركعتين، والصلاة الفريضة فيه ألف صلاة، والنافلة خمس مائة صلاة...»[1]. وعن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «لو يعلم الناس ما في مسجد الكوفة لأعدّوا له الزاد والرواحل من مكان بعيد؛ إنّ صلاة فريضة فيه تعدل حجة، وصلاة نافلة تعدل عمرة»[2]. وعن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «أربعة من قصور الجنة في

---

١. بحار الأنوار، ج٨٠، ص٣٥٩.

٢. المصدر السابق، ج٨٠، ص٣٧٦.

الدنيا: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد بيت المقدس، ومسجد الكوفة»[١].

أجل... لو وردت تلك الروايات بنحو الإثبات ـ كما في روايتي صحيح مسلم ـ فلا إشكال؛ لأنّ الدليلين المثبتين لا يتعارضان.

ملاحظات: ١ ـ جاء في رواياتنا أيضاً أنّه«لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ ومسجد الكوفة»[٢].

لكنّ حصيلة ضمّ هذه الرواية إلى الروايات المثبتة لفضائل المساجد الأخرىٰ إثبات كمال أعلىٰ لتلك المساجد الثلاثة (المسجد الحرام ومسجد النبيّ ومسجد الكوفة)؛ فللمساجد الأخرىٰ فضائلها الخاصّة بها أيضاً، ومن الراجح شدّ الرحال إليها لاغتنامها؛ فهذه الرواية في الحقيقة نظير رواية «لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد، إلاّ أن يكون له عذر أو به علّة»، فإنّها بصدد نفي الكمال عن صلاة الدار؛ لأنّ صلاته في داره صحيحة.

٢ ـ جاء في الجوامع الحديثيّة عنوان «شدّ الرحال» من أجل رواية الحديث وتلقّي العلوم الدينيّة الأخرىٰ. ومن هنا تحمّل المحدّثون الكبار وعظماء الدارسين لعلوم الدين مشقّة الأسفار الطويلة من أجل سماع حديثٍ أو تعلّم مسألة دينيّة.

٣ ـ إنّ آية النفر دليل جيّد لشدّ الرحال لتلقّي العلم، بحسب التفسير المعروف لها.

الرابعة: ربما يقول بعض الوهابيّة: نحن نشدّ الرحال إلى مسجد النبيّ لنيل الفيوض، وحينما نصل نزور قبر النبيّ الأكرم ﷺ، فنحن ننال أيضاً فيض زيارته ولا نخالف حديث «لا تُشدّ الرحال».

---

١ . المصدر السابق، ج٩٦، ص٣٨٠.

٢ . المصدر السابق، ج٩٦، ص٣٧٩.

لكنّ هذا الكلام لا يتماشىٰ مع السيرة الممتدّة للعلماء والمتشرّعين والزائرين المسلمين؛ لأنّه:

أ) جرت العادة منذ صدر الإسلام وإلىٰ الآن علىٰ مجيء مختلف الفرق الإسلاميّة من كلّ حدب وصوب إلىٰ القبر المطهر للرسول الأكرم ﷺ بقصد الزيارة، ولا يمكن بحال رمي هذه الفرق كلّها بالشرك، ولا دعوىٰ أنّهم شدّوا الرحال وقصدوا المدينة للصلاة ونيل فيوض مسجد الرسول الأكرم ﷺ وحسب. ويشهد لهذا أنّه لم يُعهد في زمانٍ ما أنّ الناس قصدوا المسجد الأقصىٰ لنيل فيوضه، مع أنّ للصلاة فيه فضائل كثيرة.

ب) سبق القول إنّ حبيبة رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء عليها السلام كانت تذهب كلّ جمعة إلىٰ أحد، وجاء بلال من الشام إلىٰ المدينة لأجل زيارة قبر النبيّ الأكرم ﷺ، ولا يسع أحد أن يتّهم فاطمة الزهراء أو ذلك الحبشي الموّحد الكبير بالشرك، والعياذ بالله.

الاعتدال في الثناء

ليس المذموم والقبيح هو التفريط فقط ـ الذي لا يُتوقع إلاّ من الجاهل الغبي ـ بل لا منشأ للإفراط أيضاً إلاّ ذلك ولا يكون إلاّ كذلك، فـ«لا ترىٰ الجاهل إلاّ مُفرطاً أو مفرّطاً»[1]؛ لذا نهىٰ أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه عنهما، وقال: «هلك فيّ اثنان: محبّ غالٍ ومبغض قالٍ»[2]، وأخرج الشارح المعتزلي لنهج البلاغة: أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «**فيك مثل من عيسىٰ بن مريم، أبغضته اليهود فبهتت أمّه، وأحبّته النصارىٰ فرفعته فوق قدره**»[3].

١ . نهج البلاغة، الحكمة ٧٠.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ١١٧.

٣ . شرح نهج البلاغة، ج٨، شرح الخطبة ١٢٧.

لقد نزل بعض المتعصّبين المتشدّدين كالخوارج الأشقياء كالحي الوجوه بأمير المؤمنين إلى حضيض الكفر! وفي نهاية المطاف سفكوا دمه تقرّباً إلى الله؛ وفي المقابل رفعته جماعة تدّعي محبّته إلى مقام الربوبيّة، إفراطاً منها في العشق والولاء[١]؛ لكنّ أمير المؤمنين نفسه دائماً ما يؤكد على أنّ أعظم سماته العبوديّة لله، فقال: «إنّما أنا عبد من عبيد الله»[٢]، وتارة يعدُّ نفسه أخاً لرسول الله ووزيراً له: «إنّي لأخو رسول الله ووزيره»[٣]، وأخرى يقول: «أنا عبد من عبيد محمّد ﷺ»[٤].

---

١ . للأسف أنّه شوهد في السنوات الأخيرة بعض الراثين لأهل البيت والمادحين لهم بقراءة الأناشيد والتواشيح يغالون في الأئمة ويضعونهم في مصافّ الله تعالى، ويتظاهرون بشعارات العبودية لهم في المجالس والمحافل العامّة ويعلنونها بصورة رسميّة، وحجتّهم الأساس في ذلك هي إدارة المجالس وإثارة الأحاسيس وتسخير عواطف الناس واستدرار دموعهم ونحو ذلك، ويظنّون أنّهم يحسنون صنعاً بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بهذه الأعمال. ولكن ينبغي هؤلاء أن يعلموا أنّ هذه الأعمال تمنح الأعداء والمغرضين الذريعة وتمهّد لاستغلالها في تحقيق مآربهم؛ ففضلاً عن أنّها لا تخدم أهل البيت عليهم السلام، تعتبر خيانة لأئمة النور وخيانة لأهدافهم ومذهبهم، هذا أولاً. وثانياً: إذا تلفّظ أحد بهذه العبارات عن علم وعمد فسوف ينتهي به الأمر إلى الارتداد، وللارتداد حكم كلامي عسير، وأحكامه الفقهيّة لن تكون قابلةً للتحمّل. وثالثاً: إنّ هذه الأعمال أساساً تتنافى مع طريقة وهدف أهل البيت؛ قال الإمام الصادق لأحد أصحابه: «يا إسماعيل! لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين وقولوا فينا ما شئتم» (بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٧٩)، وفي رواية أخرى قال: «فوالله ما نحن إلاّ عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضرّ ولا نفع... ويلهم ما لهم لعنهم الله! لقد آذوا الله وآذوا رسوله ﷺ في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي، صلوات الله عليهم...» (بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٨٩).

٢ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٦.

٣ . بحار الأنوار، ج٣٨، ص٢٤٠.

٤ . الكافي، ج١، ص٩٠.

إنّ قبح الإفراط والتفريط، وحسن الاعتدال والوسطيّة لا يختصّان بالثناء والتمجيد، بل يجريان في الأمور كلّها. يقول علماء الأخلاق: الاعتدال في كلّ خصلة هو الخُلق المتوسط المرضيّ، المحاط من الطرفين بالخلق المذموم، والانحراف اليسير عنه يوجب الخروج من حدّ الاعتدال، وينتهي بالإنسان إلى الإفراط أو التفريط؛ فالشجاعة ـ مثلاً ـ خلق متوسط، طرفاه ـ وهما الإفراط والتفريط ـ مذمومان، فالافراط فيها «تهوّر» والتفريط بها «جُبن».

والغرض من علم الأخلاق هو بلوغ الدرجة المتوسطة والحدّ المعتدل في كلّ خصلة.

ومن هنا كان الإمام علي عليه السلام يتحرّز من إظهار الكثير من كمالاته؛ حذراً من وقوع الناس في الغلوّ والإفراط، وتواضعاً أمام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. جاء في خطبة له: «والله لو شئت أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت؛ ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله»[١]. كما كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً يكفّ عن ذكر كلّ فضائل الإمام علي عليه السلام ويقول: «والله لولا أنّي أشفق أن تقول طوائف من أمتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم [كالربوبيّة والبنوّة لله وحلول الله فيه و...] لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمرّ بأحد من الناس إلاّ أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة»[٢].

فالاعتدال من أهمّ الشرائط الضروريّة في مقام تقديم تلك الذوات النورانيّة المقدّسة وبيان شأنهم ومنزلتهم للناس. وقد روي عن أمير المؤمنين أنّه قال: «خير الناس فيّ حالاً النمط الأوسط فالزموه»[٣]. وقال: «الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق،

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.

٢. شرح نهج البلاغة، شرح الحكمة ١١٣؛ وانظر: بحار الأنوار، ج٣٨، ص٢٤٧.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

والتقصير عن الاستحقاق عيّ أو حسد»[١].

الزيارة الجامعة وتوّهم الغلوّ

الزيارة الجامعة بكاملها مشحونة بذكر كمالات وفضائل الأئمّة الأطهار عليهم السلام، والزائر يظهر في محضرهم بكلّ أدب واحترام الحبّ والاخلاص والخضوع والخشوع؛ ولكن لا يوجد فيها شيء من الغلوّ والمبالغة؛ لأنّه:

أولاً: إنّ ما جاء في البيان العظيم لهادي الأمّة عليه السلام هو تعريف الأمّة ببعض كمالات تلك الأنوار الطاهرة، وإلاّ ففضائل تلك الذوات المقدّسة أكثر من ذلك. من هنا يظهر الزائر في ختام سِفر العشق العظيم هذا العجز؛ حتى يجد لنفسه سبيلاً للخروج من أمواج بحر فضائلهم وكمالاتهم الذي لا ساحل له، فيقول في جملة واحدة: سادتي! أنتم أعلى مما وصفت، لكنّي لا أعلم أكثر من هذا ولا أقدر، نهاية زيارتي هي نهاية وسعي، وإلاّ فأنتم لا نهاية لكم[٢]:

«مواليّ! لا أحصي ثناءكم ولا أبلغ من المدح كنهكم ومن الوصف قدركم...».

قال الإمام الصادق عليه السلام لكامل التمّار بعد أن حذّره من الغلوّ: «وعسى أن نقول: ما خرج إليكم من علمنا إلاّ ألفاً غير معطوفة»[٣]. قال العلاّمة المجلسي: «غير معطوفة» يعني نصف حرف... فإنّ الألف بالخط الكوفي نصفه مستقيم، ونصفه معطوف هكذا (ـا)[٤].

وعليه فمن بين ثمانية وعشرين حرفاً في اللغة العربيّة لم يُبيّن حتى بمقدار نصف

---

١ . المصدر السابق، الخطبة ٣٤٧.

٢ . أي: لا أبلغ بعلمي غاية وصفكم وما أنتم عليه من كمال واقعي. (المعرّب).

٣ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٨٣.

٤ . المصدر السابق.

حرف منها. وسرّه أنّ البشر الكاملين وخلفاء الله مرآة لكلّ مظاهر جمال الله وجلاله وآياته الكبرىٰ. وما لله من آية أكبر منهم، كما قال علي عليه السلام: «ما لله آية أكبر منّي»[1]. ونحن نقول في زيارته «السلام عليك يا آية الله العظمىٰ»، وكما أنّ صفات الكمال الإلهي لا منتهىٰ لها كذلك لا منتهىٰ لصفات كمال تجليات ذلك الجميل المطلق. قال الإمام علي عليه السلام: «لا تسمّونا أرباباً وقولوا في فضلنا ما شئتم، فإنّكم لن تبلغوا من فضلنا كنه ما جعله الله لنا، ولا معشار العشر؛ لأنّا آيات الله ودلائله، وحجج الله وخلفاؤه وأمناؤه وأئمته، ووجه الله وعين الله ولسان الله...»[2].

ثانياً: إنّ حدّ الغلو هو إخراجهم عليهم السلام في مقام المدح والتمجيد من دائرة العبوديّة، وإلاّ فالثناء ضمن هذه الدائرة ليس غلواً أبداً؛ لذا ذكر كبار فقهاء الشيعة في مسألة حرمة السجود لغير الله أنّ: «ما يفعله سواد الشيعة من صورة السجدة عند قبر أمير المؤمنين وغيره من الأئمّة عليهم السلام مشكل، إلاّ أن يقصدوا به سجدة الشكر لتوفيق الله لهم لادراك الزيارة»[3]، وقال الإمام علي عليه السلام: «لا تتجاوزوا بنا العبودية ثمّ قولوا ما شئتم، ولن تبلغوا، وإيّاكم والغلوّ كغلوّ النصارىٰ فإنّي بريء من الغالين»[4].

ثالثاً: إنّ من آداب الزيارة أن يبدأ الزائر زيارته بمائة تكبيرة، فهو يشرع في الثناء علىٰ أهل البيت وذكر كمالاتهم بعد أن يقرّ مائة مرّة بعظمة الله تعالىٰ، ويعترف بتعاليه عن كلّ وصف وثناء. قال المجلسي الأول بهذا الصدد: «ليدلّ علىٰ أنّ الكبرياء والعظمة لله»[5]. وقال المحدّث القمي في بداية هذه الزيارة: «ولعلّ الوجه

---

١ . بحار الأنوار، ج٣٦، ص٣.

٢ . المصدر السابق، ج٢٦، ص٦.

٣ . العروة الوثقىٰ، كتاب الصلاة، فصل ٣٠، المسألة ٢٤.

٤ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٧٤.

٥ . روضة المتقين، ج٥، ص٤٥٣.

في الأمر بهذه التّكبيرات هو الاحتراز عمّا قد تورثه أمثال هذه العبايِر الواردة في الزّيارة من الغُلوّ أو الغفلة عن عظمة الله سبحانه وتعالى، فالطّباع مائلة الى الغلوّ أو غير ذلك من الوجوه»[١].

ويعود الزائر بعد تعداد شيء من كمالاتهم إلى التوحيد الأصيل ويشهد بوحدانيّة الله، كما شهد الله والملائكة وأولوا العلم: «أشهد أن لا اله الاّ الله وحده لا شريك له، كما شهد الله لنفسه وشهدت له ملائكته وأولو العلم من خلقه، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم»، ومن ثمّ يشهد بعبوديّة ورسالة أصل سلسلة هذه الكمالات وهو الرسول الأكرم ﷺ؛ ليقر بأنّ ما سوى الله تعالى ـ بمن فيهم الأئمّة الأطهار ـ يطعمون من المائدة الكريمة لذلك العبد المصطفى، وهو نفسه نال هذه الكمالات ببركة العبوديّة: «وأشهد أنّ محمداً عبده المنتجب، ورسوله المرتضى». ثمّ يسترسل مرّة أخرى في ذكر فضائل أئمة النور أولئك؛ لكنّه يستحضر دوماً الحدّ الفاصل بين الواجب تعالى والممكنات، ويقرّ به حذراً من اندكاكه، فهو لايبلغ بالأئمّة عليهم السلام حدّ الوجوب أبداً، فيقول: «إلى الله تدعون، وعليه تدلّون، وبه تؤمنون»، ويشهد بأنّهم«المطيعون لله، القوّامون بأمره، العاملون بإرادته»، و«عصمكم الله من الزلل، وآمنكم من الفتن، وطهّركم من الدنس، وأذهب عنكم الرجس وطهّركم تطهيراً»، فلم تُذكر في هذه الزيارة أي استقلاليّة للائمة عليهم السلام كي تُتوهّم فيها شبهة الغلوّ.

ميثاق الإمامة

الزيارة الجامعة ميثاق علني راق للإمامة والهداية، انحدر انحدار السيل من جبل وجود هادي الأمّة، الإمام أبي الحسن الثالث عليّ بن محمّد النقي (عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام). هذا الميثاق العظيم وإن جاء في لباس ذكر فضائل

---

١ . مفاتيح الجنان، مقدمة الزيارة الجامعة الكبيرة.

وكمالات البشر الكاملين وخلفاء الله العظام، وهم الأئمّة الأطهار من آل طه ويس عليهم السلام؛ لكنّ معارفه التوحيديّة العميقة والرفيعة عبارة عن سيل هادر، يقتلع أساس الشرك وعبادة ما سوىٰ الله تعالىٰ، ومن ثمّ ينحو إلىٰ مغارس وسهول الأمّة الإسلاميّة؛ ليروي عطاشىٰ الحقيقة والمعرفة النبويّة والولويّة الأصيلة.

الزيارة الجامعة عِدل دعاء الجوشن الكبير

الزيارة الجامعة الكبيرة وزان دعاء الجوشن الكبير[١]؛ ذلك لأنّ في دعاء الجوشن الكبير ذكرت الكثير من أسماء وصفات الله تعالىٰ، وتجلّىٰ الله سبحانه في هذا الدعاء بألف مظهر وتجلّ؛ ليتعرّف عليه الداعي بألف عين، فتزداد معرفته وتتّصف ذاته بتلك الصفات؛ والإمام الهادي عليه السلام عرّف الأئمّة الأطهار عليهم السلام في هذه الزيارة بتجليات متنوعة، ليراهم الزائر عبر كوّات متنوعة، ويتخذهم قدوة وأسوة له، وينشط في التعالي والتكامل بالتأسّي بهم.

وبعبارة أخرىٰ: دعاء الجوشن الكبير مائدة تقري ضيوفها بألف لون من الغذاء التوحيدي، والزيارة الجامعة هي أيضاً مائدة يُكرّم ضيوفها بضروب عديدة من أطعمة معرفة الإمام. من هنا فإنّ دعاء الجوشن الكبير ـ في مجال الألوهيّة والربوبيّة ـ بصدد تفهيم الإنسان أنّ الذي يدير نظام الوجود بكامله هو الأسماء الإلهيّة الحسنىٰ، وأنّه لا مكان خالٍ منها لكي يتكفّل بإدارته غير الله تعالىٰ؛ فيجب صرف عين الطمع عن غير الله تعالىٰ، ولا يُرجونّ أحد غيره سبحانه. والزيارة الجامعة أيضاً لا تبقي مكاناً خالياً في مقام الإمامة وخلافة الله لكي يملأه الآخرون، فيجب

---

١ . الجوشن في اللغة سلاح يعمل من الحديد يشبه الدرع، وبارتدائه يتحرّز من حملات العدوّ، وسمّي هذا الدعاء بالجوشن الكبير لأنّ من يتدرّع به ـ أي يتّصف بالصفات والأسماء الإلهيّة المذكورة فيه ويتخلّق بها ـ يكون محفوظاً من سهام شرك شياطين الجنّ والإنس.

قبض يد الرجاء عن الآخرين والرنوّ بعين الأمل إلى بيت أهل البيت عليهم السلام، كما يجب على الآخرين كفّ أيدي الطمع عن التسلّط على الخلافة وغصبها؛ لأنّه مع وجود الأفضل لا يصل الدور للمفضول، ومع وجود المعصوم لا مجال لغير المعصوم.

ولا شكّ في أنّ كلّ أحد له حدّ مقدّر من المعرفة، وعلى ضوئها يرى الله تعالى.

شعر:

أنت كما أنت، أيّ عين تستطيع رؤيتك؟!

كلّ أحد يدرك بقدر معرفته.

فبعض ينظر إليه تعالى من كوّة الرحمة، وآخر من كوّة الغضب، وثالث من كوّة العفو والتغافل، ورابع من كوّة الانتقام، وبعض من كوّة اللطف وبعض من كوّة القهر، وبعض من كوّة الرزق، وآخر من كوّة الشكر و...

وعبادة الأفراد تتفاوت طبعاً بتفاوت معرفتهم به تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾**[١].

إنّ الذات الإلهيّة المقدّسة ليست محدودة أبداً بأيّ من هذه الصفات، بل اسم «الله» يعني المستجمع لجميع الكمالات[٢]؛ وعلى هذا الأساس اختلف المعتقدون بالأئمّة في مسألة معرفة الإمام، فبعض الناس يراهم عليهم السلام واسطة في الرزق،

---

١ . الحج: ١١.

٢ . لفظ الجلالة (الله) في الاصطلاح علم للذات المستجمعة لكلّ الكمالات، لا بمعنى أنّ التوفر على كل الكمالات لوحظ في معنى هذه الكلمة. وببيان آخر: يشار بهذا الاسم المبارك إلى ذات لها كلّ الكمالات؛ لكنّ كلّ اسم من الأسماء الإلهية الحسنى يشير إلى صفة خاصة، لا إلى ذات الباري تعالى؛ ولذا لا يوجد اسم له جامعية كجامعيّة لفظ الجلالة (الله). (انظر: تفسير تسنيم، ج١، ص٢٧٩، ذيل الآية (١) من سورة الحمد).

وبعض آخر يحسبهم واسطة في غفران الذنوب، وفريق ثالث يقول: هم ذريّة رسول الله، وفريق رابع يعتقد أنّهم وارثو علم النبيّ ﷺ و... .

ولا ريب في أنّ كلّ صفة من صفات الإمام هي سبيل إلى نبع معرفة الإمام، ولا يمكن إطلاقاً تحديد الإمام بهذه الصفات والكمالات؛ لأنّ الإمام إنسان كامل قائم بخلافة الله في نظام الوجود. وفي هذا السياق، كتب سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة حينما أرسل إليهم مسلم بن عقيل: «فلعمري ما الإمام إلاّ الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحقّ، الحابس نفسه على ذات الله»[1]. وجاء «الحبس على ذات الله» في كلمات الإمام الحسين ليدلّ على ضرورة جامعيّة الامام؛ لأنّه لو ذُكر الحبس على صفةٍ من صفات الله وقال: «الحابس نفسه على رحمة الله» أو «الحابس نفسه على غضب الله» ونحو ذلك لما دلّ على الجامعيّة، وصار الإمام ذا بُعد واحد.

وكما أنّ الناظر لتجلّي الله يلتذّ بنظره ويتعلّم سبيل التخلّق بأخلاق الله تعالى؛ كذلك الناظر لتجليات الإنسان الكامل وخليفة الله يلتذّ برؤية جماله وكماله، ويجد القدوة والأسوة لتكامله.

بهذا يتضح أنّ دعاء الجوشن الكبير دورة توحيد ومعرفة بالله، ألقى معارفها أمين الوحي على الرسول الأكرم ﷺ، والزيارة الجامعة أيضاً دورة في معرفة الإمام، علّمها هادي آل محمد، الإمام علي النقي عليه السلام لطلاّب مدرسة الإمامة وسالكي طريق الولاية.

سند الزيارة الجامعة

البحثُ السندي للروايات المنقولة عن المعصومين إحدى المقدمات المعروفة في

---

١ . الإرشاد، ج٢، ص٣٩.

استنباط الأحكام الفقهيّة؛ وعلى أساس ذلك قسّموا الروايات إلى الصحيح والحسن والموثق والضعيف و... وعيّنوا لكلّ قسم رتبة خاصّة وآلية خاصّة في الاستنباط، بمعنى: أنّ بعضها صالح لوحده لاستناد الفتوى عليه، وبعضها صالح للتأييد فقط، وبعضها ساقط عن الاعتبار ولا آليّة له أصلاً و... وكما هو واضح فإنّ أصل هذا البحث لا موضوعيّة ولا قيمة ذاتيّة له، بل هو طريقي، وقيمته في أنّه طريق لتحصيل الاطمئنان بصدور الحديث من المعصوم؛ لذا قالوا: إنّ الاطمئنان كافٍ من أيّ طريق حصل، سواء من عدالة الراوي، أم من وثاقته، أم بسبب ارتفاع مستوى نصّ الرواية، أم بسبب عمل الفقهاء بها والاستناد إليها في مقام الاستدلال، أم بأيّ طريق آخر. ومن هنا صرّحوا بحصول الاطمئنان بالصدور من الحجّة الإلهيّة البالغة إذا كان نصّ الرواية بنحو لا يمكن صدوره من غير المعصوم.

ونصّ الزيارة الجامعة الكبيرة بنحوٍ يحكم كلُّ منصف باستحالة صدور هذه المعارف العالية من غير المعصوم.

يضاف إلى ذلك انسجام خطوطها الكليّة والخطوط الكليّة لمعارف القرآن الكريم، وهو المرجع النهائي في دراسة الروايات، وهذا ما يغنينا عن البحث السندي فيها.

السَّلامُ عَلَيْكُم...

«السلام» ضدّ الخصومة، وبمعنى الموافقة الكاملة التي لا يشوبها خلاف ومنازعة، ومن لوازم هذا المعنى الانقياد والصُّلح والرضا وأمثال ذلك[1].

السلام بمعنى السلامة، وجملة «السَّلامُ عليكُم» أي: السَّلامةُ من الله عَلَيْكم[2].

أيسر وسيلة للتكريم

إنّ تبادل السلام حين التلاقي مع الآخرين أسهل وأيسر وأعظم وسيلة لإظهار المحبّة والتكريم والتعظيم للمخاطب، وتوثيق عرى الروابط الاجتماعية.

السلام نوع تحيّة، ومرجع التحيّة إلى طلب الحياة للمخاطَب، سواء الحياة

---

١. هو ما يقابل الخصومة، وهو الموافقة الشديدة في الظاهر والباطن، بحيث لا يبقى خلاف في البين، ومن لوازم هذا المعنى مفاهيم الانقياد والصلح (السلْم) والرضا. (انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «سلم»).

٢. كتاب العين، مادة «سلم».

الظاهريّة أم الباطنية، الماديّة أم المعنويّة[١].

وجاء في القرآن الكريم أنّ تحية أهل الجنّة هي السلام: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ**﴾[٢]، وطبقاً لهذه الآية فإنّ للتحيات أنواعاً، وأعلاها السلام؛ لذا اختاره أهل الجنّة للمحاياة.

وعليه فإنّ ملقي السلام يطلب للمخاطب بوسيلة «السلام» الحياة المقرونة بالسلامة، وهي الحياة الممنوحة من قبل الله تعالى. وفي الحقيقة إنّ معنى ذلك «سلام الله عليك»؛ لأنّ «السلام» من أسماء الله الحسنى ﴿**هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ**﴾[٣]، وهو تعالى مبدأ كلّ سلام وسلامة، وفي الدعاء:

«اَللّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ وَلَكَ السَّلامُ وَإِلَيْكَ يَعُودُ السَّلامُ»[٤].

ولأنّ الله تعالى هو السلام فإنّ السلام وردّه المتبادل بين اثنين (السلام عليك وعليك السلام) عبارةٌ أخرى عن ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ**﴾[٥].

ملاحظتان: الأولى: يمكن القول في تبيين معنى فقرات هذا الدعاء:

أ) إنّ الله هو السلام، بمعنى أنّ جميع كمالات تلك الذات الأقدس سالمة من العيوب والنقائص.

ب) إنّ الله سبحانه هو المبدأ الفاعلي لجميع الآثار النافعة والمباركة، فهو مبدأ السلام أيضاً.

---

١ . أما التحية: فمرجعها إلى طلب الحياة، ظاهرة وباطنة مادية ومعنوية، لمن يحيّي، وهذا معنى الدعاء له بالسلامة المطلقة أو بالبقاء. (انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «حيّ»).

٢ . يونس: ١٠.

٣ . الحشر: ٢٣.

٤ . مفاتيح الجنان، التعقيبات المشتركة للصلوات؛ وفي تهذيب الأحكام، ج٦، ص٥٧ «يرجع» بدلاً من «يعود».

٥ . الحديد: ٣.

ج) إنّ الله تعالیٰ مالك جميع الأسماء والأفعال والآثار، ومَلِك كلّ الأشياء، فـ «السلام» أيضاً من مملوكاته وتحت سلطانه.

د) إنّ بيد الله جلّ وعلا إنجاز كلّ أمر، وهو مرجع كلّ شيء، وإليه تصير الأمور كافّة، وإليه ينتهي كلّ السائرين والسالكين؛ وعليه فمرجع السلام هو الله أيضاً.

وبعبارة أخرىٰ: السلام من الكلم الطيب، وكلّ كلام طيب يصعد إلى الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[1]، والصعود هو قوس الرجوع والعود إلى الله، فعود «السلام» إلى الله سبحانه.

الثانية: قال بعضهم في بيان سرّ تسمية الله سبحانه بـ «السلام»:

«ما من موجود إلاّ وكلّ ما له بتسليم منه تعالیٰ، فسمّیٰ نفسه سلاماً مبالغةً في هذه الصفة»[2].

التحية في الجاهليّة

كانت المحاياة موجودة أيضاً في عصر الجاهليّة قبل الاسلام، وكانت تؤدیٰ بصور مختلفة، مثل «حيّاك الله» و«أنعم صباحاً» و«أنعم مساءً» ومنها «أبيتَ اللعن»، وهذه العبارة كناية عن الدعاء بالبعد عمّا يستوجب لعن الناس وتقبيحهم.

ولكن هذا التحيّات ناقصة وذات بعد واحد، وشيبت ـ بمرور الزمن ـ ببعض شوائب الوثنيّة ومظاهر الاستعباد الجاهلي، فكان علیٰ المطيع والطبقات الدنيا أن تبدأ دوماً بإلقاء هذه التحيّات للسيّد المطاع وذوي الطبقات العليا[3]؛ من هنا شرّعت

---

١ . فاطر: ١٠.

٢ . شرح الأسماء الحسنىٰ، ص١١٢.

٣ . الميزان، ج٥، ص٣٣ ـ ٣٢ (كلام في معنیٰ التحية).

شريعة الرسول الأكرم ﷺ بإرساء قواعد تبادل السلام؛ لأنّ من الأهداف الأساسيّة للشريعة المحمديّة إلغاء العادات الجاهليّة وآداب الشرك، فالمسلمون مطالبون بالدعاء لبعضهم بالسلامة الخالصة التي لا عيب ولا نقص فيها، والخالية من الذلّة والحقارة والعداوة، والنقيّة من الخديعة في الأمور الماديّة والمعنويّة والضرر الجسدي والروحي، والتحيّة وإن كانت ليست من سنخ الدعاء؛ إلاّ أنّهم في الحقيقة يضمّنون مجموعة من الأدعية في جملة واحدة.

السلام تحية إلهيّة

السلام هو أفضل تحية يحيّي بها الله تعالى الأنبياء والعباد الصالحين، وهو تعالى تارة يحيّيهم بها بلا واسطة، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[١]، و﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٢]، وتارةً تكون على لسان أحد أوليائه، كما في إبلاغها لأوليائه الصالحين على لسان كليمه ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾[٣].

وهذا السلام ليس مختصّاً بدار الدنيا جزماً، بل هو أيضاً أفضل هدية تكون من نصيب العباد الصالحين حين ملاقاة الله تعالى يوم القيامة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾[٤].

والملائكة أيضاً تتلقّى أهل الجنّة بالسلام، وتدعوهم إلى مائدة نعمة الله الكبيرة: ﴿قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[٥]، كما تقبض أيضاً حين الاحتضار أرواحهم بسلام: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ

---

١. الصافات: ٧٩.

٢. الصافات: ١٠٩.

٣. طه: ٤٧.

٤. الأحزاب: ٤٤.

٥. الزمر: ٧٣.

عَلَيْكُمُ﴾[١].

والحاصل: إنّ المؤمنين الصالحين يتلّقون تحيّة السلام من كلّ ملاقٍ لهم، من الملائكة حيث تقول لهم: ﴿وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[٢]، ومن رفقائهم في السفر الى الجنّة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾[٣]، بل لا يداعب آذانهم في دار السلام شيء سوى السلام المنزّه من اللغو والإثم: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾[٤].

لقد وصف القرآن الكريم الجنّة بدار السلام، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٥]، ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾[٦]. و«دار السلام» بمعنى دار الله؛ لأنّ «السلام» أحد أسماء الله الحسنى ﴿السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾[٧].

وسمّيت الجنّة بهذا الاسم تكريماً وتعظيماً لها، كما هو الحال في إطلاق «بيت الله» على الكعبة، فإما أن تكون الإضافة هنا إضافة «لامية» بحيث تصبح الجملة «دارٌ لله»، أو تكون «دار» مضافاً إلى «السلام» إضافة بيانيّة، وتعطي معنى أنّ تلك الدار دار سلامة خالصة، وليس لساكنيها سوى السلامة فيها، ولا وجود فيها أصلاً لكلّ شر، أعم من الألم والمرض، والفقر والنصب، وفراق المحبوب والموت والهرم، والتغيير وزوال النعمة و...

---

١. النحل: ٣٢.
٢. الرعد: ٢٣ ـ ٢٤.
٣. يونس: ١٠.
٤. الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦.
٥. أنعام: ١٢٧.
٦. يونس: ٢٥.
٧. الحشر: ٢٣.

وقد أمر الله سبحانه نبيّه الذي أدّبه فأحسن تأديبه أن يستقبل بهذه التحيّة جموع المؤمنين المتعلّمين: ﴿إِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾[١]، ونحن أيضاً أُدّبنا أن نحيّي النبيّ وأهل بيته عليهم السلام بهذه التحيّة حين المثول بين أيديهم، حتى بعد مغادرتهم هذه الدنيا، تعبيراً عن حبّنا وولائنا.

السلام على ائمة النور

لا فرق في عقيدتنا بين موت وحياة النبيّ الأكرم والأئمّة المعصومين عليهم السلام، فنقرأ في الزيارة:

«اَللّهُمَّ اِنّي اَعْتَقِدُ حُرْمَةَ صاحِبِ هذَا الْمَشْهَدِ الشَّريفِ في غَيْبَتِهِ كَما اَعْتَقِدُها في حَضْرَتِهِ، وَاَعْلَمُ اَنَّ رَسُولَكَ وَخُلَفاءَكَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ اَحْياءٌ عِنْدَكَ يُرْزَقُونَ، يَرَوْنَ مَقامي، وَيَسْمَعُونَ كَلامي، وَيَرُدُّونَ سَلامي، وَاَنَّكَ حَجَبْتَ عَنْ سَمْعي كَلامهم»[٢].

وعن عليّ عليه السلام، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «يموت من مات منّا وليس بميّت»[٣].

معنى حياة الأئمّة

من الواضح أنّ «الحياة» غير «إحياء الاسم والذكر» الحاصل بسبب السمعة الحسنة والسبق إلى الأعمال الصالحة، الوارد في قول سعدي حيث أنشد:

يا سعدي! لا يموت أبداً الرجل ذو السيرة الجميلة
إنّما الميت ذلك الذي لا يذكرونه بخير.

---

١ . الأنعام: ٥٤.
٢ . مفاتيح الجنان، ص٥٣٤، فصل آداب الزيارة والإذن في دخول الحرم الشريف.
٣ . نهج البلاغة، الخطبة٨٧.

وأنشد أيضاً:

هلك قارون وقد ملك من الكنوز أربعين بيتاً
لكن لم يمت ذو الروح الطيبة لأنّه ترك اسماً حسناً
لما دفنوا بقيّة جسد ذلك المتهالك في التراب
أكله ترابه حتى لم يبق منه شيء من العظام
حيٌّ هو اسم صاحب الروح المباركة
وإن كان مضى دهر طويل
فافعل الخير واغتنم العمر يا فتى
فإنّه لم يبق الكثير على نداء الموت[1].

وهذه الحياة ليست من نوع الحياة التي يثبتها الحكماء للروح ويقولون بعدم فنائها، وأنّ الإنسان إنّما ينتقل بالموت من عالم إلى عالم آخر؛ بل هي سنخ حياة أشار إليها لسان الغيب بقوله:

نحن رأينا في الكأس صورة وجه الحبيب
يا من لا علم له بلذّة شرب خمرنا
لا يموت أبداً من حيا بالعشق قلبه
ودوامنا مكتوب في صحيفة العالم[2].

بل إنّ هذه الحياة هي ما يثبتها القرآن الكريم للشهداء، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[3]، وقال ردّاً على الظنّ الباطل: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ

---

١ . گلستان، الباب الأول، الحكاية١٨.

٢ . ديوان حافظ، الغزل١١.

٣ . البقرة: ١٥٤.

﴿يُرْزَقُونَ﴾[١].

بناءً على هذا، فإنّ حياة الشهيد حياة خاصّة عند الله سبحانه، وهي خاصّة بالمؤمن بطبيعة الحال؛ وأمّا إحياء الاسم وترك الذكرى الطيّبة فليس خاصّاً بالمؤمن المعتقد بالله والقيامة، بل يستطيع الكفّار أيضاً ترك ذكرى طيّبة لهم.

وفي الآية السابقة تصريح بأنّكم لا تستطيعون فهم طبيعة حياة الشهيد ﴿وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾؛ والحال أنّ أيّ أحد يمكنه أن يفهم معنى بقاء الذكر الجميل، بل إنّ غير الموحدين هم من يسعون أساساً لذلك، وأكثر ما يفكّر فيه الموحدون إخلاص العمل لنيل رضا الله تعالى.

وإذا كان شهيد ساحة الايمان يتمتّع بهكذا حياة؛ فأئمة النور أولى بأن يتمتّعوا بهذه الحياة، بل بأرقى منها، ليس فقط لأنّهم قضوا شهداءَ ونالوا هذا المقام، بل لأنّ الشهداء فازوا بهذا الفيض ببركة هدايتهم.

وتوجد شواهد أخرى تؤيد حياة الأئمّة الأطهار عليهم السلام:

أ) قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من زارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي، وكنت له شهيداً وشافعاً يوم القيامة»[٢].

ب) أولياء الله تعالى أحياء، وهم يسمعون من يسلّم عليهم من قريب مزاراتهم، بل ويمكن التسليم عليهم من المكان البعيد أيضاً. قال النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله: «من صلّى عليّ عند قبري سمعته، ومن صلّى عليّ من بعيد بُلّغته»[٣]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا بعُدت بأحدكم الشقّة ونأت به الدار فليعلُ على منزله وليصلِّ ركعتين، وليؤمِ بالسلام إلى قبورنا، فإنّ ذلك يصل الينا»[٤].

---

١. آل عمران: ١٦٩.

٢. بحار الأنوار، ج٧٩، ص١٤٣.

٣. المصدر السابق، ج٦، ص٢٥٤.

٤. تهذيب الأحكام، ج٦، ب٤٧، ح١.

فصحّة الزيارة من بعيد وعلم تلك الذوات النورانيّة بها علامة أنّ حياة الأئمّة عليهم السلام حياة راقية.

ج) الأئمّة شهداء على أعمال الأمّة، وسيشهدون يوم القيامة، وتحمّل الشهادة على الأعمال يلازم الحياة والإدراك.

ويجدر القول بأنّ الفرق الإسلاميّة كلّها معتقدة بحياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد موته، فحتى وهابيّو الحجاز ـ الذين يرون أنّهم وحدهم حاملي راية التوحيد ويرمون بالشرك سائر الفرق الإسلاميّة ـ يعتقدون بذلك أيضاً؛ ولذا كتبوا الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾[1] في الروضة المنوّرة، ويستعملون دوماً الإيماء والإشارة مع الزائرين طالبين منهم رعاية حرمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وأن لا يرفعوا أصواتهم في محضره. وعلى هذا، فحياة وموت الرسول الأكرم والأئمّة الأطهار سواء، بمعنى أنّ موت تلك الذوات النورانيّة بمنزلة حياتهم، كما أنّ حياة بعض المجرمين بمثابة موتهم.

ونومهم ويقظتهم عليهم السلام أيضاً سواء، ففي رواية زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: طلب أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وآله، فقيل: إنّه في حائط كذا وكذا، فتوجّه في طلبه فوجده نائماً، فأعظمه أن ينبّهه، فأراد أن يستبرئ نومه من يقظته، فتناول عسيباً يابساً فكسره ليسمعه صوته ليستبرئ نومه، فسمعه رسول الله صلى الله عليه وآله، فرفع رأسه، فقال: يا أبا ذر! تخدعني؟ أما علمت أنّي أرى أعمالكم في منامي، كما أراكم في يقظتي؛ إنّ عينيّ تنامان، ولا ينام قلبي»[2].

وحيث وضُح معنى السلام والمقصود من التسليم، نفهم السبب في بدء أكثر الزيارات أو كلّها بالسلام وتكراره في فقراتها كافّة.

---

١ . الحجرات: ٢.

٢ . رجال الكشي، في ترجمة أبي ذر (رض).

إشارات

١ ـ مظاهر اسم «السلام» المبارك

«السلام» اسم من أسماء الذات المقدّسة للباري تعالىٰ، وسرّ تسميته تعالىٰ به هو أنّ معنىٰ وحقيقة السلام مختصّ بالله سبحانه بالأصالة، ومنه ينزل إلىٰ غيره، وذكره جالب للبركة والسعد، والمداومة عليه دوام لذكر المحبوب وكثرته، ولعلّ سرّ حثّ الدين الإسلامي المقدّس علىٰ التسليم هو هذه الأمور.

وحيث إنّ هذا الاسم ناشئ من الذات الربوبيّة المقدّسة ومنتزع من مقام فعلها، فهو من الأسماء الفعليّة لله تعالىٰ، وهو بحاجة إلىٰ مظهَر؛ وعلىٰ هذا لا تنافي بين إطلاق هذا الاسم المبارك علىٰ الله سبحانه وإطلاقه علىٰ مظاهره التامّة، كأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

ولذا حينما التفت النبيّ ﷺ في سفر المعراج إلىٰ صفوف المصلّين من الملائكة والأنبياء والمرسلين وسلّم عليهم أوحىٰ الله إليه:

«إنّ السلام والتحيّة والرحمة والبركات أنت وذريّتك»[١].

٢ ـ وسيلة لرفع الدرجات

الممكنات كلّها، سواء المعصوم أم غيره، هي في حركة نحو الكمال المطلق بلحاظ قوس الصعود، وهذا الطلب للكمال ورفعة الدرجات موجود أيضاً في الجنّة:

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً﴾[١].

---

١ . الكافي، ج ٣، ص ٤٨٦.

فيكون تسليمنا على المعصومين سلاماً تكريميّاً، طلباً لعلوّ درجاتهم؛ لأنّه سبب في إفاضة سلام خاصّ عليهم من الذات المقدّسة للباري تعالى، كما أنّه سبب أيضاً لحصول المسلِّم على الأجر والمنزلة الرفيعة.

ملاحظة: وليس معنى رفع الدرجة أنّ تسليمنا مبدأ فاعلي وواسطة بين الله سبحانه وبين تلك الذوات النورانيّة، بحيث نكون نحن واسطة الفيض لهم، بل بمعنى أنّ الله ينيلهم فيضاً خاصّاً في عرض تسليمنا عليهم وتأدّبنا معهم، وهو يصل إليهم أولاً وأصالةً، ومن ثمّ تصل رشحاته إلينا تبعاً لهم.

وبعبارة أخرى: يصعد دعاؤنا بواسطة أولئك البشر الكاملين ليصل إلى الساحة الإلهيّة، ومن ثمّ ينزل الفيض الإلهي ليصل إلينا بواسطة وبركة تلك الذوات النورانيّة. فحلقة الوصل الدائمة بين الواجب تعالى والممكنات هم دون سواهم، وليس بوسعنا أبداً القيام بدور هذه الوساطة.

والأدب والتأدّب وإن كان مضافاً إلينا ومن شؤوننا حسب الظاهر؛ لكنّ إظهار الأدب هذا لم يكن ليحصل لولا أسباب التوفيق التي هيئوها لنا؛ فمحصّل الأدعية وصلواتنا المقارنة لها على الأئمّة هو: اللهمّ أرسل سيل رحمتك على جبل وجود محمّد وآله (صلوات الله عليهم أجمعين)؛ كي يروي نهرُه الجاري عطشَ أرواحنا.

ويمثّل الأستاذ العلامة الطباطبائي لذلك هكذا:

إذا ما اقتطف رجل باقة زهور من حديقته وأهداها لأحد فله أن يقول: لقد أهديتك شيئاً من عندي؛ لكن إذا ما قطف عبدٌ زهوراً من حديقة مولاه بإذنه، وقدّمها إلى مولاه حينما يكون في خدمته؛ فليس له أن يقول ذلك، بل لمولاه أن يقول له: أنا من هيّأ لك سبب التوفيق. وذلك لأنّ شؤون العبد كافّة رهن مولاه، وليس

---

١ . الفرقان: ٧٥.

له من أمره شيء.

وما فعله ليس شيئاً سوى إظهار الأدب في حضور السيّد، فصلواتنا وأدعيتنا للأئمة الأطهار عليهم السلام من قبيل فعل العبد لمولاه، لا من قبيل هديّة النظير لنظيره.

٣ ـ توثيق الروابط الاجتماعية

لكلّ مجتمع تحيّة خاصّة تبتني على أساس رؤيته المعرفيّة وطبيعة تكوينه النفسي، مثل الانحناء وتحريك الرأس ورفع اليد ونزع القبّعة و... والإسلام دين دنيا وآخرة؛ لذا وضع إلى جانب التعاليم المتكفّلة بالسعادة الأخروية تعاليمَ لحسن إدارة دنيا البشر. وبما أنّ الانسان كائن اجتماعي وليس بمقدوره العيش خارج الدائرة الاجتماعية فإنّ الاسلام وضع تعاليم خاصّة من أجل توثيق عرى العلاقات الاجتماعية، ومن أحسنها تحيّة السلام، وقد أكد الإسلام على هذا العنصر الأساس إلى جانب تأكيده على بقية العناصر العاطفيّة، وفي الرواية عن عليّ عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال:

إنّ للمسلم على أخيه المسلم من المعروف ستّاً:

أ) يسلّم عليه إذا لقيه،

ب) ويعوده إذا مرض،

ج) ويسمّته إذا عطس،

د) ويشهده إذا مات،

هـ) ويجيبه إذا دعاه،

و) ويحبّ له ما يحبّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه[١].

---

١. بحار الأنوار، ج٧٣، ص٥، ح١٥.

ولم يكتف الإسلام في بيان اهتمامه بهذا الأدب الاجتماعي بترغيب المسلمين وحسب، بل استعمل إلى جانب ذلك التوبيخ؛ فترغيباً ورد في الرواية: «للسلام سبعون حسنة، تسع وستون للمبتدئ وواحدة للرادّ»[1].

وتوبيخاً جاء في الرواية:

«البخيل من بخل بالسلام»[2].

٤ ـ إفشاء السلام

كما أنّ إلقاء تحيّة السلام أحد عناصر توثيق اللحمة الاجتماعيّة، في المقابل قد يكون لاهمال ذلك والتقصير فيه دور سلبيّ ومفسد، مثل انتظار بدء الآخرين بالسلام، أو الإخفات به أو عدم ردّ السلام ونحو ذلك، وهذا ليس من شأنه ألاّ يكون سبباً للألفة والمودة وحسب؛ بل هو سبب للعداوة والبغضاء أيضاً؛ من هنا أكد الدين الإسلامي المقدّس على:

١ ـ أن لا تنتظروا بدء السلام من أحد، بل بادروا الآخرين بالسلام، واعلموا أنّ «البادي بالسلام أولى بالله وبرسوله»[3].

٢ ـ أن تلقوا السلام بصوت مرتفع دوماً، وتردّوه بنحو يسمعه البادئ به؛ لأنّ عدم سماعه للردّ كثيراً ما يكون مدعاةً للسخيمة.

٣ ـ الحمل على المحامل الحسنة كاحتمال عدم سماع السلام أو الجواب، ففي الرواية عن الصادق عليه السلام قال: «إذا سلّم أحدكم فليجهر بسلامه، لا يقول: سلّمت فلم يردّوا عليّ، ولعله يكون قد سلّم ولم يُسمعهم، فإذا ردّ أحدكم فليجهر

---

١ . المصدر السابق، ج٧٥، ص١٢٠، ح١٧.

٢ . المصدر السابق، ح١٨.

٣ . بحار الأنوار، ج٧٣، ص١١.

بردّه، ولا يقول المسلّم: سلّمت فلم يردّوا عليّ...»[١].

ولم يقتصر تأكيد الدين الإسلامي المبين على مسألة أصل إلقاء تحيّة السلام والمبادرة إليه والجهر به فقط؛ بل أكد أيضاً وبنحو خاص على مسألة إفشاء السلام، ومعناه أن يسلّم المرء على كلّ من يلتقي به. قال الإمام الصادق عليه السلام: «من التواضع أن تسلّم على من لقيت»[٢].

والمقصود من إفشاء السلام ليس رفع الصوت به؛ بل أن يسلّم على من لقي كائناً من كان، ونشره كظاهرة بين الناس؛ إذ قد يحصل الإفشاء من دون رفع الصوت، كما في تناقل أيّ كلام بالتناجي، سرّاً كان أو غير سرّ.

وهذه السنّة الحسنة ـ إفشاء السلام ـ ذات فضيلة معنوية خاصّة، بالاضافة إلى كونها عنصر شدّ لأواصر المجتمع؛ فعن الإمام الصادق، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ في الجنّة غرفاً، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، يسكنها من أمّتي من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلّى بالليل والناس نيام، ثمّ قال: إفشاء السلام أن لا يبخل بالسلام على أحد من المسلمين»[٣].

ونقرأ في دعاء اليوم الثامن من شهر رمضان المبارك:

«اللهمّ ارزقني فيه رحمة الأيتام وإطعام الطعام وإفشاء السلام وصحبة الكرام»[٤].

وعليه فرفع الصوت بالسلام مطلوب، وإفشاء السلام ونشره مطلوب آخر.

---

١ . أصول الكافي، ج٢/ ص٦٢٥، ح٧.

٢ . بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣، ح٤.

٣ . بحار الأنوار، ج٧٣، ص٢، ح٢.

٤ . مفاتيح الجنان، أدعية أيام شهر رمضان المبارك.

٥ ـ البدء بالسلام حين التلاقي

بدء هذه الزيارة وغيرها من الزيارات بالسلام على المخاطَب، إنّما هو درس عملي للزائر، يعلّمه أنّ كلّ خطاب يجب أن يبدأ بالسلام. قال الإمام الصادق عليه السلام: «السلام قبل الكلام»[1]. وفي رواية أخرى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»[2]، وفي رواية أخرى: «لا تدعُ إلى طعامك أحداً حتى يسلّم»[3].

٦ ـ نقاط مهمة

بما أنّ الأبدان المادّية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام قد فارقت هذه الدنيا، وبلحاظ حضور تلك الذوات النورانيّة في عالم البرزخ؛ فمن المهم ذكر عدد من النقاط حول التسليم عليهم وردّهم عليهم السلام على الزائرين:

الأولى: إنّ سلام المصلين نهاية عبادتهم الصلاتيّة، والمخاطب به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وكذلك سلام الزائر لوليّ الله في بدء زيارته، يصل إلى مسامع تلك الذوات المقدسة ويستمعون إليه، إذا ما اقترن بالأدب وتزيّن به، وليس هذا وحسب؛ بل له أثره العملي الخاص عندهم، لأنّهم مظاهر الله السميع الدعاء[4].

الثانية: إنّ للسلام مراتب؛ لأنّ للمسلّمين درجات. وردُّ الإنسان الكامل والمعصوم على السلام ـ سواء الرسول أم الإمام ـ يختلف باختلاف مراتب السلام؛

---

١ . بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٢، ح٤٦.

٢ . بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣، ح٦.

٣ . المصدر السابق، ج٧٣، ص٣، ح٦.

٤ . معنى أنّه تعالى سميع الدعاء أنّه تعالى يقضي حاجة الداعي على إثر الدعاء، لا أنّه يسمع دعاءه وحسب.

بمعنىٰ أنّ السلام الإلهي الخاصّ الحاصل للمصلّين أو الزائرين بواسطة أولياء الله سبحانه يختلف باختلاف درجاتهم.

الثالثة: إنّ التسليم علىٰ ذي الحياة الظاهريّة له حكمه الفقهي الخاص، وهو وجوب الردّ؛ لكنّ الراحل عن هذه الدار والفاقد للحياة الماديّة لا يُنتظر منه تطبيق الأحكام الدنيويّة الاعتباريّة والآثار الفقهيّة الخاصّة لهذه النشأة، كما لا يُنتظر منه الإتيان بالصلاة والصوم والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و... ومن يفعل المعصية في حرم الإمام المعصوم فلا يتوقعنّ أحدٌ أن ينهاه الإمامُ المعصوم وإن كان حيّاً وشاهداً وقادراً. وعلىٰ هذا لا معنىٰ لتوقع سماع ردّ السلام منهم عليهم السلام، بل المرجوّ في هذه الحالات أن يحظىٰ الزائرون في عالم البرزخ بالآثار الخاصّة للسلام وإظهار المحبّة، مثل الشفاعة والوساطة لنيل فيض إلهي خاصّ، و ما شابه ذلك.

علىٰ أنّ بعض أصحاب القلوب قد سمعوا ردّ سلامهم من الأئمّة عليهم السلام حين تشرّفهم وحضورهم في مقاماتهم؛ لكن من البيّن أنّ ذلك الردّ ليس له صبغة فقهيّة، بل هو من مصاديق الفيض الخاص، وله بركاته الخاصّة.

يا أهلَ بيتِ النُّبوّةِ

«أهل» في اللغة هو الأنس والاختصاص والتعلّق[1]؛ ولذا عُدّ الزوج والولد والحفيد وزوج البنت من أهل المرء، وبلحاظ معنى «الأنس والتعلّق الخاص» يقال: أهل الكتاب، أهل الإنجيل، أهل المدينة، أهل الذكر، أهل التقوى، أهل النار و... وشدّة «الأهليّة» وضعفها تابعة للأنس والتعلّق؛ ولذا قد يسلب عنوان «الأهل» عن أحدهم إذا ما انتفى فيه الأنس والتعلق، وإن كان بعضاً من أولاد الرجل، كما قال تعالى للنبيّ نوح: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**﴾[2].

و «البيت» هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان بالليل[3].

و «النبوّة» مصدر «نبو» بمعنى الرفعة، ويقال لصنف من البشر «نبيّ» باعتبار

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «أهل».

٢ . هود: ٤٦.

٣ . مفردات الراغب.

علوّ مقامهم الروحيّ والمعنويّ، ففضلوا على بقيّة الخلق، وإن كانوا مثل غيرهم في الخصوصيّات الإنسانيّة[١].

المراد من «بيت النبوّة»

ما سبق كان المعنى اللغوي للكلمات؛ ولكن لجملة «أهل بيت النبوّة» ـ وعادةً ما تختصر بجملة «أهل البيت» ـ في ثقافة المسلمين شيعة وسنّة معنى خاص أضيق من المعنى اللغوي، وصارت عنواناً خاصّا لأناس بأعيانهم.

والاختلاف الموجود هو في سعة دائرة هذا العنوان المركّب، وفي تعيين المخصوص بهم والمقصور عليهم، فمن هم؟

من المسلّم به عند الشيعة والسنّة شمول عنوان «أهل البيت» لأصحاب الكساء المشهورين بـ «الخمسة الطيبة»، وهم الرسول الأكرم ﷺ وأمير المؤمنين وفاطمة المطهّرة والإمامان الحسن والحسين عليهم السلام.

وبعض العامّة يرى شموله لأزواج النبيّ الأكرم ﷺ أيضاً، وبعض آخر منهم يرى شموله لغيرهنّ أيضاً.

وفي المقابل، يعتقد الشيعة بشموله لبقيّة الأئمّة أيضاً، وإن لم يدركوا عصر الرسول الأكرم ﷺ.

وسيأتي الكلام في تعيين مصاديق هذا العنوان ذيل فقرة «وأذهبَ عَنكُم الرِّجسَ وَطهَّركُم تَطهيراً».

والتحقيق اللغوي لهذا التركيب يفيد أنّ إضافة كلمة «بيت» إلى «النبوّة» إضافة

---

١ . «نبو» ارتفاع شيء في مورد يتوقع فيه الانخفاض. وقد رجح الراغب هذا المعنى أيضاً. (التحقيق في كلمات القرآن الكريم).

«لاميّة»، أي «بيت للنبوة»؛ فالمراد أنّ البيت متعلّق بمقام النبوّة، وليس المراد «البيت الشخصيّ» لمحمد بن عبد الله من حيث إنّه أحد أهل مكّة أو المدينة، هذا.

والتواصل مع أيّ بيت، دخولاً وخروجاً وأنساً به وبساكنيه، والتأهل فيهم والانسجام معهم، إنّما يحصل عن طريق مقدمات وتمهيدات تتناسب وذلك البيت. والارتباط ببيت محمّد بن عبد الله ﷺ، وهو عظيم مكّة والمدينة، ميسّر عبر القرابة السببيّة أو النسبيّة أو الصحبة أو الرحم أو الجيرة، وما شابه ذلك. ومن هنا لم ينحصر الارتباط ببيته في أزواجه وأولاده؛ بل كان لذوي قرابته ارتباط ببيته أيضاً، ولقد حدث قبل فتح مكّة أن دخل أبو سفيان مشركاً بيت ابنته أمّ حبيبة زوج النبيّ الأكرم ﷺ، فواجهته أمّ حبيبة بغليظ الكلام، والقصّة معروفة في كتب التاريخ[1].

لكن الارتباط ببيت مضاف إلى مقام النبوّة بحاجة إلى أسباب خاصّة، ولا يكفي فيه اللحمة السببيّة والنسبيّة و... وبهذا السبب الخاص يكون مثل الأئمّة التسعة بعد الإمام الحسين من أهل بيت النبوّة أيضاً، وإن لم يدركوا النبيّ الأكرم ﷺ، بل لم يرَ بعضهم بيت النبيّ بمكة أو المدينة.

وعليه فليس المقصود من كلمة «بيت» في هذا العنوان المركّب البيت المادّيّ المبني من الحجارة والطين، والباقي كذكرى لرسول الله ﷺ في مكّة والمدينة؛ بل المقصود بيت «النبوّة والرسالة»، وهو بيت الشخصيّة الحقوقيّة للنبيّ، لا بيت الشخصيّة الحقيقيّة له ﷺ، والشاهد على هذا المعنى أنّ القرآن الكريم حينما يذكر البيت المادّيّ الراجع إلى الشخصيّة الحقيقيّة لا الحقوقيّة يذكره دوماً بصيغة الجمع، سواء أضافه إلى الرسول كما في آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ

---

١ . انظر: سيرة ابن هشام، ج٤، ص٣٨.

أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أم لم يضفه، كما في آية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ وآية: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾؛ فبيت النبيّ الذي كان يجتمع فيه المؤمنون لتناول الطعام ـ وكانوا يجلسون فيه بعد الطعام ويؤذون النبيّ ﷺ بجلوسهم الطويل، وكان النبيّ ﷺ يستحي من ذكر ذلك لهم ـ كان البيت الطيني الماديّ.

وبعبارة أخرى: المراد من بيت النبوّة ذلك البيت الرابط بين الأرض والسماء، وليس البيت الذي كان يعيش فيه النبيّ ﷺ ببدنه المُلكي، وكان يبيت فيه ليله ويسكن فيه أزواجه، و... وإن كان بيته الطيني الماديّ جدير بالتعظيم والتقديس أيضاً، لإضافته إليه إضافة ظاهرية.

هذا البيت، «بيت النبوّة والولاية»، مواد بنائه هي الفضائل والكمالات المعنويّة، وما يتناسب مع مقام الولاية من أمور، وهو ليس بيت محمد بن عبد الله ﷺ ولا بيوت أزواجه؛ وعليه فأهل هذا البيت هم وثيقو الصلة بالفضائل والكمالات.

ملاحظة: ذكرُ هذه الصفة والصفات الأخرى بعد فقرة «السلام عليكم» من باب تعليق حكم على وصف، وهو مشعر بعليّة الوصف للحكم[١]؛ لأنّ الزائر يقول: السلام عليكم لأنّكم أهل بيت النبوّة، ولأنّكم موضع الرسالة، ولأنّكم... الخ. فأنتم مظهر إلهٍ ذاته السلام، ومنه السلام، وإليه السلام.

---

١ . توضيح ذلك: إذا قال قائل: احترمْ زيدًا. فقد يُسأل: ولماذا أحترمه؟ لكن إذا قال: احترمْ العالِم. فلن تكون حاجة للسؤال؛ لأنّ معنى تلك العبارة: احترمه لأجل علمه، فمعنى تعليق حكم على وصف أنّ «الحكم» صدر وقُضي به بسبب «الوصف» المذكور معه في الكلام، وأنّ بينهما ارتباطاً، بحيث ينتفي «الحكم» بانتفاء «الوصف».

إشارات

١ ـ الخطاب بحرف النداء للبعيد

«يا» حرف نداء، يستعمل لمناداة القريب ومتوسط القرب والبعيد.

وإذا كان المراد به هنا مناداة البعيد، فبلحاظ أنّ المخاطَب ذو منزلة رفيعة بعيدة المنال، فلا يتيسّر للمخاطِب الوصول إليه ولا حتىٰ معرفة حقيقته، وإن كان قريباً من بدنه المطهّر أو مضجعه الشريف؛ وعليه فحينما يقايس المرء نفسه بتلك المقامات المنيعة، ويأخذ بنظر الاعتبار طول المسافات المعنويّة الفاصلة بينه وبينها، فلا يسعه هنا سوىٰ قصد مناداة البعيد بحرف النداء.

ونظير هذا التعبير جاء في القرآن الكريم أيضاً، فقال تعالىٰ في بدء سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]، فـ «ذلك» اسم إشارة يشار به إلىٰ الأشياء البعيدة. والإتيان به في مثل هذه الموارد ـ التي يكون فيها قارئ القرآن الكريم قريباً من الوجود المادي لأوراق وجلد القرآن ـ للتدليل علىٰ علوّ مقام هذا الكتاب الإلهي، بحيث إنّ قارئه يرىٰ نفسه بعيداً عن رفيع درجته.

٢ ـ التمهيد لذكر الكمالات

إنّ بدء الزيارة بعبارة «أهل بيت النبوّة» تمهيد لذكر الدرجات التالية ومقدمة لتعداد الكمالات الأخرىٰ؛ لأنّ الزائر يقول في بدء الزيارة: فضّلكم الله علىٰ العالمين وأنتم من آل بيت رفيع وعال، لا يدانيكم فيه أحد، فأنتم ذوو الكمالات الواردة في هذه الزيارة كافّة، ولا غرابةَ في تحلّيكم بهذه الكمالات اطلاقاً.

---

١ . سورة البقرة: ٢.

وموضع الرّسالة

«موضع» اسم مكان، بمعنى جعل شيء في محلّ[1]، وهو مشتّق من المادّة «وضع»، مثل كلمة «مسجد» المشتقّة من «سجد».

و «الرسالة» في اللغة بمعنى أن يُرسَل إنسان أو شيء ما للقيام بأمر ما، ويكون قادراً على إنجاز ذلك الأمر. وهذا يتطلّب تمكين المرسَل التكويني بحيث يكون قادراً على تنفيذ ما أرسل به، بل وقادراً على مقاومة العوائق؛ هذا في الرسول التكويني، وأمّا الرسول التشريعي فهو يمكنه إنجاز مهمته ما لم يصطدم بمانع ما، إلاّ أن يكون قادراً على مقاومته وكسره؛ ولهذا ربما لا يتمكّن من القيام بما عهد إليه لمانعٍ ما، بل ربما يستشهد في سبيل ذلك. فالرسول التشريعي في نفسه متمكّن من أداء رسالته، وهو ليس مسؤولاً عن تصديق الناس أو رفضهم لها.

وكيف كان؛ يجب على الرسول المبادرة والانطلاق، وإن كان انطلاقاً معنوياً؛

---

١ . التحقيق، مادة «وضع».

للقيام بأداء رسالته المعهود بها إليه، وإلاّ فلن يكون قادراً على تنفيذ رسالته، ولا فرق في ذلك بين الإنسان والحيوان والشيطان والجماد والجنّ والملَك.

وقد أسند القرآن الكريم الرسالة الإلهيّة إلى الإنسان وسائر الموجودات، كما في هذه الآيات: ﴿أَرْسَلْنَا السَّمَاء﴾، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾، ﴿أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ﴾، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[1] و...

فمفردة «الرسالة» استُعملت في القرآن الكريم بالمعنى العام، وهو المعنى اللغوي لها، فليست هي مختصّة بأفراد معيّنين.

وهذا يعني أنّ دائرة الرسالة عامّة وواسعة، وغير مقصورة على تلقي الوحي وإبلاغه للآخرين، بل كلّ موجود معهود إليه من قِبل الله تعالى بتكليف، هو «رسول» في حدود ذلك التكليف.

ولكنّ الغالب في الحوارات والثقافة المعاصرة استعمال كلمة «الرسول» ـ وهي من مشتقّات الرسالة ـ في الرسول المصطفى، المكلّف من قِبل الله سبحانه بهداية وقيادة المجتمعات البشريّة، وهو ما نسمّيه بالفارسيّة «پيامبر»[2].

معنى موضع الرسالة

نحن نخاطب في هذه العبارة الأئمّة الأطهار عليهم السلام بقولنا: أنتم موضع الرسالة. ونذكر هذه الخصيصة في تعداد مزاياهم، وهذا المعنى أرقى من المعنى اللغوي؛ لأنّ للاتّصاف بـ «موضع الرسالة» أحد معنيين، ويصحّان معاً أيضاً:

الأول: إنّهم متّصلون بأهل الرسالة، بمعنى أنّهم آل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ وبهذا المعنى يكون معنى العبارة المذكورة: أنتم من أهل بيتٍ هو محلّ للرسالة.

---

١ . الآيات مرتبة: الأنعام: ٦. الأعراف: ١٣٣. الحجر: ٢٢. مريم: ١٧. المؤمنون: ٤٤.

٢ . هذا المصطلح مكوّن من كلمتين: «پيام» بمعنى «رسالة وخطاب»، و «بر» تخفيف «بُردن» بمعنى الحمل والإيصال؛ فالمعنى: موصل الخطاب وحامل الرسالة.

وقطعاً ليس المقصود الظرفيّة المكانيّة والماديّة.

الثاني: بملاحظة ما نفهمه من سعة معنى الرسالة وعدم انحصارها في تلقّي الوحي وإبلاغه، وأنّها تعني أيضاً حفظ الدين وصيانة وحراسة ما نزل به الوحي، وتبيين وإيضاح الخطوط العريضة للدين، وبيان حدوده وإجراء أحكامه، بهذا المعنى للرسالة نقول هنا:

إنّ كلّ واحد منفرد منكم يا أهل البيت هو موضع للرسالة؛ لأنّه إن كان قد عُهد الى غيرهم بحفظ الرسالة وتبليغها ونشرها والجهاد في سبيل الدين بالتكليف العام؛ فإنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام قد تعهّدوا بذلك بالتكليف الخاص، كما حصل في يوم الغدير، حيث كلف النبيُّ صلى الله عليه وآله وبأمر إلهيّ شخصاً معيّناً هو عليّ عليه السلام بإدامة الرسالة، وهذا ليس إلاّ «رسالة» خاصّة[١]، ولم يكلَّف أحدٌ غيره بمثلها عيناً.

ملاحظة: بحسب القواعد العربية تكون هذه العبارة وما بعدها معطوفة على جملة «أهل بيت النبوّة» فتكون جملة «السلام عليكم» واقعة في صدر كلّ عبارة، وهذا يعني أنّ النطق بعبارة من تلك العبارات هو تسليم جديد من الزائر على الأئمّة الأطهار.

إشارة

الفرق بين الرسول والنبيّ

التسامح العرفي جارٍ على اعتبار النبيّ والرسول[٢] بمعنى واحد، ويعبّر عن

---

١ . المراد بالرسالة ـ كما ذُكر في المتن ـ المعنى الأعمّ من مجرّد تلقّي الوحي وإبلاغه، فالمراد أنّ عليّاً كُلّف بإدامة حفظ الرسالة وحراسة حدودها بأمر إلهي خاص؛ لأنّه الوصيّ والخليفة للنبيّ بأمر الله تعالى، فأعطي من العلم والحكمة ما لم يعطاه غيره. (المعرّب).

٢ . وهما المترجمان في اللغة الفارسية بـ «پيامبر».

أحدهما بالآخر، بل قال البعض: لا فرق بينهما[١].

ولكن توجد روايات كثيرة تدلّ علىٰ الفرق بينهما، منها هذه الرواية:

قال أبو ذر: قلت: يارسول الله! كم النبيّون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبيّ. قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً. قلت: من كان أوّل الأنبياءِ؟ قال: آدم. قلت: وكان من الأنبياء مرسلاً؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه.

ثمّ قال: يا أباذر! أربعة من الأنبياء سريانيّون: آدم، وشيث، وأخنوخ ـ وهو إدريس، وهو أوّل من خطّ بالقلم ـ ونوح. وأربعة من العرب: هود، وصالح وشعيب، ونبيّك محمّد [ﷺ]. وأوّل نبيّ من بني إسرائيل موسىٰ، وآخرهم عيسىٰ، وستّمائة.

قلت: يارسول الله! كم أنزل الله تعالىٰ من كتاب؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله تعالىٰ علىٰ شيث خمسين صحيفة، وعلىٰ إدريس ثلاثين صحيفة، وعلىٰ إبراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[٢].

يُفهم من هذه الرواية:

أولاً: أنّ بين النبيّ والرسول فرقاً.

ثانياً: أنّ النبيّ من حيث المصداق أعمّ من الرسول.

ثالثاً: أنّ الرسالة والنبوّة قد تجتمعان.

رابعاً: أنّ كلّ رسول هو نبيّ بالضرورة، ولا عكس.

والسؤال هنا: ما الفرق بين مفهومي «النبيّ والرسول»؟

---

١ . بحار الأنوار: ج١١، ص٥٤.

٢ . الخصال، ص٥٢٤ أبواب العشرين وما فوقه.

وفي جوابه احتمالات:

١) قال بعضهم: إنّ الرسول مَن بُعث بشرع جديد، والنبيّ أعمّ منه، فقد يكون مقرّراً لشرع سابق[١].

والاشكال الوارد على هذا الاحتمال:

إنّ الرسل المبعوثين بشرائع جديدة هم خمسة لا غير: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢].

والحال أنّ رسل الله أكثر من خمسة.

٢) وقال بعض آخر: إنّ الرسول من كان له كتاب، والنبيّ بخلافه.

٣) وقال ثالث: إنّ الرسول من له كتاب ولكنّه قد نسخ في الجملة، والنبيّ من لا كتاب له أصلاً[٣].

والاشكال الوارد عليهما:

إنّ عدد الرسل المذكور في الرواية هنا (٣١٣)، بينما لا تزيد الكتب السماوية على (١٠٤) كتاب، بحسب نصّ الرواية نفسها.

٤) حكي عن الشريف الجرجاني قوله: إنّ الرسول هو من ينزل عليه جبريل ويأتيه بكتاب من عند الله، والنبيّ أعمّ، فلربما نزل عليه بالوحي ملَك غير جبريل، أو يُلهم بقلبه أو يُخبر في المنام؛ فيكون الرسول أفضل من النبيّ لأنّه يوحى إليه وحياً

١. الميزان، ج١٤، ص٣٩١.

٢. الشورى: ١٣.

٣. انظر هذه الأقوال في تفسير الميزان، ج١٤، ص٣٩١.

خاصاً.[١] اهـ.

وهذا التعريف يرجع بعضه الى التعريف الثاني والثالث، ويرجع بعضه الى التعريف السادس المستفاد من الروايات، وإلاّ فلا دليل عليه بما هو تعريف واحد. على أنّ الإلهامات القلبيّة ـ وهي النفحات الرحمانيّة ـ لا تلازم النبوّة، وقد حصل ذلك لأمّ موسى بما ألقي في قلبها.

٥) الاحتمال الآخر في الفرق بينهما أن يقال:

إنّ لفظ «النبيّ» ـ كما سبق ـ مشتّق من «النبو» بمعنى الارتفاع، وذكر بعضهم أنّه مشتّق من مادة «نبأ» بمعنى «خبر»[٢].

فالنبيّ على المعنى الأول بمعنى الرفيع المقام العالي المنزلة، وعلى الثاني بمعنى متلقّي النبأ أو الوحي، وفي الحالين مقام الرسول أعلى من مقام النبي؛ لأنّ النبيّ ـ على الاشتقاق الأول ـ هو من له منزلة إلهيّة ومرتبة روحيّة ومعنوية متميّزة، ومن يحصل على هذه المنزلة قد يمنح أيضاً مقام الرسالة؛ لأنّه حائز على الأرضيّة المناسبة لمقامها.

وعلى المعنى الثاني تكون أفضلية الرسول على النبيّ بيّنة؛ لأنّ النبوّة مقدّمة للرسالة. وبعبارة أخرى: الرسول هو الرابط بين عالمي المعقول والمحسوس، والجالس بين سماء المعنى وأرض المادة، وذلك الإنسان المصطفى نبيٌّ حينما يتلقّى الوحي الإلهي، ورسولٌ حينما يبلّغه؛ من هنا يجب أن يكون كلّ رسول نبيّاً، لتكون

---

١ . شرح المقاصد، ج٥، المقصد السادس في السمعيات. والموجود فيه هكذا: وفي كلام بعض المعتزلة أنّ الرسول صاحب الوحي بواسطة الملك، والنبيّ هو المخبر عن الله تعالى بكتاب أو إلهام أو تنبيه في المنام.

٢ . مفردات الراغب، مادة «نبأ» و «نبي». وقال بعضهم: أو من النبي بمعنى الطريق؛ لكونه وسيلة إلى الحقّ تعالى. (شرح المقاصد، المقصد السادس في السمعيات) لكن لا أثر لهذا المعنى في كتب اللغة المعروفة.

بحوزته وسيلة هداية الناس؛ لأنّ الرسول في نفسه ليس لديه شيء لهداية الناس: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[١]؛ ولكن ليس بالضرورة أن يكون كلّ نبيّ رسولاً، لإمكان أن يتلقّىٰ إنسان كامل شيئاً ولا يؤمر بإبلاغه.

وما يصلح شاهداً لهذه الدعوىٰ هو أنّ القرآن الكريم حينما يأمر الرسول الأكرم ﷺ بأمر شخصيّ يعبّر عنه بـ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)، كما في آية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾[٢] وآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾[٣]، وحينما يكون بصدد طلب إبلاغ الوحي والنبأ للناس يعبّر عنه بـ (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)، كما في آية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٤]، فالدالّ علىٰ وجوب إبلاغ الوحي للناس في هذه الآية ليس الأمر «بَلِّغْ» وحسب؛ بل عنوان «الرسول» أيضاً دالّ علىٰ ذلك، والجمع بين هاتين الكلمتين هنا كاشف عن شدّة اهتمام الله سبحانه بإبلاغ ذلك «المُنزَل» من عنده.

وببيان أوضح: لا شكّ في أنّ الرسول الأكرم ﷺ مأمور بإبلاغ ما أنزل إليه، سواء كان قرآناً أم غيره، من وحي تفسيريّ وأحاديث قدسيّة دخيلة في هداية الناس، فهو ليس مجرّد: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٥]، بل يبلّغ كلّ وحي يتلقّاه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٦]. بالاضافة إلىٰ هذا، فإنّ كلمة «قُلْ» وردت كثيراً في القرآن الكريم، ووجودها فيه ـ وإن كان المخاطب بها الرسول ـ يدلّ علىٰ أنّ الرسول لم يترك كلمةً من الوحي إلاّ بلغها.

---

١. النجم: ٣ـ ٤.

٢. التحريم: ١.

٣. الأحزاب: ٥٠.

٤. المائدة: ٦٧.

٥. النجم: ٣ـ ٤.

٦. التكوير: ٢٤.

وعلى هذا لم يبقَ شيء من الوحي لم يبيَّن ويبلَّغ. يستثنى منه الأسرار والملاحم والعلوم الغيبيّة، فإنّها أُبلغت لخصوص أئمة أهل بيت العصمة والطهارة؛ لعدم قدرة عامّة الناس ـ آنذاك والآن ـ على تحمّلها. وعلى كلّ حال فالرسول الكريم لم يهمل إبلاغ شيء من الوحي، غاية الأمر أنّ الوحي قد يتضّمن وظيفة شخصيّة للرسول نفسه، فيخاطَب حالئذ بـ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)، وقد يحمل أمراً لعموم الناس، بمن فيهم النبيّ أيضاً، فيخاطَب بـ (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ).

وخلاصة القول: إنّ الفرق بين «النبيّ والرسول» كون الأول أعمّ من الثاني، وهذا هو الرأي المشهور في التفريق بينهما، وهذا الفرق بينهما وإن كان مقبولاً لغوياً؛ لكن عليه إشكالات من جهات:

أ) إنّ القرآن الكريم عهد بوظيفتي البشارة والنذارة إلى الأنبياء: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1]، وهما من شؤون الرسالة وإبلاغ الوحي الإلهي.

ب) في هذا التفريق ذُكر (أنّ الانسان المصطفى نبيٌّ حينما يتلقى الوحي الإلهي، ورسولٌ حينما يبلّغه)؛ والحال أنّ كلّ سفراء الله ذوو رسالات، وإن كانوا أنبياء فقط؛ إذ من البعيد أن يكون ما يتلقّاه «النبيّ» ذا بعد شخصي محض ولا يكون موظفاً بإبلاغه وتعليم تزكية الناس. لقد أخبر الرسول الأكرم أبا ذر بأنّ من بين مائة وأربع وعشرين ألف يوجد ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً فقط، فهل يمكن القول إنّ وظيفة هداية البشر على طول التاريخ عُهد بها إلى (٣١٣) رجلاً فقط؟ والبقية لم تكن عليهم أيّ مسؤوليّة في هذا المجال؟! هذا بعيد جداً؛ وإن لم يكن محالاً عقلاً، بل ويؤيده ظاهر بعض الروايات.

ج) إنّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ الله تعالى قد كلّف «الأنبياء» أيضاً بالرسالة، وليس «الرسل» فقط، كما في الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[2].

١. البقرة: ٢١٣.

٢. الحج: ٥٢.

د) إنّ القرآن الكريم ذكر موسىٰ عليه السلام بتقديم الرسالة على النبوّة، علماً أنّه كان نبيّاً؛ لأنّه كان رسولاً، فقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾[1]؛ وطبقاً للتفريق المشهور كان يجب أن يقال: (كان نبيّاً رسولاً)[2].

وعليه فلا يمكن إسناد الفرق المذكور بين «النبيّ والرسول» إلى القرآن الكريم، وإن كان مدللاً عليه لغويّاً.

٦) يستفاد من القرآن الكريم أنّ كلاً من النبيّ والرسول مأموران بإبلاغ الوحي الإلهي، والفرق أنّ «الرسول» مبعوث إلهي متمايز وله وظيفة مختلفة، بإرساله تتمّ الحجّة، وينزل العذاب على الأمّة الطاغية بعد إرساله، وليس بعد إرسال «النبيّ»: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[3]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[4]، ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[5]؛ فتعليق إتمام الحجّة ونزول العذاب على إرسال الرسل دليل على الوظيفة المتميّزة المناطة بالرسول، والتي يمتاز بها عن «النبي».

٧) جاء في الروايات فرق آخر بين مفردتي «النبيّ والرسول»، فقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن الفرق بين الرسول والنبيّ والمحدّث، فقال: «الرسول الذي يأتيه جبرئيل قبلاً فيراه ويكلّمه، فهذا الرسول، وأمّا النبيّ فهو الذي يرىٰ في منامه نحو

---

١ . مريم: ٥١.

٢ . مراد المؤلف: أنّ كلّ رسول طبقاً للتعريف المشهور يكون نبيّاً بالضرورة، فذكر مقام الرسالة لموسىٰ عليه السلام أولاً دالّ على نبوّته، فلا حاجة لذكرها تالياً؛ لكن لو قدّم ذكر النبوّة أولاً احتيج لاثبات الرسالة إلى ذكرها؛ لأن النبوّة لا تعني الرسالة بالضرورة. [المعرب]

٣ . يونس: ٢٧.

٤ . الإسراء: ١٥.

٥ . النساء: ١٦٥.

رؤيا إبراهيم ونحو ما كان رأىٰ رسول الله من أسباب النبوّة قبل الوحي، حتىٰ أتاه جبرئيل عليه السلام من عند الله بالرسالة، وكان محمّد صلى الله عليه وآله حين جمع له النبوّة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبرئيل ويكلّمه بها قبلاً... وأمّا المحدّث فهو الذي يحدَّث فيسمع ولا يعاين ولا يرىٰ في منامه»[١]. ويرىٰ الأستاذ العلامة الطباطبائي[٢] أنّ هذا الفرق الوارد في هذه الرواية هو مضمون الآية الشريفة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾[٣].

ملاحظة: ما قيل من الفرق بين «النبيّ والرسول» خاص بشأن الرسالة الإنسانيّة، من حيث تعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس وإدارة المجتمع البشري، وتوجد مصاديق أخرىٰ للرسالة بالمعنىٰ العام، مثل رسالة الملائكة: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾[٤]، والشياطين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾[٥]، والرياح: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[٦]، و... لكن لا يعبَّر عن شيء منها اصطلاحاً بعنوان الرسل والأنبياء.

كما أنّ «الإنباء والإعلام» بحسب اللغة له معنىٰ عام وواسع، ويصدق حتىٰ علىٰ الله تعالىٰ؛ ولكن لا ينطبق علىٰ ذاته المقدّسة عنوان «الرسالة» كما لا يُطلق عليه سبحانه عنوان «النبيّ».

---

١. الكافي، ج١، ص١٧٦.

٢. انظر: تفسير الميزان، ج ١٣، ص٢٠٤، ذيل الآية المذكورة.

٣. الإسراء: ٩٥.

٤. فاطر: ١.

٥. مريم: ٨٣.

٦. الحجر: ٢٢.

وَمُختلَفَ المَلائكةِ

«مُختلَف» اسم مكان، و «الاختلاف» على وزان افتعال مشتّق من «الخلف» بمعنى الخليفة، والمكان الذي يكثر فيه المجيء والذهاب يسمى «مختَلَفاً»؛ لأنّ لازم المجيء والذهاب الدوام، بحيث إنّه لا يذهب ذاهب حتى يخلفه جاءٍ، فيكون الجائي خليفة للذاهب؛ فمعنى «مختلف الملائكة» مكان ذهاب ومجيء الملائكة. وممّا يجدر ذكره هنا أنّ «المختلَف» لا يصدق إلاّ على مكان يكثر فيه المجيء والذهاب، ولا يقال للمكان الذي يقصده أحدهم حيناً ما ثمّ يرجع منه.

مضيفوا الملائكة

يمكن بيان معنى كون الأئمّة عليهم السلام مقصداً للملائكة ضمن النقاط التالية:

١) كلّ شيء موجود في عالم الطبيعة له خزانة عند الله، وينزل منه بتقدير إلهي: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1]، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ

١. الحجر: ٢١.

وَمَا تُوعَدُونَ﴾[١]، هذا من جهة. ومن جهة أخرى: إنّ العقائد والأخلاق والأعمال الصالحة بل الأرواح المؤمنة والنفوس الصالحة تصعد إلى الله، وما لم يصل العمل أو العامل الصالح إلى الله فلن يصطبغ بالصبغة الإلهيّة، ولن يكسب خصيصة «وجه الله»، ولن يدوم إذ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٢]، وكلّ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾[٣]، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٤]. فما يتجسّم يوم القيامة من العقائد الحقّة والأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة، ويُعطى للصالحين جناناً ونعماً، هي الأمور الحاصلة عن إخلاص ووفقاً للضوابط الشرعية، والواصلة إلى الباري تعالى، والمكتسبة لخصيصة «وجه الله».

٢) ليس معنى النزول من عند الله هنا «الالقاء» من السماء والانفصال الحسّي، كما أنّه ليس المراد من الصعود إليه تعالى «القذف» نحو السماء؛ بل النزول من عنده سبحانه بمعنى «التجلّي»[٥]، والملائكة المأمورون يقومون بإيصاله إلى مقصده،

---

١ . الذاريات: ٢٢.

٢ . القصص: ٨٨.

٣ . النحل: ٩٦.

٤ . الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

٥ . للتنزّل صورتان: الأولى: التنزّل المادي، بأن ينتقل موجود مادي من مكان إلى مكان آخر، كقطرات المطر؛ فإنّ كلّ قطرة موجودة في الأعلى ليس لها وجود في الأسفل، فإذا نزلت انتفى وجودها في الأعلى، وهذا النحو من التنزّل يسمّى «التجافي». الثانية: التنزّل المعنوي، بأن يتجلّى ويظهر موجود معنوي في مكان ثانٍ بصورة أخرى مع حفظ مكانه الأول، مثل أن يفهم الإنسان مطلباً علمياً دقيقاً ويختزنه في ذهنه، ثمّ يوضحه بالاستعانة بالكلمات أو يكتبه على الورق؛ فما في ذهنه ليس ألفاظاً ولا كتابة، وليس عربيّاً ولا فارسيّاً، بل حقيقة مجردة تجلّت بصورة ألفاظ وخطوط، مع بقائها في الذهن. ومن هنا نحن نقول في محاوراتنا: ما أقوله أو ما أكتبه هو ما في ذهني عينه، علماً أنّ ما في أذهاننا مجرّد، وما هو على الورق مادي! فما هو موجود في الذهن لا يخرج منه بالكتابة والتلفظ، بل يحتفظ بمكانه الذهني ويبدو بصورة أخرى من البيان أو البنان، وهذا النحو من التنزّل يسمّى «تجلّي».

والصعود إليه تعالىٰ بمعنىٰ التكامل الوجودي، ويصل إلىٰ المقصد بواسطة دلالة الملائكة علىٰ الطريق، وهم في الحقيقة موظفو النظام الإلهي في قوس النزول والصعود: ﴿الْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾[1]، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾[2].

٣) لا تهبط الملائكة حين نزولها في الصحراء ولا في البحر، بل مهبطها القلب المبارك للإنسان الكامل في كلّ زمان، أو أنّ الإنسان الكامل نفسه يُنزل المَلَك من باطن عالم الطبيعة.

وعليه فإنّ الملائكة كافّة يردون من باب ولاية الإمام المعصوم لكلّ زمان لإنزال أيّ أمر أو الصعود بأيّ عمل أو عقيدة أو أخلاق؛ وبذلك يصلون عالم الغيب بعالم الشهود، جاء في الرواية:

«ما من ملك يهبط في أمر ما إلاّ بدأ بالإمام، فعرض ذلك عليه، وإنّ مختلَف الملائكة من عند الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ صاحب هذا الأمر»[3].

من هنا كان الأئمّة عليهم السلام أبواب الفيض الإلهي، وفي الدعاء:

«أين بابُ الله الذي منه يُؤتىٰ»[4].

وفي زيارة آل ياسين جاء الخطاب فيها إلىٰ إمام الزمان:

«السلام عليك يا باب الله»[5]،

وعلاوة علىٰ هذا، فإنّ الملائكة مؤتمرة بأمر الإنسان الكامل، تتنزّل عليه لأخذ الأمر ولمعرفة وظيفتها.

---

١ . النازعات: ٥.

٢ . الذاريات: ٤.

٣ . الكافي، ج١، ص ٣٩٤.

٤ . مفاتيح الجنان، دعاء الندبة.

٥ . مفاتيح الجنان، زيارة آل ياسين.

وبهذا يتضح أنّ الملائكة في حال مجيء وذهاب دائمين في ساحة الإنسان الكامل، فهو «مختلَف الملائكة»، وهو أيضاً بوابة الفيض الإلهي.

ملاحظتان: الأولى: من المزايا البارزة لليلة القدر نزول الملائكة فيها: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ...﴾[1]. وبالالتفات إلى ما سبق فإنّ نزول الملائكة لا ينحصر في ليلة القدر، بل هم ينزلون إلى الأرض ويصعدون دائمين للقيام بالتكاليف الموكولة إليهم، وما يميّز ليلة القدر هو النزولُ الاستثنائي الخاصّ للملائكة فيها؛ لأنّ ظاهر القرآن يفيد أنّ جميع الملائكة الموكلين بشؤون الأرض وأهلها تُنزّل تلك الليلة[2]، ويَنزل فيها أيضاً الروح، وهو جبريل أو ملَك آخر أعظم منه، وهم مأمورون أن يعرضوا في تلك الليلة على الإنسان الكامل ـ وهو الإمام المعصوم في كلّ زمان ـ كلَّ شيء مقدّر لسنة واحدة.

الثانية: لُقبت الزهراء بـ «المحدَّثة» لأنّه بعيد وفاة الرسول الأكرم ﷺ «كان جبرئيل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيّب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان عليّ يكتب ذلك؛ فهذا مصحف

---

١. القدر: ٤ ـ ٥.

٢. كلمة «الملائكة» محلاة بالألف واللام، وهما يفيدان العموم؛ لكنّ العموم فيها محدود بما يناسبه هنا، فمثلاً حينما يقال: حضر في هذا الملتقى الطبي الأخصائيون جميعاً. فليس بمعنى أنّ أخصائيي العلوم الأخرى حضروه أيضاً، بل ولا بمعنى أن أخصائيي فروع الطب المختلفة كلّهم قد شاركوا فيه أيضاً، بل بمعنى أنّ المشاركين فيه هم أخصائيوا ذلك التخصص المعيّن الذي هو محور الملتقى لا أكثر. وهنا حينما يقال: الملائكة جميعاً تنزّل إلى الأرض فالمقصود خصوص الملائكة الموكّلين بشؤون الأرض وأهلها، وأما بقية الملائكة فلا دلالة على نزولهم أو عدمه، ويجب التماس أدلة أخرى لمعرفة ذلك.

فاطمة عليها السلام»[1]. فبتحديث جبرئيل وبقيّة الملائكة لُقّبت بذلك. والتعبير بـ «كان جبرئيل يأتيها» هو نفسه معنى «الاختلاف» المعبّر به في هذه الفقرة من الزيارة.

إشارات

١ ـ صور الملائكة النازلة

تنزل الملائكة إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام في صور مختلفة،

١ . الكافي، ج١، ص٢٤١. من التّهم التي ترمى بها الشيعة القول بأنّ قرآن الشيعة يختلف عن قرآن بقية المسلمين، ويستدلّون على دعواهم هذه بمصحف فاطمة، والجواب:
أولاً: ليس من الانصاف صدور مثل هذه الفرية ممّن يرون الشيعة في المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وآله يتلون القرآن نفسه الموجود بأيدي المسلمين جميعهم، كما يُطبع هذا القرآن ذاته ويُنشر في البلاد الشيعيّة.
ثانياً: إنّ مصحف فاطمة غير القرآن، ولا سبيل إليه أصلاً لأحد سوى الأئمّة المعصومين.
ثالثاً: إنّ القول بنزول الملك على غير النبيّ، وتحدث غيره مع الملائكة، ليس شيئاً ينفرد به الشيعة، فقد روى أبوهريرة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدّثون، فإن يكُ في أمّتي أحد فإنّه عمر». وفي لفظ آخر قال: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يُكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكُ في أمّتي منهم أحد فعمر». (صحيح البخاري، ج٣، ح٣٦٨٩؛ وفي صحيح مسلم، ج٧، ص١١٥ باب فضائل عمر، روى مثل ذلك). فقد أكد هذان الحديثان بكلمة «لقد» على وجود أناس محدّثين في الأمم السابقة، وإن عبّرا فيما يرجع إلى عمر بحرف الشرط «إن». وعلى هذا فالشيعة والسنة يصحّحون مسألة سماع الملائكة والتحدّث معهم لغير النبيّ، كما وقع لمريم العذراء، فإنّها لم تتكلّم مع ملك الوحي وحسب؛ بل رأته بعينيها: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ (مريم: ١٧)، والاختلاف الموجود بين السنّة والشيعة هنا أنّ السنة يقولون: إنّ الالهامات والكلام الذي تلقّاه الخليفة الثاني أو صالحو الأمم الخالية لم يبوحوا به لأحد وأخذوه معهم؛ بينما تقول الشيعة: إنّ كريمة الرسول وابنته صلى الله عليه وآله أملت ما سمعته على زوجها عليّ بن أبي طالب وكتبه، وهو موجود بيد أبنائه المعصومين الأئمّة الطاهرين عليهم السلام، والآن هو عند الإمام ولي العصر.

فقد ينزل جبرائيل إلى رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي، كما جاء في الرواية: «إنّ جبرئيل كان يأتي نبيّنا ﷺ في صورة دحية الكلبي»[١]، وقد ينزل في صورة إنسان آخر، كما جاء في رواية عن الإمام الصادق، قال: «مرّ بأبي عليه السلام رجل وهو يطوف، فضرب بيده على منكبه، ثمّ قال: أسألك عن خصال لا يعرفهنّ غيرك... فقال: صدقت، ومضى، فقال أبي عليه السلام: هذا جبرئيل»[٢].

وقد ينزل الملك في صورة طائر، ففي الرواية أنّ الإمام الصادق ضرب بيده وسادة كانت بداره وقال للحسين بن علاء: «طال ما اتّكت عليها الملائكة وربما التقطنا من زغبها»[٣]. ومثله ما حدث لأبي حمزة الثمالي مع الإمام السجاد[٤].

وقد ورد نزول الملائكة وصعودها في الروايات مطلقاً، بدون ذكر لصورة معيّنة وكيفيّة خاصة، ولعلّ ذلك لكونها لم تكن مرئيّة حين نزولها.

ملاحظتان: الأولى: الملائكة أصناف ولها درجات متفاوتة، فالصنف المجرّد تجرّداً عقلياً تامّاً منزّهٌ عن الجناح المادي والريش الحسّي، وإذا ما ذُكر الجناح والزغب حال الكلام عنها فالمراد ظاهراً التمثّل؛ لأنّ الملك النازل بالوحي على قلب الرسول الأكرم ﷺ مصون من آثار المادة.

أجل؛ لو فُرض ملَك أرضي له نفس وبدن فمن الممكن أن يكون له أجنحة حسيّة.

والأجنحة المذكورة للملائكة في القرآن ونهج البلاغة بحاجة إلى بحث مستقلّ.

الثانية: عبارات من قبيل «نزول الملَك، رؤية الملَك، نزول الوحي، تلقّي

---

١. بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٤٣؛ ج٢٢، ص٤٠٠، ومواضع أخرى.
٢. بحار الأنور، ج١١، ص١٦٩.
٣. الكافي، ج١، ص٣٩٣.
٤. انظر: بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٥٣.

الوحي» وما شابهها ما هي إلاّ ألفاظ تنطق بها ألسنتنا، ولكنّ حقيقتها ليست منكشفة لنا؛ لأنّ هذه الأمور لا يمكن أبداً فهمها بالحواس الخمس، بل هي بحاجة إلىٰ حاسّة آخرىٰ، وهي لا توجد لدينا. ومثالنا علىٰ ذلك كمن يريد التعرّف علىٰ الألوان وقد ولد أعمىٰ! فهو لكي يدرك معنىٰ «العين المضيافة البيضاء» لا مناص من الاستعانة بالحواس الأربع؛ لذا سوف يسأل: هل تعنون بـ «البيضاء» حلو المذاق؟ ليّن؟ زكي الرائحة؟ له صوت حسن؟ فهو يجهد ليفهم هذه المسألة مستعيناً ببقيّة حواسه؛ ولكن كلّ ما يقوله ليس هو معنىٰ لون «البياض»، وإدراكه بحاجة إلىٰ حسّ آخر يفتقده الأعمىٰ.

فحقيقة رؤية الملَك وفهم حقيقة الوحي والفوارق المحتملة بين أنحاء الوحي و... غير متيسّر بالحواس الماديّة الخمس، وهي بحاجة إلىٰ آلة فهم أخرىٰ، والفاقدون لها غير قادرين علىٰ فهمها، وفهمها علىٰ حقيقتها مقدور لمالكي تلك الآلة، وهم المعصومون عليهم السلام.

٢ ـ أهداف نزول الملائكة

تنزل الملائكة لأغراض مختلفة:

فقد تنزل لعرض أعمال عباد الله، كما سيأتي ذكر ذلك.

وقد تنزل في ليلة القدر بمقادير السنة وبأمور أخرىٰ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[١].

وقد تنزل لأجل التكليم أو التأييد أو التسديد، أو لخدمة وعون الأئمّة الأطهار:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

---

١ . القدر: ٤.

مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[١].

والحديث في هذه الآية وإن كان عن إمداد الملائكة للمؤمنين؛ لكنّ الرسول الأكرم ﷺ على رأس المشمولين بالمدد.

وعندما سأل رجلٌ الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[٢]، قال: «ملكٌ، منذ أنزل الله ذلك الملَك لم يصعد إلى السماء، كان مع رسول الله ﷺ، وهو مع الأئمّة يسدّدهم»[٣]. وفي رواية قالت عمّة الإمام العسكري السيّدة حكيمة [في قصّة مولد الإمام الحجّة]: «وأتيت به نحوه، فلما مثلت بين يدي أبيه وهو على يديّ سلّم على أبيه، فتناوله الحسن عليه السلام والطير ترفرف على رأسه، فصاح بطير منها، فقال له: احمله واحفظه وردّه إلينا في كلّ أربعين يوماً. فقلت: ما هذا الطائر؟ قال: هذا روح القدس الموكّل بالأئمّة عليهم السلام، يوفّقهم ويسدّدهم ويربّيهم بالعلم»[٤].

وقد تنزل لزيارة المعصومين في قبورهم وخدمة زائريهم. قال الإمام الباقر: «أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكون الحسين إلى يوم القيامة، فلا يأتيه أحد إلاّ استقبلوه، ولا يمرض أحد إلاّ عادوه، ولا يموت أحد إلاّ شهدوه»[٥]. وجاء في رواية أخرى: «إنّ الله وكّل بقبر الحسين أربعة آلاف ملك شُعث غُبر يبكونه من طلوع الفجر إلى زوال الشمس، وإذا زالت الشمس هبط أربعة آلاف ملك وصعد

---

١. آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥.

٢. الشورى: ٥٢.

٣. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٦٠، ح٣٢.

٤. المصدر السابق، ج٥١، ص١٤.

٥. المصدر السابق، ج٤٥، ص٢٢٣.

أربعة آلاف (ملك)، فلم يزل يبكونه حتىٰ يطلع الفجر»[١].

وقد تنزل لأجل تعلّم العلوم وتلّقي التعليمات.

وخلاصة القول: إنّه«ما من ملَك يُهبطه الله في أمر ما إلاّ بدأ بالإمام فعرض ذلك عليه، وإنّ مختلف الملائكة من عند الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ صاحب هذ الأمر»[٢].

ملاحظة: بالالتفات إلىٰ ما سبق ذكره يتّضح أنّ القلب المطهّر لكلّ إمام زمان ـ الذي هو أكمل أهل زمانه ـ هو مهبط ملائكة الله، وهو منزل ضيافتهم جميعاً؛ وعليه فإنّ دقّة هداية البشريّة وإدارة نظام الخلقة في عصرنا هذا الذي نعيشه أنيطت إلى الإمام بقيّة الله صاحب الزمان، وبعهدته أيضاً ضيافة الملائكة.

٣ ـ أفضل من الملائكة

هذه العبارة من الزيارة حاكية عن أفضليّة مقام الأئمّة بالنسبة لمقام الملائكة؛ لأنّهم مضيّفو الملائكة النازلة إليهم. وبما أنّ «الملائكة» جمع محلّىٰ بالألف واللام، ولا قرينة علىٰ عهد ذهنيّ أو خارجيّ، فهو مفيد للعموم، وهذا يدلّ علىٰ أفضليّة تلك الذوات المقدّسة علىٰ الملائكة كافّة، بما فيهم أقرب المقرّبين؛ وهذا أيضاً مدلول سجود الملائكة لآدم؛ لأنّ تلك السجدة لم تكن لشخص آدم، بل سجدت له الملائكة لكونه مثالاً للإنسان الكامل، والأئمّة الأطهار عليهم السلام أبرز مصداق له[٣].

---

١ . المصدر السابق.

٢ . الكافي، ج١، ص٣٩٤.

٣ . جاء في الرواية: «... ثمّ إنّ الله تبارك وتعالىٰ خلق آدم فأودعنا صلبه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا وإكراماً، وكان سجودهم لله عزّ وجلّ عبوديّة، ولآدم إكراماً وطاعة؛ لكوننا في صلبه، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلّهم أجمعون».(بحار الأنوار، ج١٨، ص٣٤٦) وفي تتمة الحديث كلام عن إمامة النبيّ صلى الله عليه وآله للملائكة ليلة المعراج وعجز جبرائيل عن مرافقة النبيّ وتكليم الله تعالىٰ للرسول تلك الليلة العظيمة ذات المعاني الكثيرة.

ويشهد هٰذه الدعوىٰ كيفيّة جلوس جبرئيل في حضور رسول الله واستئذانه للدخول عليه، فقد«كان جبرئيل إذا أتىٰ النبيّ قعد بين يديه قعدة العبد، وكان لا يدخل حتىٰ يستأذنه»[١].

١. بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٥٦.

ومَهْبِطَ الوَحي

«مهبط» اسم مكان مشتّق من «الهبوط»، وقال بعض: إنّ الهبوط هو الاستقرار. و «النزول» هو ترك الشيء مكانه العالي والانتقال إلى جهة السفل، فهذا «الانتقال» يسمّى «نزولاً»، والاستقرار في المكان الثاني يسمّى «هبوطاً». والصواب أنّ الهبوط هو النزول نفسه[1]، وقد استعمل القرآن الكريم هذه المفردة في هذا المعنى، كما في آية: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾[2]. والفرق بينه وبين النزول أنّ ترك المبدأ مأخوذٌ في معنى «النزول» وليس مأخوذاً فيه الاستقرار في مكان آخر، ومعنى «الهبوط» مأخوذٌ فيه الاستقرار في مكان بالاضافة إلى معنى ترك المبدأ والمكان الأول[3]؛ وعليه يكون

---

١ . هبط: نزل.(المصباح المنير، مادة «هبط»).

٢ . الأعراف: ١٣.

٣ . الفرق بين الهبوط والنزول: أنّ الهبوط نزول يعقبه إقامة، ومن ثمّ قيل: هبطنا مكان كذا أي نزلناه، ومنه قوله تعالى: ﴿اهْبِطُواْ مِصْراً﴾ [البقرة: ٦١] وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً﴾ [البقرة: ٣٨] ومعناه: انزلوا الأرض للاقامة فيها، ولا يقال: «هبط الأرض» إلاّ إذا استقرّ فيها. ويقال: «نزل» وإن لم يستقرّ. (الفروق اللغوية، الفرق رقم ٢٢٤١).

معنى «مهبط الوحي» محلّ استقرار الوحي بعد نزوله من المبدأ، أي «مستقرّ الوحي».

وهنا يجدر التنبيه إلى عدد من الفوائد:

١ ـ كما أنّ «النزول» قد يحصل من مكان عال ومن مكانة عالية؛ كذلك الحال في «الهبوط».

٢ ـ تارةً يكون الهبوط كفّارةً وعذاباً كهبوط إبليس، وتارةً استخلافاً، لا طرداً من ساحة القرب الإلهي، كهبوط آدم إلى الأرض؛ حيث استتبع الاصطفاء الإلهي.

٣ ـ تارةً يكون «الهبوط» بنحو التجافي، وتارةً بنحو التجلّي، وهبوط الوحي من سنخ التجلّي لا التجافي، هذا.

والوحي يقال لغةً لكلّ إخبار خاطف خفيّ. وفهمه مقصور على المخاطَب به، ولا يعلم به الآخرون؛ اللهمّ إلاّ أن يخبرهم المخاطَبُ بمحتواه، وقد استعمل القرآن الكريم مادّة «الوحي» في معان مختلفة، وسيأتي الكلام في ذلك في بحث الإشارات.

تمايز الأنبياء عن غيرهم

إنّ الأنبياء بحسب الرؤية القرآنية بشرٌ من حيث البدن ولوازمه، ولهم الخصائص البشريّة نفسها الموجودة عند غيرهم، ويحيون كما يحيون؛ فهم يأكلون ويلبسون ويمشون وينامون، فالرسولُ ﴿**بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ**﴾[1]. وكانت إحدى اعتراضات مخالفي الأنبياء أن ﴿**قَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ**﴾[2]. فهو كواحد منّا نحن البشر! وينبغي أن يكون ملكاً لكي نؤمن به.

---

١ . المؤمنون: ٣٣.

٢ . الفرقان: ٧.

ومن البيّن أنّ هذا الاعتراض كان مجرد تعلّل وافتعال للحجج؛ لأنّه إن لم يكن الأنبياء من سنخ البشر، وكانوا لا يستشعرون العواطف والغرائز والميول والحالات الإنسانيّة؛ فكيف يتسنّى لهم أمر الإنسان ونهيه وأن يكونوا أسوةً للبشر؟!.

إنّ الميزة التي يمتاز بها الأنبياء عن غيرهم كامنة في «الروح» وشؤونها؛ لأنّ عليها ينزل الوحي، وهو ما ليس لسواهم. يقول سبحانه لنبيّه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[1]؛ فتمايز الأنبياء عن غيرهم هو بتلقي الوحي.

أنحاء الوحي

الوحي المذكور في هذه الفقرة من الزيارة قد يراد به الوحي التشريعي، الذي لا ينزل إلاّ على الرسل والأنبياء. وبما أنّ أهل بيت النبيّ الأكرم بمنزلة نفسه لآية: ﴿وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾[2] فبيتهم أيضاً سيكون مهبطاً ومستقرّاً للوحي التشريعيّ.

وفي كلام للإمام الحسين لرجل كوفي التقاه في طريقه إلى العراق، إشارة إلى هذا القسم من الوحي، قال الراوي: لقي رجلٌ الحسين بن عليّ عليهما السلام بالثعلبيّة وهو يريد كربلا، فدخل عليه فسلّم عليه، فقال له الحسين عليه السلام: من أيّ البلدان أنت؟ فقال: من أهل الكوفة. قال: «يا أخا أهل الكوفة! أما والله لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرئيل من دارنا ونزوله على جدّي»[3].

وقد يراد به الأعمّ من الوحي التشريعيّ، فيشمل الوحي التسديديّ[4] والإخبار

١ . الكهف: ١١٠.

٢ . آل عمران: ٦١.

٣ . اصول الكافي، ج١، ص٣٩٩، باب أنّ مستقى العلم من بيت آل محمد.

٤ . المقصود من «الوحي التسديدي» الوحي النازل على الأئمّة للأوامر الشخصيّة الخاصة بهم والإرشاد في القضايا الاجتماعيّة، والإخبار عن الوقائع المستقبليّة، أو لأجل الطمأنينة والسكينة و... بما يسدّدهم ويقوّيهم، وليس لأجل تبيين أحكام الشريعة العامّة.

عن الغيب، وشبه ذلك، وهذا الوحي ينزل على المعصومين كلّهم، وليس مختصّاً بالرسول الأكرم ﷺ، وفيما يلي أمثلة للإخبار الغيبي النازل عليهم:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «تُعرض عليهم أعمال العباد كلّ يوم إلى يوم القيامة»[١].

وقال أيضاً: «تُعرض على رسول الله ﷺ أعمال العباد كلّ صباح ومساء، أبرارها وفجّارها، فاحذروا»[٢].

ولا شكّ في عرض أخبار ماضي العالم ومستقبله ونوايا الناس وعزائمهم ذات الصلة بأعمالهم في ضمن عرض أعمال عباد الله تعالى.

وظاهر هذه الطائفة من الروايات عدم اختصاص عرض الأعمال بالإمام الحيّ، بل تُعرض على الأئمّة كلّهم، وإن كان من المحتمل وجود خصوصيّة في العرض على الإمام الحيّ.

ليلة القدر والنزول الاستثنائي للملائكة

أحد المصاديق البارزة لنزول الوحي وتنزّل الملائكة على الأئمّة الأطهار عليهم السلام ما يقع ليلة القدر؛ ومن هنا قالوا لشيعتهم: «يا معشر الشيعة! خاصموا بسورة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ تفلجوا، فوالله إنّها لحجّة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله ﷺ، وإنّها لسيّدة دينكم، وإنّها لغاية علمنا...»[٣]. وقد علّموهم الاستدلال بها بأن قولوا لمنكري الإمامة: هل تكون ليلة القدر بعد وفاة النبيّ الأكرم أو لا؟ فسيقولون: نعم تكون. فقولوا: إذا كانت ليلة القدر تكون كلّ سنة وتتنزّل فيها الملائكة، وينزلون فيها بأسرار كلّ أمر، فعلى مَن تتنزّل؟ ولِمَ تتنزّل بكلّ أمر؟ وهل ينزلون بذلك إلى

---

١. بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٢٦. نقلاً عن بصائر الدرجات، ص٤٤٧.

٢. المصدر السابق، ج٢٣، ص٣٢٦.

٣. أصول الكافي، ج١، ص٢٤٩، ح٦.

أحدٍ ما أو يعودون بها؟ فإن كانوا يعودون بها فلمَ نزلوا بها؟ وإن نزلوا بها على أحد فمن هو؟ فلا مفرّ لهم من القول: هو الإنسان الكامل في كلّ زمان، وهو وليّ عصره، وهو مهبط الملائكة، وهي تتنزّل عليه بأسرار السنة[1].

ونزول الملائكة ليلة القدر وتشرّفهم بالمثول بين يدي الإمام المعصوم يبلغ من الكثرة أن يقول الإمام الباقر في الرواية: «إنّ الملائكة يطوفون بنا فيها»[2]. فبنزول هذا العدد الغفير من الملائكة على الأئمّة المعصومين عليهم السلام وتنزّلهم عليهم بالعلوم الجمّة، يكونون بلا ريب «مختلف الملائكة» و«مهبط الوحي» و«خزّان العلم»[3].

إشارات

١ ـ أنواع الوحي في القرآن الكريم

سبق وأن أشرنا إلى اختلاف الاستعمالات القرآنية لكلمة «الوحي» بمعناها

---

١ . عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان علي عليه السلام كثيراً ما يقول: [ما] اجتمع التيمي والعدويّ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقرأ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ بتخشّع وبكاء فيقولان: ما أشدّ رقتك لهذه السورة؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: لما رأت عيني ووعى قلبي، ولما يرى قلب هذا من بعدي، فيقولان: وما الذي رأيت وما الذي يرى؟ قال: فيكتب لهما في التراب ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، قال: ثمّ يقول: هل بقي شيء بعد قوله عزّ وجلّ: ﴿كُلِّ أَمْرٍ﴾؟ فيقولان: لا، فيقول: هل تعلمان من المنزل إليه بذلك؟ فيقولان: أنت يا رسول الله، فيقول: نعم، فيقول: هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: فهل ينزل ذلك الأمر فيها؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: إلى من؟ فيقولان: لا ندري، فيأخذ برأسي ويقول: إن لم تدريا فادريا، هو هذا من بعدي قال: فإن كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من شدّة ما يداخلهما من الرعب». (الكافي، ج١، ص٢٤٩، ح٥).

٢ . نور الثقلين، ج٥، ص٦٣٩، ح١٠٥.

٣ . سيأتي شرح هذه الفقرة.

اللغوي، ونذكر هنا أمثلة لذلك:

أ) ما ينزل على الأنبياء: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[١].

ب) إلهام الأمور الفطريّة والغريزيّة، كما جاء في الحيوانات: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾[٢].

ج) النفحات الرحمانيّة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾[٣]

د) النفثات الشيطانيّة: ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ﴾[٤].

هـ) الاشارات والرموز[٥] والكنايات، وهي المعاني اللغويّة الأصليّة، قال تعالى في قصّة زكريا: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[٦].

والمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة هو القسم الأول، وهو ما ينزل على الأنبياء من حِكم وأحكام وأوامر إلهيّة و....

٢ ـ ارتباط الوحي كمّاً وكيفاً بمقام النبيّ

لا ريب في تفاضل رتب الأنبياء: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٧]، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[٨].

وبهذا الاعتبار يختلف كمّاً وكيفاً الوحيُ النازل عليهم، ففي قوله تعالى:

١. العنكبوت: ٤٥.

٢. النحل: ٦٨.

٣. القصص: ٧.

٤. الأنعام: ١٢١.

٥. الرمز: الصوت الخفيّ باللسان والإيماء بالحواجب وغيرها. (المحيط في اللغة).

٦. مريم: ١١.

٧. البقرة: ٢٥٣.

٨. الإسراء: ٥٥.

﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[١] قالوا: وحي مشافهة[٢].

وقالوا أيضاً: إنّ آخر آيتين من سورة البقرة كانتا مشافهة من الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ ليلة أسرىٰ به إلىٰ السماء[٣].

وخاتمة آيات سورة الشورىٰ تتضمن تثليث درجات الوحي الإلهي، وقد بحثناها مفصلاً في كتاب «القرآن في القرآن».

٣ـ نزول جبرئيل

نزل جبرئيل في آخر العمر الشريف للرسول الأكرم ﷺ وقال: «هذا آخر نزولي إلىٰ الدنيا، إنّما كنت أنت حاجتي منها».[٤]

وقد يقال هنا: مع تصريح جبرئيل هذا، كيف يمكن تصديق نزول الوحي علىٰ الأئمّة الأطهار؟ وكيف يصحّ مخاطبتهم بأنّكم مهبط الوحي؟

وجواب هذا السؤال في نقاط ثلاث:

الأولى: الوحي ـ بالمعنىٰ المراد هنا ـ ليس إنزاله منحصراً في جبرئيل، بل لغيره من الملائكة النزول به أيضاً، فانقطاع نزول جبرئيل بوفاة الرسول الأكرم ﷺ لا يعني انتفاء الوحي بالمعنىٰ المراد به هنا.

الثانية: لم يكن جبرئيل يعني بكلامه عدم النزول أبداً، وانقطاعه عن أهل الأرض مطلقاً، فإنّ هذا غير ممكن؛ لأنّه أحد وسائط الفيض، ومادامت الدنيا موجودة فالفيض الإلهي ووسائطه باقيان أيضاً، بل المراد أنّه لن ينزل لأجل إبلاغ

---

١ . النجم: ١٠.

٢ . تفسير القمي، ج٢، ص٣٣٤، في ذيل الآية المذكورة.

٣ . المصدر السابق، ج١، ص٩٥، ذيل آخر آية من سورة البقرة.

٤ . بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٢٢ و ٥٢٩.

الرسالة والنبوّة وإلقاء الوحي التشريعي. وهذا ما جاء صريحاً على لسان أمير المؤمنين حين تغسيله البدن المطهر لرسول الله، فقال مخاطباً إياه:

«بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ»[١].

فالإمام صرّح بانقطاع النبوّة والوحيّ الخاص بالرسالة، ولم ينفِ أصل نزول جبرئيل.

الثالثة: قال تعالىٰ في سورة القدر: ﴿**تَنزَّلُ الْمَلائِكَةُ**﴾، وذكرنا فيما سبق أنّ القدر المتيقن منها هو نزول الملائكة الموكلين بشؤون الأرض وأهلها، وأمّا نزول الملائكة الحاملين للعرش وغيرهم فلا بدّ من التماس أدلة أخرىٰ علىٰ نزولهم، وجبرئيل من الملائكة المقرّبين، وذو وظيفة أرضيّة، وهو مطاع لدىٰ الملائكة الآخرين؛ فهو إذن من الملائكة النازلين ليلة القدر. وعلاوة علىٰ هذا، قال تعالىٰ: ﴿**وَالرُّوحُ**﴾ و «الروح» إمّا هو جبرئيل نفسه أو ملك آخر أعظم منه، فإن يكنه ثبت ما قلنا، وإن لا فكذلك أيضاً! لأنّه إذا نزل ما هو أعظم منه فسوف ينزل هو من باب أولىٰ.

٤ ـ الوحي وتعليم الإنسان الكامل

قد يقال: نحن نعتقد أنّ النبيّ و الأئمّة عليهم السلام معلمو الملائكة؛ والحال أنّ لازم نزول الوحي أنّ الملائكة هي معلّمو الأئمّة، وهذا أيضاً مدلول الحديث«لولا أنّا نزداد لأنفدنا»[٢]؟

وفي الجواب يقال:

أولاً: ليس معنىٰ الوحي إلىٰ أحد أنّه المعلَّم وملقي الوحي هو المعلِّم؛ إذ إنّ

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٥.

٢ . الكافي، ج١، باب لولا أن الأئمة عليهم السلام يزدادون لنفد ما عندهم، ح٢.

وظيفة جبرئيل ومن معه من الملائكة هي نقل سلسلة حقائق من مرحلة إلى مرحلة أخرى عبر الإيحاء، لا أكثر، فهم ـ في مسألة إلقاء الوحي ـ أشبه بالمراسل الذي يدوّن ما يراه من حوادث ثمّ يضعه بين يدي المحلّل الخبير، وهو بدوره يقوم بدراسة ذلك الخبر وتحليله؛ ليخرج بصورة واضحة عن خباياه وملابساته وحقيقة ما وراءه، الأمر الذي يجهله المراسل، فالمحلِّل المتخصّص لا يقال عنه إنّه تلميذ للمراسل، وإن كان ما توّصل إليه من معلومات ونتائج كان بواسطة خبر المراسل.

وببيان آخر: معلِّم الأنبياء الحقيقي هو الذات المقدّسة للباري تعالى، وجبرئيل وسائر الملائكة يأتمرون بأمره، فهم واسطة في التعليم، وليسوا هم المعلِّم الحقيقي. وهذا ما يقال أيضاً في شأن النبيّ موسى والخضر؛ إذ إنّ اتبّاع موسى له ليتعلّم منه ما يرشُدُ به[1] لا يدلّ على أفضليّة الخضر عليه؛ لأنّ موسى عليه السلام كان من الرسل أولي العزم. وكذا الكلام في شأن إخبار الهدهد النبيّ سليمان بخبر مملكة سبأ[2]، وعظة النملة في حديثها معه[3]، فذلك لا يدلّ على أفضليّة تلك الموجودات.

---

١ . انظر: الكهف: ٦٥، وما بعدها.

٢ . في قوله تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، النمل: ٢٢ وما بعدها.

٣ . في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ قال: لما قالت النملة: ﴿يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ حملت الريح صوت النملة إلى سليمان وهو مارّ في الهواء، والريح قد حملته فوقف، وقال: عليّ بالنملة، فلمّا أتي بها قال سليمان: يا أيّتها النملة! أما علمتِ أنّي نبيّ الله وأنّي لا أظلم أحداً؟ قالت النملة: بلى، قال سليمان: فلمَ حذرتيهم ظلمي؟ وقلتِ: يأيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ؟ قالت النملة: خشيت أن ينظروا إلى زينتك فيفتتنوا بها فيبعدوا عن الله تعالى ذكره. ثمّ قالت النملة: أنت أكبر أم أبوك داود؟ قال سليمان عليه السلام: بل أبي داود، قالت النملة: فلم زيد في حروف اسمك حرف على حروف اسم أبيك داود؟ قال سليمان: ما لي بهذا علم، قالت النملة: لأنّ أباك داود داوى جرحه بودّ فسمّي داود، وأنت يا سليمان أرجو أن تلحق بأبيك. ثمّ قالت النملة: هل تدري لِمَ سُخّرت

ثانياً: إنّ كل فيض ينزل من عند الباري تعالىٰ للممكنات هـو بواسـطة الأئمّـة الأطهار، الذين هم البشر الكمّل، بلا فرق في ذلك بـين أنـواع الفيـوض، ولا بـين المفاض عليه من إنسان وملَك وجـنّ وحيـوان و... والـوحي الإلهـي ـ وهـو فيض ربانيّ خاص ـ ينزل أيضاً بواسطة تلك الذوات المقدّسة، وملائكة الوحي تكتسب الفيض منهم عبر جنبتهم اللاهوتية، وتلقيه إلـيهم عـبر جنبـتهم الناسـوتيّة. فحـقّ الكلام هنا: إنّ تلـك الـذوات النورانيّـة لا تتلّقـىٰ شـيئاً مـن الخـارج، بـل بعـض «حقيقتها» يدير بعضه الآخر، كما هو الحال في القوّة العاقلة في عامّـة النـاس، فإنّهـا تدير وتدبّر القوّة الواهمة، بمعنىٰ أنّ إحدىٰ جنبات ذواتهم تدير جنبة أخرىٰ منهـا، فكلّ شيء لديهم هو منهم وراجع إليهم، لا من الخارج؛ وعلىٰ هـذا فلـيس الـوحي لهم إلاّ منهم وإليهم.

٥ ـ ضرورة الواسطة في نزول الوحي

وبيان ذلك في نقاط:

١ . الإنسان الكامل كونٌ جامع مستجمع لكافة النشئات الوجوديّة، وهو فـوق كلّ موجـودات الله سـبحانه، تـدرّج مـن مرحلـة «الوجـود النـاقص» إلىٰ مرحلـة «المكتفي» إلىٰ مرحلة «الفوقيّة التامّة».

والمراد من المرحلة الناقصة للإنسان الكامل وجوده العنصريّ الماديّ، المحـدود بالقوانين الطبيعيّة والمحكوم بها؛ ولذا هو يمرض، وتغيـب الأشـياء عـن ناظريـه، ويحتاج إلىٰ الطعام والشراب وبقيّة الاحتياجات الطبيعيّة.

⬅ لك الريح من بين سائر المملكة؟ قال سليمان: ما لي بهذا علـم، قالـت النملـة: يعنـي عـزّ وجـلّ بذلك: لو سخّرت لك جميع المملكة كما سخّرت لك هذه الريح لكان زوالها مـن يـدك كـزوال الريح، فحينئذ تبسّم ضـاحكاً مـن قولهـا. (عيـون أخبـار الرضـا، بـاب في ذكـر مـا جـاء عـن الرضا عليه السلام من العلل، ح٨).

٢. في مرحلة «التمام المحض» لا يكون لأيّ ملَك حضور؛ لأنّها مقام الصادر الأول أو الظاهر الأول، أي «مقام الإنسان الكامل» وهو الواسطة بين الواجب تعالى والممكنات، وللملائكة حضور في مرحلة «المكتفي»، وهي المرحلة الواسطة بين مرحلتي «الوجود الناقص» و«التمام المحض»، وبعهدة بعض هذا الفريق من الملائكة إبلاغ الوحي.

٣. النظم الخاص لعالم الوجود يقتضي أن يتلقّى الإنسان الكامل العلوم والحِكم والأحكام من ذات الباري المقدّسة، ويتنزّل بها، لتتلقاها منه الملائكةُ الحاضرة في مرحلة «المكتفي والتامّ غير المحض» والتي هي (الملائكة) مصاحبة للإنسان الكامل في هذه المرحلة، بل شأن من شؤونه في توسّطه بين مرحلتي «الناقص والمحض التامّ»، ومن ثمَّ تقوم بالقائه في قلب الإنسان الكامل وهو بمرحلة «المكتفي»: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[1]. بعد ذلك ـ وبواسطة تلك الملائكة ذاتها أو غيرها «بالتجلّي نفسه أو بتجلٍّ أنزل» ـ ينتقل الوحي من مرحلة «المكتفي» ليجري على اللسان الطاهر للإنسان الكامل في مرحلته الطبيعيّة، وفي المرحلة التالية يصل الوحي من لسانه إلى مستمعيه بواسطة الملائكة الموكّلين أيضاً. وفي هذه المراحل كلّها تحيط ملائكة كثيرة بالوحي الإلهي؛ لكي يصل إلى المخاطبين به كما هو، مصوناً من أيّ تحريف وعبث:

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾[2]، ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[3].

---

١. الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٢. الجن: ٢٧ ـ ٢٨.

٣. عبس: ١٥ ـ ١٦.

إذن؛ ملك الوحي ليس واسطة غريبة، بحيث يكون هبوطه وصعوده بمنأىٰ عن ساحة وجود الإنسان الكامل، بل هو شأن من شؤونه، وهو وإن كان ذا وجود عينيّ ومتحصلاً خارج الذهن، إلاّ أنّ وجوده ببركة وجود الإنسان الكامل، وبدلالة الخليفة الإلهي يهبط ويصعد، وبهدايته يتلقّىٰ الوحي الإلهي ويبلّغه.

إيضاح: معنىٰ أنّ الملك شأنٌ وجوديّ للإنسان الكامل هو أنّ البشر غير الكاملين يستطيعون بمحض الإرادة تصور وجود أو عدم صور لأشياء خارجيّة في أذهانهم، بحيث تكون الصور الذهنيّة حدوثاً وبقاءً رهن إرادتهم، فاذا ما انتفت الإرادة انعدمت الصور؛ ولكنّ تلك الأشياء الخارجيّة لها وجودها المستقل والمنفصل عن الذهن، ووجودها وعدمها غير منوط بإرادة الإنسان وذهنه.

بينما في الجنّة يكون الوجود الخارجيّ للأشياء رهن إرادة أهلها، والمتنعّم بالجنّة يستطيع إيجاد الشجر والنهر، وله أن يقطف أيّ فاكهة من أيّ شجرة أراد. قال تعالىٰ في شأن أصحاب الجنّة: ﴿**يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾[1]، وقال أمين الإسلام الطبرسي في تفسير هذه الآية: «فاذا أراد المؤمن أن يجري نهراً خطّ خطّاً فينبع الماء من ذلك الموضع ويجري بغير تعب»[2].

وقال المعلّم العلامة الطباطبائي في ذلك: «ينبغي أن يحمل تفجيرهم العين علىٰ إرادتهم جريانها؛ لأنّ نعم الجنّة لا تحتاج في تحقّقها والتنعّم بها إلىٰ أزيد من مشيّة أهلها. قال تعالىٰ: ﴿**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ**﴾»[3].

وفي كلامه ترقٍّ ليس في كلام المرحوم أمين الإسلام؛ لأنّ الطبرسي ذكر الحركة الجسميّة ـ وإن كانت بقدر خطّ خطٍ – شرطاً لنيل النعمة؛ بينما اكتفىٰ المرحوم

---

١ . الدهر: ٦.

٢ . مجمع البيان، ج٩ ـ ١٠، ص٦١٦.

٣ . الميزان، ج٢٠، ص١٢٥.

المعلّم بالارادة في ذلك. وبهذا يمكن القول إنّ وجود تلك النعم من شؤون أصحاب الجنّة؛ لأنّه لولا استمرار إرادتهم لانعدمت.

والعلاقة بين الإنسان الكامل ـ وهو الصادر الأول أو الظاهر الأول، وهو المقدّم على كلّ موجودات عالم الإمكان ـ وبين الملك الموكّل بإبلاغ الوحي وسائر الملائكة، من قبيل العلاقة الموجودة بين أصحاب الجنّة وما يوجدونه من شجر ونهر، بمعنى أنّ الإنسان الكامل يستطيع خلق الملَك وإدامة وجوده وإنزاله و... فهو بهذا المعنى شأن من شؤونه، وهذا ما نجده في قصة النبي عيسى عليه‌السلام حينما خلق بإرادته الطير، وأدام حياته إلى وقت ما يشاء، كما قال تعالى:

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾[1].

فبعض ما يفعله أصحاب الجنّة في جنانهم بإرادتهم يستطيع الإنسان الكامل فعله بإرادته في هذه الدنيا، هذا.

وليعلم أنّ إرادة أصحاب الجنّة والبشر الكمّل تابعة للإذن الإلهي، وفي قول المسيح تصريح بذلك، فقال: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾.

٦ ـ الحياء عصمة أخلاقيّة

قال سبحانه في كتابه الكريم:

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقال الإمام الصادق عليه‌السلام: «إيّانا عنى»[3].

---

١ . آل عمران: ٤٩.

٢ . التوبة: ١٠٥.

٣ . تفسير نور الثقلين، ج٢، في ذيل الآية المذكورة؛ بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٥٣، باب عرض الأعمال عليهم.

وبهذا تكون أعمالنا كلّها مشهودة لهم، وهم إمّا يسترّون بها أو يستاؤون منها، وليس هذا وحسب؛ بل هم يشهدون يوم القيامة بما رأوا. قال الإمام الصادق عليه السلام: ما لكم تسوؤن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال له رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: «أما تعلمون أنّ أعمالكم تُعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤا رسول الله صلى الله عليه وآله وسرّوه»[١].

وعن داود الرقّي، قال: كنتُ جالساً عند أبي عبد الله عليه السلام، إذ قال لي مبتدئاً من قبل نفسه: يا داود! لقد عُرضت عليّ أعمالكم يوم الخميس، فرأيت فيما عُرض عليّ من عملك صلتك لابن عمّك فلان، فسرّني ذلك. إنّي علمت أنّ صلتك له أسرع لفناء عمره وقطع أجله.

قال داود: وكان لي ابن عمّ معاند خبيث، بلغني عنه وعن عياله سوء حاله، فصككت له نفقة قبل خروجي إلى مكّة، فلمّا صرت بالمدينة أخبرني أبو عبد الله عليه السلام بذلك[٢].

وعن عبد الله بن أبان، قال: قلت للرضا عليه السلام: ادعُ الله لي ولأهل بيتي، قال: أو لست أفعلُ؟! والله إنّ أعمالكم لتُعرض عليّ في كلّ يوم وليلة. فاستعظمت ذلك، فقال الإمام: أما تقرأ كتاب الله: ﴿**قُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[٣].

تدلّ هذه الروايات على أنّ أهل بيت العصمة والطهارة يسترّون بالأعمال الصالحة، وليس هذا وحسب؛ بل ويدعون للصالحين.

---

١. بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٤٩؛ نور الثقلين، ج٢، ص٢٦٣.

٢. المصدر السابق، ج٢٣، ص٣٣٩.

٣. المصدر السابق، ج٢٣، ص٣٤٧.

ومن مجموع الآية المذكورة وهذه الروايات ـ وهي أخوات كثيرات ـ نستنبط نزول الأخبار الغيبيّة على الأئمّة الأطهار.

وممّا يجدر الالتفات إليه في الآية المذكورة هو أنّ القرآن الكريم يعتبر «إحياء روح الحياء» ـ وقبل أيّ شيء آخر ـ الركيزة الأساس في مسار التربية والتزكية. وتوضيح ذلك:

مع أنّ كتاب الله تعالى رغّب بعضاً في الجنّة وأرهب بعضاً آخر بالنار، ولكن دائماً ما يكون التخويف من جهنّم أشدّ تأثيراً من التشويق إلى الجنّة؛ ولهذا تجد الروايات الواردة في فضل صلاة الليل وصيام شهري رجب وشعبان كثيرة، ولعلّها لا تقلّ عن روايات فضل صيام شهر رمضان؛ ولكن مع ذلك لا تجد من يصوم ذينك الشهرين ومن يحافظ على صلاة الليل إلا القليل، والسرّ في ذلك أنّ لسان روايات هذه الأعمال لسان ترغيب، بينما لسان روايات صيام شهر رمضان لسان تخويف وتحذير؛ ولذا رجّح القرآن الكريم كفّة التخويف من النار على كفّة التشويق إلى الجنّة.

وممّا ينبغي معرفته هنا أنّ جهنّم ليست هي «الدواء الأول للجميع»؛ لهذا لا يمكن إصلاح كلّ الناس بهذه الوصفة الطبيّة، وحتى إذا أمكن ذلك فهو غير صحيح، والصحيح أنّه يجب ابتداءً ـ في أول مراحل الهداية وأواسط مراحل التربية ـ خلق حالة الحفظ النفسي والتحصين الداخلي للفرد لمقاومة الذنب، كما هو الحال في الأمراض البدنيّة؛ إذ إنّ الجهد الأولي ينصبّ على التوقّي من الآفات باستعمال اللقاحات المضادة لها، وإذا ما أصيب البدن بالمرض عولج أولاً بالدواء والغذاء والرياضة وغير ذلك، فإن لم يشفَ عولج بالجراحة وبتر العضو المريض، والمثل

القائل «آخر الدواء الكيّ»[1] يُقصد به أسقام البدن.

لهذا نجد أنّ أوّل درس لذات الربّ المقدّسة هو درس «الحياء والعفّة»، فقال تعالى في أول سورة نازلة على رسول الإسلام الكريم: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾[2].

لا عاقل يقترف الذنب بمرأى من صبيّ مميز، إلاّ أن يراه شريكاً له فيه، وهذا التحرّز ناشئ من الحياء والعفّة، وهما يعدّان من أسباب العصمة الأخلاقيّة الاجتماعيّة. يقول جامي في شعره:

حينما تهمّ بفعل المعصية...
وترى طفلاً يراك من بعيد...
يعتريك الخجل أن تقدم على الذنب...
ويعزّ عليك أن تمزّق حجاب عصمتك...
فلتخجل فانّ إله العالم...
عالم خبير بالأسرار والخفايا...
هو يراك دوماً وفي كلّ مكان...
وأنت تهمّ أن تعصي بمحضره؟

والآية المباركة في سورة التوبة حينما تقرّر رقابة وشهود الله ورسوله والمؤمنين؛ فإنّها بصدد إحياء روح «الحياء»، فإنّ الإنسان الذي يأبى أن يذنب بمرأى من صبيّ لا يجدر به أبداً أن يذنب بمرأى الله تعالى والرسول والأئمّة.

---

١ . هذه الجملة مثل يضرب، ولها أصل في الروايات، فقد جاء في الرواية: «طبّ العرب في سبعة: شرطة الحجامة، والحقنة، والحمام، والسعوط، والقيء، وشربة العسل، وآخر الدواء الكيّ». (بحار الأنوار، ج٥٩، ص١١٨).

٢ . العلق: ١٤.

قال الإمام الصادق في مسألة الحياء من رسول الله:

«إنّ أعمال العباد تُعرض على رسول الله ﷺ كلّ صباح، أبرارها وفجّارها، فاحذروا فليستحي أحدكم أن يُعرض على نبيّه العمل القبيح»[1].

ونتيجة الكلام: إنّ شهود الأئمّة لأعمال العباد نوع وحي وإخبار غيبي لهم، وإن لم يرد في الآية المذكورة[2] ذكر للفظ «الوحي»؛ لأنّ عرض الأعمال عليهم إن كان بواسطة الملائكة الكرام الكاتبين الموكّلين بكتابة الأعمال أو بواسطة ملائكة غيرهم؛ فهو نوع من الوحي. أجل؛ الإحاطة الحضوريّة لروح الإنسان الكامل بالأمور الفرديّة والاجتماعيّة ليست من الوحي في شيء.

١ . بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٤٠، ح ١٤.

٢ . التوبة: ١٠٥.

ومَعدنَ الرَّحمَةِ

كلمة «معدن» مشتقّة من المدة «عدْن» على وزان «متْن»، بمعنى الاستقرار مع إلفة وبهجة وحبور. فلا أثر للنفور والإكراه والمقت لا في المستقِرّ ولا عند المستقَرّ فيه، وسميّت الجنان بـ «جنّات عدن» لأنّها سكن أصحاب الجنّة من جهة ﴿مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾[1]، ولأنّ الاستقرار بها عن رغبة فيها وشوق إليها من جهة أخرى.

وكلمة «رحمة» في اللغة بمعنى الرقّة والرأفة واللطف، والرفق والعطف والحبّ والشفقة، والتحنّن والمواساة، وأمثال ذلك، والحقّ أنّ هذه المعاني مقدمات تسبق الرحمة؛ لأنّ المرء حينما يشهد مشهداً مؤلماً ومروّعاً يتأثر به، وعلى إثر هذا التأثر النفسيّ يبدي التعاطف والرأفة، ويبذل للمصاب المتألم المواساة والعون، هذه المواساة والعون تسمّى «الرحمة».

---

1. التوبة: ٧٢.

وإذا ما أضيفت «الرحمة» إلى الله تعالى فهي بمعنى «البذل والتفضّل والعطف»، ولا تضاف إليه تعالى الرقّة وغيرها من المقدمات؛ لأنّها انفعالات نفسيّة.

والمعنى الجامع لـ «الرحمة» الذي يصحّ نسبته إلى الله وإلى مخلوقه معاً هو «الإعطاء والإفاضة لقضاء حاجة المحتاجين»، فكلّ نعمة من نعم الله غير المتناهية؛ كالرسالة والإمامة والشريعة والكتاب وأمثالها ـ ممّا له أثر في هداية الانسان ـ مصداقٌ للرحمة الإلهيّة.

ينابيع الرحمة

أئمة أهل البيت عليهم السلام مظاهر تامّة لمن هو ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[1] وورثة عن هو ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]، فينابيع الرحمة تفيض في بيوتهم ومنها تجري إلى سواهم، ومن مدرستهم يجب أن نتعلّم دروس الرحمة والعطف والصفح والمحبّة؛ لأنّ إحسان وكرم الناس لبعضهم البعض مقرون عادةً بتوّقع الردّ بالمثل والشكر و... لكن رحمة أهل البيت وتفضلهم خالص لله تعالى، وغير مقرون بانتظار المثل والشكر والعرفان من أيّ أحد، فكما أنّ الله سبحانه برأ برحمته الواسعة الموجودات وأمدّها بحاجياتها، ولا ينتظر من أحد جزاءً ولاشكوراً، كذلك هم أهل البيت؛ لأنّهم مظاهر رحمة الله الواسعة، يقضون الحوائج الماديّة والمعنويّة لمخلوقاته، ولا يبتغون من أحد جزاءً شخصياً ولا شكوراً؛ فشعارهم في الرسالة هو: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[3]، وفي الإطعام والإحسان هو: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾[4].

١. الأنعام: ١٤٧.
٢. الأنبياء: ١٠٧.
٣. الأنعام: ٩٠.
٤. الانسان: ٩.

فهم كما يعبدون «حبّاً لله»[١] فعالهم كلّها أيضاً «حبّاً لله» لا غير.

أجر الرسالة

إنّ ما يُذكر من أمر المودّة في القربى وأنّها أجر الرسالة، يعود نفعه مباشرة إلى الناس أنفسهم؛ لأنّهم عليهم السلام مصابيح الهداية[٢] وسفن نجاة الأمّة[٣]. والمحبّ لهم هو فقط من يحظى بالإفادة من نورهم والركوب في سفينتهم؛ وأمّا من لا يودّهم ولا شأن له بهم فهو لا يستفيد من نورهم، بل ويسعى جاهداً في إطفاء تلك الأنوار الخالدة! فالمودّة لقربى الرسول ليست أجراً شخصيّاً للرسالة، بل هي أرضيّة لتؤتي الرسالة ثمارها. كما أنّ أهل بيت النبيّ متأسّون به صلى الله عليه وآله، فلا يطمعون في شيء ممّا عند الناس أجراً وعرفاناً لهم، وهذا حال الأنبياء كافّة، بصريح القرآن الكريم.

شعر:

كلّ نبيّ يقول لقومه وحواريه...

لست أريد منكم أجراً لرسالتي

فأنا الحقّ دليلي وأنتم مبتاعوه...

وقد أعطاني الحقّ حقّي، أعطاني الدارين.

هم يطلبون أجرهم وثوابهم من الله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ

---

١. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك». (بحار الأنوار، ج٤١، ص١٤).

٢. قال الرسول: «إنّ الحسين بن علي... مصباح هدى وسفينة نجاة». (بحار الأنوار، ج٣٦، ص٢٠٥).

٣. قال الرسول: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق...». (بحار الأنوار، ج٢٣، ص ١٠٥).

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١]، وما هم كالعبيد همّهم النجاة من النار، ولا كالتجّار همّهم الفوز بالجنّة، بل يملأ قلوبهم ووجودهم بأكمله حبُّ الله والوله به، وهكذا يناجون محبوبهم:

«فلئن صيّرتني للعقوبات مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أهل بلائك، وفرّقت بيني وبين أحبائك وأوليائك؛ فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي، صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟ وهبني صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟»[٢].

ويؤكد تعالى حقيّة هذه الدعوى ويصدّقها بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[٣] لا ابتغاء الجنّة ولا خلاصاً من النار، فليس أجرهم سوى «أجر اللقاء»، لا دخول الجنّة المضافة إلى الله في آية «وَادْخُلِي جَنَّتِي».

والحاصل: إنّ كافّة أعمال أهل هذا البيت، سواء ذات الطابع الشخصيّ أم الاجتماعيّ، هي كرم لا منّة معه، ولا مطمع لهم إلاّ في ثواب الله تبارك وتعالى.

إشارات

١ ـ شوق متبادل

الاستقرار في الجنّة استقرار عن شوق ورضى مقروناً بالسرور، وهذا الشوق شوق متبادل، بمعنى أن الجنّة مشتاقة إليه وهو أيضاً مشتاق إليها، وفي الرواية: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الجنّة تشتاق إلى أربعة من أهلي، قد أحبّهم الله وأمرني بحبّهم:

---

١. سبأ: ٤٧.

٢. مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٣. البقرة: ٢٠٧.

عليّ بن أبي طالب، والحسن، والحسين، والمهدي (صلوات الله عليهم) الذي يصلّي خلفه عيسىٰ بن مريم»[1]. وفي رواية أخرىٰ إنّهم عليّ والمقداد وسلمان وأبوذر[2]، واختلاف الروايتين يفيد أنّ ذكر هؤلاء السبعة كان بيانا للمصداق لا الحصر؛ لأنّ الجنّة مشتاقة لكلّ أصحابها. وقد استلهم سعدي هذا المعنىٰ من هذه الروايات فأنشد قائلاً:

كم تزيّنت جنّة الفردوس... برجاء أن يرضى بها آل محمد!

وقد ورد في شأن سلمان ما هو أكثر من هذا، فروي: «إنّ الجنّة لأشوق إلىٰ سلمان من سلمان إلىٰ الجنّة، وإنّ الجنّة لأعشق لسلمان من سلمان للجنّة»[3].

وقال سعدي أيضاً:

غدا حينما ترىٰ الحور وجوه أصحاب الجنّة...

سيعترفن ـ إن كنّ منصفات ـ بالقصور.

وبما أنّ الجنّة هي معدن الرغبة والشوق فأصحابها متحابّون، ويودّون بعضهم بعضاً.

والاستقرار والطمأنية الدائمة في الجنّة سبب لإيجاد دافع أقوىٰ وباعث أشدّ من دخولها، فضلاً عن كون ذلك سبباً لعدم اضطراب وقلق المتنعّمين بها.

٢ ـ أقسام الرحمة

الرحمة المفاضة من المعصومين قسمان:

الأول: رحمة عاطفيّة.

الثاني: رحمة عقليّة.

---

١. بحار الأنوار، ج٤٣، ص ٣٠٤.

٢. المصدر السابق، ج٤٠، ص١٢.

٣. المصدر السابق، ج٢٢، ص٣٤١.

والناس وإن كان لهم نصيب في الجملة من الرحمة العاطفيّة؛ وببركتها يسير المجتمع ـ حال تعاضد أفراده ـ قدماً، إلاّ أنّ الأئمّة دوماً ـ شأنهم في هذا شأنهم في كلّ شيء ـ يتصدّرون الأمور ويقفون في رأس قمّة الرحمة، وهم أسياد قافلة المجتمع الإنساني فيها. جاء في الرواية:

بعث أبو عبد الله عليه‌السلام غلاماً له في حاجة، فأبطأ فخرج أبو عبد الله عليه‌السلام على أثره لما أبطأ فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروّحه حتى انتبه، فلمّا انتبه قال له أبو عبد الله عليه‌السلام: «يا فلان! والله ما ذلك لك. تنام الليل والنهار؟ لك الليل، ولنا منك النهار»[1].

إنّه كلام حسن وحقّ، قاله الإمام أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وبعد أن ألطف بالغلام حين نومه، فهو رحمة أخرى من الإمام لذلك الغلام ليعرف وظيفته.

ومثل هذه الرحمة العاطفيّة موجودة في صميم سيرة المعصومين وأخلاقهم، ونجدها أيضاً في سيرة خرّيجي مدرستهم البارزين، فنُقل أنّه دخل على سلمان رجل وهو يعجن، فقال: يا أبا عبدالله! ماهذا؟ قال: بعثنا الخادم في حاجة فكرهنا أن نجمع عليه عملين[2].

ولكن ما يمتاز به أهل هذا البيت عليهم‌السلام عن غيرهم هو القسم الثاني من الرحمة، وهو أرقى وأكمل من الأول؛ لأنّ الحياة الإنسانيّة للبشريّة رهن هذه الرحمة، وهي رحمة ليست ميسّرة لكلّ أحد، وليست في متناول أيّ أحد، وتلك هي الوحي، الذي يترشّح ويتنزّل رحمةً من بيوت تلك الذوات المقدّسة نحو الخلق.

وهذه هي الرحمة التي بسببها تحمّلوا ثقل الرسالة وعبء الهداية، وما انفكّوا عن إرشاد الناس وهدايتهم، مع ما ينالهم من حجارة يُقذفون بها تدمى بها الجباه

---

١ . أصول الكافي، ج٢، ص١١٢؛ المحجّة البيضاء، ج٣، ص٤٤٨.

٢ . المحجّة البيضاء، ج٣، ص٤٤٧.

وتنكسر الأسنان، ولا يزالون دائبين في العمل ما رجوا هدايتَهم، ويسئلون الله دوماً الهداية لهم، ولسان حالهم قول رسول الله: «ربّ اهدِ أمّتي فإنّهم لا يعلمون»[1].

وحتى إذا ما لعنوا أحداً فـأنّ تلك اللعنة هي مظهر من مظاهر رحمانيتهم للملعونين ولغيرهم؛ لأنّ أؤلئك الملعونين هم حجر عثرة ومزلق طريق الآخرين، فلا هم يؤمنون بدين الله ولا يدعون الطريق سالكةً لاهتداء غيرهم، وهؤلاء هم من عبّر عنهم القرآن بالناهي والنائي: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[2]؛ لهذا تقتضي الرحمة بالمظلومين إماطة تلك الحجارة عن طريق الله المستقيم لتبقى الطريق سالكةً لاهتدائهم، وهذه الموانع تارة تزال بالجهاد والسيف، وتارة باللعن ونحوه، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، لا خير في إمهال الكافر، بل كلّما تأخر موته يوماً تسافلت دركات ناره أكثر، وكلّما عجّل موته كان ذلك له أرحم وبه وأشفق:

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

لذا فصبّ اللعنة عليه خير له في الحقيقة، وإن كان الأمر غير ذلك بحسب الظاهر. كما أنّ جهنم أيضاً رحمة في ضمن مجموعة «النظام الأحسن»، وإن كانت لأهلها عذاباً وألماً. قال تعالى في سورة الرحمن ـ التي تبدأ بالاسم المبارك (الرحمن) ـ وهو بصدد تعداد الرحمات الإلهيّة: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[4].

فذُكرت جهنّم وعذابها في عداد النعم الربانيّة.

---

١. بحار الأنوار، ج١٠، ص٣٠.

٢. الأنعام: ٢٦.

٣. آل عمران: ١٧٨.

٤. الرحمن: ٣٥ـ٣٦.

٣ـ طرق نيل الرحمة الخاصّة

رحمة أهل البيت عليهم السلام وإن كانت رحمة عامةً، تتدفق كالسيل الجاري، يروي عطاشى الوادي، وكالشمس تنشر أشعتها في كلّ مكان؛ لتهدي بنورها ناشدي النور؛ إلاّ الانتفاع منها خاص بمن يكون في وادي السيل وفي معرض شعاع نور الشمس، وأمّا من ينأى بنفسه عن المسيل أو يحتمي بالظلّ فهو كصندوق محكم الاغلاق، يبقى سنين طويلة في البحر المحيط الفيّاض دون أن ينفذ إليه ندى من مائه. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام: يا داود! كما لا تضيق الشمس على من جلس فيها، كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها»[1].

ولذا فإنّ رؤية ظاهر المعصوم وإن كانت فخراً وشرفاً؛ لكن ليست بتلك الأهميّة، إذ إنّ كثيراً من الناس رأوه بالعين الظاهريّة بل وصلّوا خلفه، لكنّهم شهروا الخنجر في وجهه بعد الصلاة! كبعض جند جيش الحرّ الذين صلّوا بصلاة الامام الحسين عليه السلام، ومن بعد قاتلوه، أو بعض من رأى النبيّ صلى الله عليه وآله وصلّوا خلفه، وقاتلوا مدّة معه، بيد أنّهم ارتدّوا بعده وشهروا سيف الحرب في وجه خليفته، في حروب الجمل وصفين والنهروان.

الأمر المهمّ أن نتمكّن من رؤية الشخصيّة المعنويّة للمعصومين كي ينظروا إلينا.

والمهمّ أن نضع أنفسنا في وادي سيل رحمتهم؛ لتشملنا فواضل جودهم وعواطفهم المتلألئة، وإلاّ فمن الممكن أن لا يحظى البعض حتى بالنظر التشريفي من تلك الذوات المقدّسة، وهم الشهود على أعمال الأمّة كلّها، مثلما أنّ الله سبحانه لا ينظر كذلك إلى البعض ولا يكلّمهم: ﴿**لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[2]، مع أنّ العالم بأسره في محضره، ولا شيء يغيب عن بصره النافذ: ﴿**إِنَّ اللهَ**

---

١. بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٤.

٢. آل عمران: ٧٧.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

إنّ أعظم شيء يضع المرء في نطاق النظر التشريفي للمعصومين هو أن يسترّوا بما يروه في صحيفة أعمالنا حينما تُعرض عليهم وتصل إليهم، بأن تكون حافلة بالأعمال الصالحة وخالية من الطالحة؛ فحالئذ سيدعون للصالح وينظرون إليه بعين الرحمة والعطف.

٤ ـ القيامة مظهر الرحمة الخاصّة

القيامة مظهر آخر لرحمة أهل البيت، تتجلّى رحمتهم في ذلك المحشر الهائل في الشفاعة للقاصرين وبعض المقصّرين، وكما أنّ رحمة الله تعالى عامة في الدنيا وخاصّة بالمؤمنين في الآخرة؛ كذلك شفاعتهم آنذاك ستكون خاصّة بمن مات مؤمناً؛ لأنّهم مظاهر الرحمة الإلهيّة عينها، وإن كانت رحمتهم ورأفتهم في الدنيا تعمّ الجميع. قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[٢]: «رضا جدّي أن لا يبقى في النار موّحد»[٣]. وقيل للإمام الباقر عليه السلام: أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدّث بها أهل العراق، أحقّ هي؟ قال: «إي والله، حدّثني عمّي محمد بن الحنفية، عن عليّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أشفع لأمّتي حتى يناديني ربّي: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت». ثمّ أقبل عليّ فقال: إنّكم تقولون يا معشر أهل العراق: إنّ أرجى آية في كتاب الله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[٤]، قلت: إنّا لنقول ذلك. قال عليه السلام: فكلّنا أهل البيت نقول: إنّ

---

١. الحج: ١٧.

٢. الضحى: ٥.

٣. تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٩٥.

٤. الزمر: ٥٣.

أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ هي والله الشفاعة»[١].

ملاحظة: توجد آيات أخرى ورد فيها أنّها «أرجى آية»[٢] كآية: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٣]، وجمعاً بين هذه النصوص الدالّة على تعدد مصاديق «أرجى آية»، على فرض صحّة السند فيها وصدورها جميعاً من المعصوم، يقال:

أولاً: إنّ كلّ آية هي أرجى خطاب قرآني فيما هي بصدده، فآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ هي أرجى آية لمن يتوق لأن يشفّع ويعمل ما يؤهله لذلك، وآية: ﴿إِنَّ الْحُسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ هي أرجى آية لذوي الأعمال الصالحة وهكذا؛ فكلّ آية هي «أرجى» من زاويةٍ ما، فيكون الحصر المستفاد من كلّ رواية من الروايات تلك حصراً حيثيّاً إضافيّاً.

وبعبارة أخرى: توجد آيات عديدة في مسألة الشفاعة تؤمّل المؤمن وترجّيه خيراً؛ لكنّ أرجى آية فيها هي آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، وهناك العديد من الأدلّة والآيات الدالّة على تأثير الأعمال الخيّرة في محو الآثام؛ لكن أرجاها آية: ﴿إِنَّ الْحُسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

ثانياً: إنّ هذه الآيات كلّها في رتبة واحدة، وكلّ منها أرجى آية قياساً ببقيّة الآيات؛ ولكن بدلاً من ذكرها في رواية واحدة ذكرت متفرقة في روايات عدّة.

والحاصل: إنّ الحصر المستفاد من كلّ رواية رواية هنا حصر نسبي إضافي، لا مطلق ولا نفسي، مثل أن يكون عدد معدود من العلماء هم الأعلم بالنسبة لغيرهم؛ لكنّهم أنفسهم في رتبة علميّة واحدة.

---

١. الدرّ المنثور، ج٨، ص٥٤٣؛ تفسير فرات الكوفي، ص٥٧١. ونقل في نور الثقلين رواية مقاربة.

٢. تفسير العياشي، ج٢، ص١٦١.

٣. هود: ١١٤.

ثالثاً: من المحتمل أن يكون فرق بين نطاق الرجاء فيما يخصّ البشريّة ككلّ، بما فيها من موحّد وملحد، وبين نطاق الرجاء فيما يخصّ الأمّة الاسلاميّة، فتكون بعض النصوص ناظرة إلى الرجاء الإنساني العام، وبعضها الآخر ناظر إلى الرجاء الخاص بالأمّة الإسلاميّة.

وببيان أوضح: بعض الآيات تتحدّث عن الرحمة الرحمانيّة، وتؤمّل البشر كلّهم، المؤمن منهم وغيره، وبعضها تتحدّث عن الرحمة الرحيميّة، الخاصّة بالمؤمنين.

وما يمكن أن يرجوه غير المؤمن هو الثواب الدنيوي وتخفيف العذاب الأخروي.

٥ ـ أسباب الاختصاص بالرحمة

من الممكن أن يصبح أحد ما منشأً للرحمة، وأن تترشح منه الرحمة حيناً ما، ولكن لا يمكن بحال إطلاق «معدن الرحمة» عليه؛ لأنّ معنى «المعدن» مشترَط بالثبات والدوام.

ومن أسرار انحصار عنوان «معدن الرحمة» في الأئمّة هو هذا الاستقرار، استقرار الرحمة في وجود ذواتهم المقدسة.

ومن أسرار ذلك الترابط الوثيق بين تكوّن «المعدن» وبين قابليّة المادة الأوليّة وقابليّة المحل، فليس كلّ تراب يمكن أن يصير ذهباً، وليس كلّ مكان يصلح لصيرورته فيه، بل لا بدّ من تراب ومكان خاصّين، ليصير التراب ـ مع توفر بقيّة الشروط ـ ذهباً أو معدناً ثميناً.

شعر:

يجب أن تنقضي سنوات ليصير الحجر الأصلي في اليمن بتأثير الشمس عقيقاً متلئلاً.

والرحمة الإلهيّة أيضاً يجب أن تجري من قناة خاصّة، وهي قناة الأئمّة الأطهار؛ ليتسنّىٰ الانتفاع بها، وإلاّ فلن تكون قابلةً للاستفادة منها، علماً بأنّ الجريان في غير المجرىٰ المعيّن أصلاً محال عادةً.

٦ ـ توافق القرآن والعترة

وصف الله سبحانه كتابه بأنّه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، ووصف نبيّه ﷺ بأنّه: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢].

وفي هذه الزيارة الشريفة وُصف الأئمّة الأطهار بـ «معدن الرحمة» و«الرحمة الموصولة». وهذه الصفات المشتركة دليل آخر علىٰ واحديّة الرسول الأكرم ﷺ **والأئمّة الأطهار والقرآن الكريم في عالم النشئات الأرقىٰ من عالم المادّة، وسوف يتجلّون يوم القيامة في حقيقة واحدة، والتكثّر المادي الظاهري إنّما هو في نشأة الدنيا فقط، والقرآن والعترة ثقل واحد في تلك النشئات، وما ورد في الحديث من كون** القرآن والعترة ثقلين؛ ناظر إلىٰ هذه الدنيا.

٧ ـ سبب استقلاليّة الرحمة وتبعيّتها

الله سبحانه وتعالىٰ معدن الرحمة، والأئمّة الأطهار عليهم السلام **هم أيضاً معدن الرحمة؛ لكن الفرق بينهما هو الفرق بين الواجب والممكن، وهذا الفرق يجب أن يكون محفوظاً في المراحل كافّة.**

وثمّة فرق آخر، وهو أنّ «معدن الرحمة» بالنسبة إلىٰ الله تعالىٰ بنحو الفاعليّة بالذات، وبالنسبة إلىٰ الأئمّة بنحو القابليّة؛ لكنّهم واسطة فاعليّة للرحمة بالنسبة لعباده.

---

١ . يونس: ٥٧.

٢ . الأنبياء: ١٠٧.

وَخُزّانَ العِلْمِ

«خُزّان» جمع خازن، مثل طلاّب وطالب وجهّال وجاهل، وهذه الكلمة مشتقة من المادة «خزن» بمعنى الجمع والكنز في مكان معيّن[1]، سواء كان المخزون شيئاً ماديّاً أم معنويّاً، وسواء كان المخزن شيئاً ماديّاً أم روحيّاً. فكما يخزن المال كذلك يخزن العلم ويجمع.

والخازن هو الجامع والحافظ ومن بيده مفتاح الخزينة.

ومعنى كلمة «علم» غني عن التوضيح، وإن كان معناها لا يخلو من نكات مفيدة وجميلة؛ ولكنّ الكلام فيها بحاجة إلى بحث موسّع، يُطرح في محله؛ لذا سيكون الكلام في هذه الفقرة من الزيارة حول خِزانة[2] تلك الذوات المقدّسة للعلم، لا حول العلم نفسه.

---

١ . خَزَنَ الشيء فلان يخزُنُه خَزْناً إذا أحرَزَه في خِزانةٍ، واختزَنْتُه لنفسي. وخِزانتي قلبي. (كتاب العين).

٢ . والخِزانة عمل الخازن. (كتاب العين).

وممّا يجدر التنبّه إليه هنا: أنّ الخُزانة في الأشياء الماديّة ليست هي الخازن؛ إذ إنّهم يحرزون المتاع الماديّ ـ مثلاً ـ في الصندوق أو المخزن ويودعون المفتاح عند الخازن، لكن الأشياء المعنويّة ليس لها خزانة ماديّة، بل خزانتها الروح، وصاحب الروح الخازنة بيده التصرّف في المخزون، فليس الخازن للأمور المعنويّة شيئاً آخر غير الخُزانة. وفي هذه الفقرة من الزيارة، المقصود أنّ تلك الذوات المقدّسة هم خُزانة العلم نفسها، وإن عبّر فيها بالخُزّان والحافظين للعلم.

خزائن العلم

الأئمّة عليهم السلام كونٌ جامع لجميع النشئات الوجوديّة في مرتبة النورانيّة والولاية الكليّة، بمعنى «المرحلة التامّة»، وهي حقيقة إمامتهم، فهم نافذون في عوالم الوجود كلّها، ولا يخفى عن علمهم المحيط شيء.

وبعبارة أخرى: كلّ مجريات وأحداث نظام الوجود، عظيمها وحقيرها، حتى رمش عين الإنسان، قيامه وقعوده، سقوط ورق الشجر و... هو بمرأى منهم، ولا معنى للزمان الماضي والحالي والمستقبل بالنسبة إلى إحاطتهم العلميّة. لكنّهم كغيرهم في المرحلة الناقصة، وهي مرحلة المادّة وعالم الطبيعة، بمعنى أنّهم عليهم السلام قد لا يريدون العلم بشيء ما، ويرغبون أن يبقى خارج نطاق علمهم.

وما يميّزهم أنّ غيرهم لا سبيل لهم إلى تلك الخُزانة التي لا تنفد، ولا قدرة لهم على العلم بما يرغبون بالعلم به؛ بينما الأئمّة المعصومون قادرون على ذلك؛ لأنّهم خزّان تلك الخُزانة التي لا تنضب.

ولقد جاء في الروايات: «إنّ الإمام إذا شاء أن يعلم علم»[1]. وبهذا يكونون

---

١. الكافي، ج١، ص٢٥٨.

مظهر العلم الإلهي، فكما لا يعزب عن علم الله غير المتناهي شيء: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١]، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢]، ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[٣]، كذلك يحيط علم الأئمّة الأطهار عليهم السلام بموجودات عالم الوجود كلّها. والفرق أنّ علم الله تعالى استقلالي وبالأصالة، وعلم الأئمّة تبعيّ وعرضيّ، ونابع من منبع العلم الإلهي غير المحدود، ولولا التعليم الإلهي لهم واتّصالهم بعلمه غير المتناهي لكانوا وغيرهم سواء؛ ولذا جاء في الروايات: «إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك»[٤]. وممّا يُروىٰ في هذا السياق أنّه فقدت ناقة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حينما أراد السير إلىٰ تبوك، ولم يعلم بمكانها أحد، فأرجف بعض المنافقين وقال: هذا محمد يخبركم أنّه نبيّ، ويزعم أنّه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته!! فقال النبيّ: «إنّي والله ما أعلم إلاّ ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتىٰ تأتوني بها، فذهبوا، فجاءوا بها»[٥].

شعر:

سأل بعضُهم الرجلَ الذي فقد ابنه...
قال: يا صاحب الروح الشفافة والشيخ الحكيم...
شممت ريح قميصه وهو في مصره...
فكيف لم تره قابعاً في بئر كنعانه؟!

---

١. البقرة: ٢٣١.
٢. الحجرات: ١٦.
٣. فصلت: ٥٤.
٤. الكافي، ج١، ص٢٥٨.
٥. سيرة ابن هشام، ج٤، ص١٦٦.

قال: أحوالنا كبوارق العالم...

تبرق حيناً وتخفى أحياناً...

نجلس أحياناً فوق عالي البروج ونرى كلّ شيء...

وأحياناً لا نرى حتى ما تحت أقدامنا!...

إن بقيت زاهداً قانعاً دوماً...

فستطبق على العالمين بيديك!.

ملاحظتان: الأولى: ما يُدخّر في الخزانة ربما ناله الآخرون وانتفعوا منه؛ لكنّ ذلك لا يحصل جزافاً بل بتنسيق وتخطيط؛ لأنّ الخُزانة لها خازن قائم عليها، وليست كالنبع الفيّاض الخارج عادةً عن السيطرة وبإمكان أيّ أحد الاستفادة منه، بل هي:

أولاً: تحت سيطرة الخازن الحافظ لها، وله أن ينتفع منها متى شاء.

ثانياً: هي خارجة من سيطرة وتصرّف غيره.

ثالثاً: لا ينال الآخرون منها إلاّ بالقدر الذي يرتضيه الخازن نفسه، من دون أن يخرج عن سيطرته.

الثانية: يجب الالتفات إلى أنّ علم الإمام وإن كان تابعاً لإرادته، وما يريد العلم به يعلم به؛ لكنّ إرادته تابعة لإرادة ومشيئة الله تعالى، فمادام لم يرد لن يريدوا. وفي الرواية عن الإمام الهادي عليه السلام قال: «إنّ الله جعل قلوب الأئمّة مورداً لإرادته، فإذا شاء الله شيئاً شاؤوه، وهو قول الله: ﴿**وَما تَشاؤنَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ**﴾»[1].

---

١. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٣٧٢.

إشارات

١ ـ أسس العلوم

ينقسم الناس بالتقسيم الكلّي الأوّلي إلى قسمين: عالم وغير عالم[١].

وينقسم العلماء باعتبار ما يحوزه كلّ عالم من كمال إلى طوائف عدّة[٢]، نذكر بعضاً منها:

أ) من يعلمون بشيء من الأمور، ولكنّهم لا يُحسبون من معادن ذلك العلم ومنابعه؛ لأنّهم تلقّوه من غيرهم.

ب) العالمون بالشيء وهم أيضاً معدنه وأصله، بمعنى أن «العلم» وليد فكرهم هم؛ لكن لا قدرة عندهم على حفظه وإحرازه.

وهؤلاء أشبه بالنبع الفوّار؛ فإنّه يفيض بما فيه من ماء قهراً، ولا ينقطع ماؤه إلاّ بسدّه، ومادام مفتوحاً فإنّ خرير مائه يملأ الآذان.

ج) أؤلئك العالمون بما لا يعلمه غيرهم، من أسرار الخلقة وغيرها ممّا لا يعلمه سواهم، الذين هم أصل وأساس ومنبع فيّاض لعيون العلم والحكمة؛ فيملأ سيل

---

١ . عُبّر هنا بـ «غير العالم» دون «الجاهل» لأنّ عنوان «الجاهل» لا يقابل «العالم» في كثير من مسائل تهذيب النفس، بل يقابل عنوان «العاقل»؛ لأنّ «العالم» إمّا جاهل وإمّا عاقل، والمقابل للعلم هو عدم العلم. وفي كتب الحديث يوجد بابان مستقلان، بعنوان: ١ ـ كتاب العقل والجهل. ٢ ـ كتاب فضل العلم أو كتاب العلم. (من باب المثال ينظر: بحار الأنوار، ج١، ص٨١و١٦٢؛ أصول الكافي، ج١، ص١٠و٣٠).

٢ . تقسيم أيّ شيء فرع وجود ذلك الشيء، وبما أنّ «غير العالم» فاقد لأيّ كمال وعلم فهو غير قابل للتقسيم. وعلى هذا فغير العلماء كافّة يشتركون في فقدان العلم، وإن اختلفت مناشئ عدم العلم.

علمهم المّواج أكناف العالم، كما قال عليّ عليه السلام عن نفسه: «ينحدرُ عَنّي السَّيلُ»[١].
وسائر الأئمّة هم أيضاً نبع وأصل لكلّ علم، وسببه ومنعه بيدهم.

٢ ـ التقيّة في العلوم

أكدت روايات كثيرة على العمل بالتقيّة، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «اتّقوا على دينكم فاحجبوه بالتقيّة، فإنّه لا إيمان لمن لا تقيّة له، إنّما أنتم في الناس كالنحل في الطير، لو أنّ الطير تعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شئ إلا أكلته»[٢].

والتقيّة هي كتمان السر والتحرّز من الغريب غير المأمون على السر، وهذا الغريب قد يكون مسلماً غير شيعي، وقد يكون شيعيّاً متوسطاً أو كاملاً، بل وقد يكون أكمل.

والمتّقى فيه تارةً يكون من قبيل المسائل والأحكام العمليّة، وتارةً يكون من قبيل المسائل الاعتقاديّة والمعارف الإلهيّة؛ وذلك لوجود خطر الإفشاء في هذه الأمور كلّها، والعاقل يعمل بأسباب الأمان حين الإحساس بالخطر، ومن أسبابه التحرّز.

إنّ بعض الناس لا قدرةَ عندهم على تحمّل وهضم بعض العلوم، فيقدمون على تفسيق وتكفير حامليها، ويعدّونهم زنادقة! ولا جرم، فإنّ «الناس أعداء ما جهلوا»[٣]، وتقول الآية: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾[٤]، وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ذُكرت التقية يوماً عند عليّ بن الحسين (عليهما السلام) فقال: «والله لو

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة٣.
٢ . أصول الكافي، ج٢، ص٢١٨، باب التقية.
٣ . نهج البلاغة، الحكمة٤٣٨و١٧٢.
٤ . يونس: ٣٩.

علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخىٰ رسول الله ﷺ بينهما، فما ظنّكم بسائر الخلق...»[١]. وكان من شأن أبي ذر أن قال فيه عليّ عليه السلام: «وعىٰ أبو ذر علماً عجز الناس عنه، ثمّ أوكىٰ عليه فلم يخرج منه شيئاً»[٢]. وقد شبّهه النبيّ ﷺ في زهده بعيسىٰ بن مريم، قال: «أبو ذر في أمّتي علىٰ زهد عيسىٰ بن مريم»[٣].

ملاحظة: ما ذكرناه في حديث الإمام الصادق عليه السلام هو المعنىٰ المعروف؛ لكنّ بعضهم ذكر أنّ الضمير في الفعل «لقتله» راجع إلىٰ جملة «ما في قلب سلمان»، والضمير فيه مفعولٌ به راجع إلىٰ أبي ذر، فيكون المعنىٰ هكذا: لو علم أبو ذر ما يعلمه سلمان لكان ذلك العلم سبباً في قتل أبي ذر وموته؛ لعدم تحمّله له، ممّا يحمله علىٰ إفشائه، وبالتالي يبتلىٰ بما ابتلي به أمثال منصور الحلاّج.

وهذا الاحتمال وإن كان خلاف الظاهر؛ إلاّ أنّه يلائم ما ذكر من لزوم التقيّة.

إنّ السرّ في بقاء الأئمّة عليهم السلام وخواصّ أصحابهم سالمين من نوائب الزمان، وتعليق أمثال منصور [الحلاج] علىٰ أعواد المشانق، هو العمل بالتقيّة والتفريط فيها.

شعر:

قال: إنّ ذلك الرفيق الذي علق رأسه في المشنقة...

كان جرمه إذاعة الأسرار[٤].

قال الإمام الباقر عليه السلام لأصحابه: «لو كان لألسنتكم أوكية لحدّثت كلّ امرئ بما له وعليه»[٥].

---

١. بحار الأنوار، ج٢٢، ص٣٤٣.

٢. أسد الغابة، ج٦، ص٩٧، ترجمة رقم:٥٨٦٩.

٣. المصدر السابق.

٤. ديوان حافظ، ص١٩٣، الغزل رقم ١٤٣.

٥. بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٤٩.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما كلّم رسول الله صلى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قطّ...»[١].

والسبب هو رعاية التقيّة في المسائل العلميّة؛ لأنّ البليغ كتوم، والرسول أبلغ من الكلّ[٢].

شعر:

ما أقوله هو بقدر فهمك أنت..

متُ حسرةً على الفهم الصحيح[٣].

جاء أحدهم ـ وكان يحسب أنّ في القرآن تناقضاً ـ إلى أمير المؤمنين، وعرض عليه ما عنده من مسائل، فأجابه عليه السلام، وفي آخر كلامه قال له:

«وليس كلّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكلّ الناس؛ لأنّ منهم القوي والضعيف، ولأنّ منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله، إلاّ أن يسهّل الله له حمله، وأعانه عليه من خاصّة أوليائه، وإنّما يكفيك أن تعلم أنّ الله المحيي المميت، وأنّه يتوفّى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم»[٤].

---

١. أصول الكافي، ج١، ص٢٣، ح١٥. وبعض شرّاح كتاب «الكافي» كصدر المتألهين يستثني عليّاً، فقال: «واعلم أنّ المراد من العباد جمهور الناس، والجمع المحلى باللام وإن كان ظاهره العموم فيدخل فيه كلّ عبد من عباد الله؛ إلاّ أنّا نعلم يقيناً أنّ أمير المؤمنين عليه السلام غير داخل في هذا العموم؛ لأنّه بمنزلة نفس الرسول وصاحب سرّه ونجواه، فكان يعلم كلّ ما علمه الرسول وعرف كلّ منهما ما عرفه الآخر عليهما السلام، ولقوله: أنا مدينة العلم وعليّ بابها». (شرح أصول الكافي، كتاب العقل والجهل، ص٥٣٩، ذيل الحديث ٩). وباعتبار أنّ الأئمّة على حدّ واحد في الشرائط العامّة للامامة ـ باستثناء بعض الخصائص الخارجة عن حدّ الشرائط العامّة للامامة ـ فهم كعليّ، خارجون من هذا العموم.

٢. البليغ هو من يراعي في كلامه مقتضى حال المستمع.

٣. مثنوي معنوي، القسم الثالث، البيت ٢٠٩٨.

٤. بحار الأنوار، ج٩٠، ص١٤١.

وهذا تعريض منه إلى أنه: لا ينفعك طلب مثل هذه المعارف الدقيقة؛ لأنّ من هو مثلك لا قدرة له على تحمّلها وفهمها.

إنّ المتكلّم الذي يحدّث مستمعيه بأكثر ممّا تستوعب أفهامهم، ولا يراعي في ذلك مقتضى البلاغة، فهو ـ علاوة على إضاعة وقته ووقت المستمع؛ لأنّه لا المستمع يستفيد منه شيئاً ولا هو يثاب على كلامه ـ يُذهِب باعتباره الشخصي أدراج الرياح، وربما أفشى سرّه أو سرّهما معاً! وعلى فرض عدم الابتلاء بذلك فهو على أقلّ تقدير يهدر وقت مستمعيه.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«ليس منّا من أذاع حديثنا، فإنّه قتلنا قتل عمد لا قتل خطأ»[١].

وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[٢].

وللعارف الشيعي الشهير السيد حيدر الآملي رحمه الله بحث مفصّل في التقيّة ووجوب كتمان السرّ، كان يلقيه قبل الشروع في البحوث التوحيديّة المعمقة، قال فيه: كما أنّه يجب إفشاء الأسرار الإلهيّة لمن هو أهل لها؛ لا يجوز إفشاؤها لكلّ أحد[٣].

وتحمّل العلوم والأسرار الإلهيّة وكتمانها وعدم إذاعتها أمر صعب جدّاً، ولا يطيق القيام به بالشكل الأمثل سوى الأئمّة الأطهار عليهم السلام. ومن ادّخر شيئاً منه من خُلّص وكُمّل شيعتهم لم يكن يفتح بابه لكلّ طارق، بل كانوا يتحدّثون مع الناس مراعين للتقيّة، ويتكلّمون بقدر استعداد المستمع واستيعابه، فيقولون ما يجب أن يقال، ويكتمون ما ينبغي أن يُكتم.

---

١. بحار الأنوار، ج٢، ص٧٩.

٢. المصدر السابق، ص٧٨.

٣. انظر: جامع الأسرار ومنبع الأنوار، مقدمة مشتملة على كتمان الأسرار.

شعر:

أولئك الذين تلقّوا أسرار الحق...

ختموا على ألسنتهم وخاطوا أفواههم.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «يا أبا محمد (=أبا بصير)! إنّ عندنا والله سرّاً من سرّ الله، وعلماً من علم الله. والله ما يحتمله ملَك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»[١].

وفي الرواية عن بعض أصحابنا، قال: كتبت إلى أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام: جعلت فداك! ما معنى قول الصادق عليه السلام: «حديثنا لا يحتمله ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للايمان؟»، فجاء الجواب:

«أنّ الملك لا يحتمله حتى يخرجه إلى ملَك غيره، والنبيّ لا يحتمله حتى يخرجه إلى نبيّ غيره، والمؤمن لا يحتمله حتى يخرجه إلى مؤمن غيره؛ فهذا معنى قول جدّي عليه السلام»[٢].

ملاحظة: المقصود من «الاحتمال والتحمّل» الوارد في مثل هذه الروايات هو التلقي والحفظ في القلب.

ولتحمّل حديث الأئمّة عليهم السلام معنى آخر أيضاً، سيأتي ذكره لاحقاً.

إنّ من يكون مسقى علم لا يمكنه أن يكتمه بين جوانحه، بل لا بدّ له من البوح به لأحد ما أو كتابته، وهذا ما يعني حبل مشنقة له! وذريعة محكمة لاتّهام غيره والافتراء عليهم، كما قالت الرواية: «إنّما الهالك أن يحدّث أحدكم بشيء منه

١. لم يُذكر في الكتاب الأصل المصدر، والحديث في كتاب «الكافي»، ج١، ص٤٠٢، باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب، ح٥.

٢. أصول الكافي، ج١، ص٤٠١، ح٤. ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ الأنبياء أولي العزم مستثنون من ذلك.

لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا، والله ما كان هذا! والإنكارهو الكفر»[١].

وأمّا من هو منشرحٌ صدرُه واعٍ قلبُه ومخزنٌ كتومٌ للأسرار؛ فهو لا يهلك نفسه ولا غيره، بل يقصد حانة الوحدة سرّاً غير جاهر بـ «أنا الحقّ»؛ لكنّ منصور (الحلاّج) وأمثاله ـ الذين هم مساقٍ للأسرار لا مقارّ لها ـ يجهرون بذلك، ويدفعون ثمنها على أعواد المشانق!

شعر:

كانت قدح منصور فارغةً ثمّ امتلأت بالنغمات...

وإلاّ فإنّه لم يكن بحانة الوحدة أحد يقظ![٢]

وعلى هذا فإنّ كون حديثهم صعباً مستصعباً، كما جاء في روايات كثيرة، لا ينحصر معناه في عدم قدرة أحد على فهمه، بل هو بمعنى صعوبة حفظه في القلب أيضاً، ومثله مثل الصبي، فإنّه ربما استطاع حمل شيء ثقيل لمدة قصيرة، لكنّه لا يطيق حمله لمدّة أطول ولا نقله عن محلّه؛ لأنّ ذلك بحاجة إلى قوّة أكبر ممّا عنده، فهو إمّا أن يضع ذلك الشيء الثقيل أرضاً، أو أن يسقط منه قهراً.

ملاحظة: من لوازم خِزانة العلوم والمعارف معرفة الوقت المناسب للإفاضة والعطاء[٣].

١ . أصول الكافي، ج١، ص٤٠١، ح١.

٢ . والمعنى: إنّه ما كان ليعلم أحد بحال منصور الحلاّج وبسرّه؛ لأنّ الجميع كانوا في غفلة ساهين، لكن لما أذاع واشتهر علموا به فهلك. (المعرّب).

٣ . سيأتي البحث في هذا المعنى آخر الكلام في فقرة «منتهى الحلم».

وَمُنْتَهَى الحِلْمِ

«منتهىٰ» اسم مكان من باب «الافتعال»، وهو مشتقّ من المادة «نهىٰ» المقابلة للأمر، و«النهي» طلب ترك الشيء، ويقال للعقل «نُهية» ـ علىٰ وزان لُقمة ـ لأنّ بمساعدته يُطلب الترك، وجمعه «نُهىٰ». و«الافتعال» يفيد المطاوعة، ومطاوعة النهي بمعنىٰ أنّ المتديّن يقف حيث يكون النهي ويمتنع من الفعل المنهيّ عنه، أو ينهي ويقطع العمل المنهيّ عنه، و«المُنتهىٰ» هو مكان نهاية الشيء الذي انتهىٰ فيه، بحيث لا حركة ولا عمل بعده[1]. ولهذا يقال لنهاية كلّ شيء: «مُنتهىٰ».

و«الحلم» بمعنىٰ كظم الغيظ ولجم القوّة الغضبيّة حال الغضب، وتجنّب الخفّة وردّة الفعل النزقة وغير الحكيمة، بحيث تغلب علىٰ الغاضب حالة السكينة وتحمّل الصبر في المكاره؛ فالحلم في الحقيقة هو ثمرة اعتدال القوّة الغضبيّة، والحليم هو من لا يفرِط ولا يفرّط في الاستفادة من القوّة الغضبيّة، ولا يعجل في العقاب والانتقام مع القدرة عليهما.

---

١ . ينظر: التحقيق في كلمات القرآن، مادة «نهي».

وعلىٰ هذا فمعنىٰ هذه الفقرة من الزيارة هو: أنّكم وصلتم إلىٰ نهاية وآخر درجة من درجات الحلم والصبر التي يمكن للمخلوقين بلوغها والوصول إليها.

تقارن العِلم والحِلم

تضمنت الفقرة الآنفة أنّهم عليهم السلام خزائن العلم، و«لن يثمر العلم حتىٰ يقارنه الحلم»[1]؛ لأنّ العلم ينمو ويؤتي أكلَه بالصبر والتحمّل، والعالِم الحليم الصبور يظفر بفوائد وغنائم أكمل. قال الإمام الجواد عليه السلام: «الحلم لباس العالِم فلا تعرينّ منه»[2]. وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام توضيح للعلاقة بينهما، حيث يقول: «العلم أصل الحلم»[3] و«الحلم زينة العلم»[4]. وبالالتفات إلىٰ دور الحلم في طلب العلم وتأثيره في الانتفاع بالمعرفة، قال الإمام الصادق عليه السلام بعد وصيّته بالحلم: «عليك بالحلم فإنّه ركن العلم»[5].

مجموع هذه الروايات ـ والكثير ممّا هو بمعناها ـ كاشف عن تآزر العلم والحلم وتعاضدهما، بحيث إنّ العلم لن يكون مفيداً أبداً بدون الحلم، والحلم لن يكون قائماً علىٰ أسس محكمة بدون العلم؛ فثبات الحلم ودوامه مرتهن بالعلم، ومقداره مساوٍ لمقداره، وهذا هو سرّ التوصية بتقارنهما ومعيّتهما. وبعبارة العلامة المجلسي: «إذ بترك الحلم ينفر العلماء عنه، فلا يمكنه التعلّم منهم، وأيضاً يسلب الله علمه عنه، ولا يفيض عليه الحكمة بتركه»[6].

---

١ . شرح غرر الحكم، ج٥، ص٦٣، شرح ٧٤١١.

٢ . بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٦٢.

٣ . شرح غرر الحكم، ج١، ص٢٤٩، شرح ١٠٠٣.

٤ . المصدر السابق، شرح ١٠٠٤.

٥ . بحار الأنوار، ج٦٨، ص٤١٤.

٦ . بحار الأنوار، ج١، ص١٢٤.

ونحن نقول للأئمة عليهم السلام في هذه الفقرة: أنتم لستم خزائن العلوم في البعد النظري وحسب؛ بل أنتم أيضاً واصلون في البُعد العملي إلى آخر مرتبة من الحلم، لا يمكن لمخلوق بلوغ أعلى منها. وهذه الدعوى دليلها ما روي في قصّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وشمعون بن لاوي بن يهودا، وكان من حواري النبيّ عيسى، جاء فيها: «... فتشعّب من العقل الحلمُ، ومن الحلم العلمُ...»، فعدّ العقلَ أسّ الحلم. وقد عُرّف العقل في رواية أخرى بأنّه «ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[1].

والحلم في ذاته أصل لكثير من الخصال الحميدة، ولكلّ خصلة منها شُعب عديدة[2]. وعلى هذا فالعقل أساس ومبدأ كلّ خير، وهذا ما جاء في هذه الرواية نفسها، قال: «إنّ الله خلق العقل، فقال له أقبل فأقبل، وقال له أدبر فأدبر، فقال الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعظم منك، ولا أطوع منك، بك أبدأ وبك أُعيد، لك الثواب وعليك العقاب»[3].

وبهذا البيان يتّضح أنّ من يحظى بعقل أوفر يكون حظّه من محمود الخصال أكثر.

ونحن إنّما نقول للأئمّة: إنّكم بلغتم النهاية والغاية في الحلم والصبر ولا يدانيكم في ذلك أحد؛ لأنّه لا أحد يقاربهم في رتبة العقل التي يمتازون بها، لأنّهم ورّاث «العقل الكلّي» وهو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، كما أنّهم في الدرجة الأعلى في صفات الكمال المتشعّبة من الحلم، الدرجة التي لا تقدر الممكنات على بلوغ أعلى منها.

---

١ . الكافي، ج١، ص١١، ح٣.

٢ . ذكر للحلم في هذه الرواية تسع خصال، ولكلّ خصلة عشر شُعب، فيكون الحلم أصلاً لتسعين خصلة طيبة، ويكون العقل أصلاً لمائة خصلة.

٣ . بحار الأنوار، ج١، ص١٢٤. قال العلامة المجلسي في توضيح ذلك: إذ لولا العقل لم يحسن التكليف، ولولا التكليف لم يكن للخلق فائدة، ولا للثواب والعقاب والحشر منفعة، ولا فيها حكمة.

والسيرة العمليّة للأئمة الأطهار عليهم السلام شاهد حيّ على كونهم «منتهى الحلم»، فقد كان بمقدورهم ـ بحسب القدرة الإلهيّة المعطاة لهم ـ أن يوجدوا بلمح البصر آثاراً كثيرة في نظام الخلقة، دفعاً للآلام الروحيّة والجسديّة، والسجن و... لكنّهم لم يفعلوا شيئاً؛ لأنّهم لم يؤمروا بالاستفادة من تلك القدرات.

مثال باهر

عن رُفَيد مولى يزيد بن عمرو بن هبيرة، قال: سخط عليَّ ابنُ هبيرة وحلف عليّ ليقتلني، فهربت منه وعذت بأبي عبد الله عليه السلام فأعلمته خبري، فقال لي: انصرف واقرأه منّي السلام، وقل له: إنّي قد آجرت عليك مولاك رفيداً فلا تهجه بسوء. فقلت له: جُعلت فداك شاميّ خبيث الرأي! فقال: اذهب إليه كما أقول لك، فأقبلت، فلمّا كنت في بعض البوادي استقبلني أعرابيّ، فقال: أين تذهب؟ إنّي أرى وجه مقتول، ثمّ قال لي: أخرج يدك، ففعلت فقال: يد مقتول، ثمّ قال لي: أبرز رجلك فأبرزت رجلي، فقال: رجل مقتول، ثم قال لي: أبرز جسدك، ففعلت، فقال: جسد مقتول، ثمّ قال لي: أخرج لسانك، ففعلت، فقال لي: امض، فلا بأس عليك فإنّ في لسانك رسالة لو أتيت بها الجبال الرواسي لانقادت لك. قال: فجئت حتى وقفت على باب ابن هبيرة، فاستأذنت، فلمّا دخلت عليه قال: أتتك بخائن رجلاه، يا غلام النطع والسيف، ثمّ أمر بي فكُتّفت وشدّ رأسي وقام عليّ السيّاف ليضرب عنقي، فقلت: أيّها الأمير! لم تظفر بي عنوة وإنّما جئتك من ذات نفسي، وههنا أمر أذكره لك ثمّ أنت وشأنك، فقال: قل، فقلت: أخلني، فأمر من حضر فخرجوا، فقلت له: جعفر بن محمد يقرئك السلام، ويقول لك: قد آجرت عليك مولاك رفيداً فلا تهجه بسوء. فقال: والله لقد قال لك جعفر [بن محمد] هذه المقالة وأقرأني السلام؟! فحلفت له فردّها عليّ ثلاثاً، ثمّ حلّ أكتافي، ثمّ قال: لا يقنعني

منك حتىٰ تفعل بي ما فعلت بك، قلت: ما تنطلق يدي بذاك ولا تطيب به نفسي، فقال: والله ما يقنعني إلاّ ذاك، ففعلت به كما فعل بي وأطلقته، فناولني خاتمه، وقال: أموري في يدك، فدبّر فيها ما شئت[1].

فالإمام عليه السلام بما عنده من قدرة يستطيع التأثير في أعدائه؛ لكنّه صبر علىٰ أذىٰ الخلفاء العباسيين لأنّه مأمور بالصبر وترك الأمور تجري وفق الجري الطبيعي، وهذا هو حال سائر الأئمّة المعصومين.

الحلم والتوقيت المناسب

ليس معنىٰ الحلم أن لا يفعل المرء شيئاً أبداً كردّة فعل للمضايقات والأذىٰ؛ لأنّ من هذه حاله فهو معطّل للقوّة الغضبيّة، ومَن لا يفيد منها مطلقاً ليس معتدلاً في قواه الطبيعيّة، بل معناه أن لا يعجل في الإقدام قبل التبصّر ومعرفة غبّ الأمر؛ والمعتدل في قواه الإنسانيّة، والحليم الصبور المتأنّي، يقدم علىٰ الفعل في الوقت المناسب؛ لأنّ الإنسان السويّ ماهر في تحرّي الوقت الصالح، ويفعل ما يلزم في وقته. وفي حياة كلّ إمام معصوم شواهد كثيرة علىٰ صبرهم وتحرّيهم للوقت المناسب للفعل.

والأئمّة عليهم السلام عمَدُ علم محكمة ومنارات حكمة رفيعة، وأصل كلّ فضيلة ومنبع كلّ منقبة حميدة، فليقصدهم المشتاقون إلىٰ العلم الحقّ والتوّاقون إلىٰ الشجاعة؛ ليتعلّموا منهم دروس البطولة والإيثار، وليجلس إليهم جلسة المتعلّم أيضاً كلّ من يريد الارتواء من نبع المناقب الصافي الزلال؛ لأنّهم قافلة مدرسة علىٰ رأسها المعلّم الثاني[2] عليّ عليه السلام، وماعداها مستنقعات طرق ملوثة بأنواع الآفات؛

---

١ . الكافي، ج١، ص٤٧٣.

٢ . يعبّر في الكتب العقلية (الفلسفة والمنطق) عن أرسطو والفارابي بالمعلم الأول والمعلم الثاني؛ لكنّ أهل المعرفة يعبرّون بهما عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

لأنّ في بيتهم الرفيع وحدَهم دوحة العلم الباسقة،[١] وليس هذا وحسب؛ بل إنّ أغصان فضائلهم وكمالاتهم، كالشجاعة والمروّة، هي شجر طوبى، تلقي بظلالها على عالم الإمكان.

وفوق هذا كلّه هم أصل وأساس كلّ خير وحسن «إن ذُكر الخير كنتم أوله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه»[٢]. وفيما جاء عن أمير المؤمنين قوله: «والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت»[٣]. وقال أيضاً:

«... فإنّي لم أفرّ من الزحف قطّ، ولم يبارزني أحد إلاّ سقيتُ الأرض من دمه»[٤].

شعر:

لست أنا من ترى ظهرَه يوم الحرب...

بل أنا من ترى رأسه عالياً فوق التراب والدم[٥].

هذه المفاخر العلويّة في حروب صدر الإسلام دعت المرحوم ابن مسكويه إلى أن يذكر عليّاً في كلامه الرائق بعنوان «حقيقة الشجاعة»[٦]، وليس عليّاً من يفخر بشجاعته؛ بل هي الشجاعة تفخر بأنّها خصلة لإنسان مثل عليّ!.

ملاحظة: يفخر عامّة الناس بالصفات، لكنّ الصفات هي من تفخر بالإضافة إلى الذات النفيسة للكاملين؛ لأنّ الصفات العرضيّة، سواء الايجابيّة كالعفّة والشجاعة والعدالة أم السلبيّة كالحقد والخوف والظلم، ليست أموراً عدميّة

---

١. قال الإمام الباقر عليه السلام: «شرّقا وغرّبا، لن تجدا علماً صحيحاً إلا شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت». بحار الأنوار، ج٢، س ٩٢).

٢. الزيارة الجامعة.

٣. بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٦.

٤. نور الثقلين، ج٢، ص١٣٩، ذيل الآية ١٦ من سورة الأنفال.

٥. گلستان سعدي، ص١٥، الباب الاول، الحكاية٣.

٦. تهذيب الأخلاق في التربية، ص٨٩.

ومهملة، وليس وجودها وجوداً اعتبارياً محضاً، بل لها وجود حقيقي واقعي مؤثر، ولكي تبقى يجب أن تستند على الذوات النفيسة، وبهذا اللحاظ هي ذات وجود حقيقي واقعي، له حدوده الخاصة، وليست مهملة سائبة، تحلّ في أيّ مكان وتقرّ في أيّ ذات! وهذا هو وجه قولهم: إنّ علياً أخاف الخوف، فهو يخشى الاقتراب من ساحته.

ومن يقرأ حياة «حقيقة الشجاعة والبطولة» هذه سيرى فيها حالين مختلفتين:

الأولى: حال الصبر مدّة طويلة «فصبرتُ وفي العين قذى وفي الحلق شجى»[١].

الثانية: الحال الأخرى في حرب النهروان، حينما كوّم تلالاً من قتلى الخوارج، وفي حرب البصرة ضدّ عديمي البصيرة، حينما قصم جمل الحماقة والجهالة للناكثين الحاقدين، وفي حرب صفّين، حينما دكّ بذي الفقار مكرَ وكفر قاسطي الشام الأموي المشئوم.

وقد يسأل المتتبّع لسيرة عليّ: لم سار الإمام عليه السلام بهاتين السيرتين المختلفتين في الحالين؟

لماذا لم يحارب بقية مخالفيه الذين جرّعوه أمرّ من الحنظل؟

والجواب من الإمام نفسه، فقد بيّن الوضع السياسي والاجتماعي لعصره، وما فيه من لعب سياسيّة لسياسيي زمانه، وجوابه: إنّ الناس حديثو عهد بجاهليّة، فلا يعرفون كامل حقيقة الإسلام، ولا يعرفون شأن أهل البيت، وكمالاتهم وخصائصهم الدينيّة، وفي مثل هذا الجوّ المغبّر البئيس نشرت سقيفة لا أسّ لها ظلّها المشئوم، وتحت ظلّها غُصب حقّي غير المنازع في الخلافة، وقد علم الكلّ «أنّ محلّي منه (=الخلافة) محلّ القطب من الرحا»[٢]، فاحتججت سلماً وجادلتهم بالتي هي

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة الشقشقيّة.

٢ . المصدر السابق.

أحسن وأتممت الحجّة عليهم، ولكن لم يأت ذلك بطائل؛ لأنّ كثيراً من الناس جاهلون بحقيقة الأمر[١]، وكان إحقاق الحقّ يقتضي منّي إشهار السيف، لكنّي لم أر صلاحاً في القتال؛ لأنّه لم يكن أحد ليهبّ معي، عدا أهل بيتي وقليل أصحابي: «فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي، فضننت بهم عن الموت، فأغضيت على القذى، وشربت على الشجى، وصبرت على أخذ الكظم وعلى أمرّ من طعم العلقم»[٢].

لكنّه حينما أخذ بزمام الحكم، ورأى الأرضيّة ممهدة لمحاربة الباطل؛ لم يصبر على الناكثين ناقضي الميثاق، وعلى المارقين عن الدين، والقاسطين عن الحق، بل فتح في وجه كلّ باطل جبهة دفاع مناسبة، وهذا مثال على صبره وتحرّيه للوقت المناسب. ومبدأ هذا وأصله نجده في سيرة الرسول الأكرم ﷺ، وله شواهد كثيرة في سيرة أبنائه أيضاً، فالإمام الحسين عليه السلام صبر طيلة عشرين عاماً، وهي مدّة تولي معاوية للحكم، ولم يقدم على أي فعل قبال استشهاد أصحابه طيلة هذه السنين؛ لكن حينما تولى السلطة شابّ نزق خمّار كيزيد؛ علم الإمامُ أنّه إن نهض فسوف يستطيع بدمه إعداد الأرضيّة لسقوط الحكم الأموي الغاشم، وينفخ روحاً جديدة في جسد الإسلام، فنزل الميدان مضحيّاً مسخياً، وجاء إلى كربلاء بكلّ من معه ـ من الرضيع ذي الستة أشهر إلى المسنّ ذي التسعين ـ ليجعل منهم أعلام هداية للعالم[٣].

١ . وبطبيعة الحال إنّ استبداد السلطة الحاكمة كان لها دور في ذلك.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٢٦. وقد رويت هذه الخطبة بالتفصيل في كتاب «الغارات». وهي تماثل الخطبة الشقشقيّة مضموناً.

٣ . كان ذلك الشيخ العاشق الراحل ـ الذي نعيش الذكرى الثانية والثلاثين لثورته ويحيا هو الآن السنة السادسة في محفل أهل الملكوت ـ خرّيجاً رشيداً لهذه المدرسة، والشارب مريئاً من ماء زمزمها الذي لا ينزف، وكوثرها المتفجّر. الإمام الذي عاصر العهد الأسود لرضا خان، ⇐

شعر:

مَن غيرُ علي يستطيع أن يهب ابناً باهر العجائب...

ينصب شهداء كربلاء علماً ومناراً للعالَمِ[١].

وهذا التحمّل والصبر والدقّة في التوقيت نراه أيضاً في حياة بقيّة الأئمّـة عليهم السلام. فالله سبحانه منح العلم والقدرة غير المحدودة لأناس بلغوا النهاية في كظم الغـيض ولجم عادية الغضب، وكان بمقدورهم ـ لو شاؤوا إعمال علمهم وقدرتهم بلا روية ـ أن يقمعوا مخالفيهم وينتصروا لأنفسهم دوماً في ساحات الـوغى، وأن ينـالوا مـا يرغبون فيه من النعم الطبيعيّة... ولكن بالتالي سيختلّ نظام التكليف.

والانقلاب المنحوس لمحمد رضا خان، وتأميم النفط، وحركة فدائيي الإسلام؛ لكنه تجرّع كأس الصبر حتى آخر قطرة إلى حين مرجعيّته؛ لأنه لو قام قبل ذلك فسيقتل كسيد مجاهد، مثل فدائيي الإسلام، وسيعرّف بذلك العنوان، ولن يطيح دمه ذلك الحكم الظالم، وإن كان سيؤجر ويثـاب من الله. لكن في بداية الأربعينات، وحينما صار مدرّساً ذا مكانـة فقهيّـة وعلميّـة في حـوزة قـم العلميّة، جاءته المرجعيّة، وصار لفتواه تأثير وقبول، حينها فقط صرخ في وجه النظـام البهلـوي المنتهك لحرمة الإسلام، وتصدى له بصدره، وصرخ في وجه النظام الحاكم الجبـار: بلـغ عمـري عمر الرسول وأمير المؤمنين، يعني (٦٣) سـنة؛ لـذا أعـددت صـدري لرصاصـكم، لكنّـي لـن استسلم لبطشكم! فقام بثورته، فأحرقت نارهـا الـشجرة الخبيثـة لنظـام ملكـي ظـالم دام ألفـين وخمسمائة سنة، وفي ضوء قبسها أسس الجمهوريّة الإسلاميّة المباركة في بلاد إمام الزمـان، عجـل الله فرجه.

١ . ديوان شهريار.

وأصول الكرم

كلمة «أصول» جمع «أصل» بمعنى الأساس وما يُبنى عليه الشيء، سواء كان في الجمادات أم في النباتات أم في الحيوان...[1].

وأصل أيّ شيء كان هو ما به قوامه وثباته، فالجدار ـ مثلاً ـ لا يقوم ولا يقاوم بدون أساس، والشجرة بدون أساسها وجذورها لا تصمد أمام الريح والأعاصير، فضلاً عن فقدانها لقناة التغذي والانتفاع من التربة.

وأساس أيّ شيء يجب أن يكون مناسباً لذلك الشيء، فلا يمكن البناء أيّ بناء على أيّ قاعدة وأساس، فالبرج الشاهق لا يُبنى على أساس مهيّأ لجدار! والشجرة الضخمة لا يمكنها التمسّك بجذر شتلة في انتصابها! وجذر شجرة ضعيفة لا يتحمّل عبأ دوحة مثل شجرة الدلب.

الكَرَم: كرُم الشيء نَفُس وعَزّ[2]. قال الراغب: وكلّ شيء شرُفَ في بابه فإنّه

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن، مادة «أصل».

٢ . المصباح المنير، مادة «كرم».

يوصف بالكرم[1]. لكنّ بعضهم ذكر أنّ الشرافة أكثر ما تستعمل في العلوّ و الامتياز المادي، فلا يقال: إنّ الله تعالى شريف[2]. وذكروا في معنى «الكرم»: إنّ الكرامة تقابل الهوان والذلّة. وقد جاء التقابل بينهما في القرآن الكريم أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾[3]، ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[4]. فالشيء هو كريم ومحمود الذكر بقدر ما هو بعيد عن الهوان، منزّه عن الحقارة.

المنعِمون بالكرامة

وُصف الأئمّة عليهم السلام في هذه الفقرة بأصول الكرم؛ لأنّهم الواسطة في إفاضة خيرات وبركات الوجود كافّة، الماديّة والمعنويّة: «بكم فتح الله، وبكم يختم، وبكم يُنزل الغيث، وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه...»[5]، وما كرمت الملائكة الذين هم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[6]، إلا لتعلّمهم من تلك الذوات المقدّسة، بل الأنبياء، بل وكلّ من سوى الله تعالى هم متعلّمون لديهم.

قال عليّ عليه السلام في بعض خطبه: «إنّا ـ آل محمد ـ كنّا أنواراً حول العرش، فأمرنا الله بالتسبيح فسبّحنا، فسبّحت الملائكة بتسبيحنا، ثمّ أهبطنا إلى الأرض فأمرنا الله بالتسبيح فسبّحنا فسبّحت أهل الأرض بتسبيحنا؛ فإنّا لنحن الصّافّون وإنّا لنحن المسّبحون»[7].

---

١ . مفردات غريب القرآن، مادة «كرم».

٢ . التحقيق في كلمات القرآن، مادة «كرم».

٣ . الحج: ١٨.

٤ . الفجر: ١٥ ـ ١٦.

٥ . الزيارة الجامعة.

٦ . الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

٧ . بحار الأنوار، ج٢٤، ص٨٨.

فكلّ موجودات عالم الإمكان متحلّقة حول مائدة كرم الأئمّة عليهم السلام.

إشارات

١ ـ معنى الكرم

كان المعلّم العزيز العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه يكرّر في مجلس درسه قوله: لا يوجد في اللغة الفارسيّة كلمة بمفردها تعادل معنى «الكرامة»، ولا بدّ لبيان معناها من الاستعانة بعدد من الكلمات، ثمّ يقول: إذا حظي المرء بمقام العبوديّة الخالصة لله تعالى، والإباء عن الخضوع والطاعة لغيره سبحانه، فقد حظي بمقام الكرامة.

وتوضيح كلامه: إنّ المرء كلّما اقترب من العبوديّة المحضة ابتعد ـ وبالمقدار نفسه ـ عن الهوان والذلّ وحظي بالكرامة، فإذا ما تحلّى بالعبوديّة الكاملة فقد برء كاملاً من الهوان، وتلك هي الكرامة المطلقة؛ وإن لم يكن له حظّ في العبوديّة فهو مهين مطلق، ولا نصيب له في الكرامة.

ملاحظة: المراد من الاطلاق في قولنا «الكرامة المطلقة» الاطلاق بلحاظ المرتبة الوجوديّة للإنسان؛ لأنّ الاطلاق الحقيقي هو لله تعالى لا غير.

وقد وصف القرآن الكريم عدداً من المخلوقات والأشياء بالكرامة:

﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[1]، ﴿لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[2]، ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[3]، ﴿زَوْجٍ

---

١ . التكوير: ١٩. الحاقة: ٤٠.

٢ . الواقعة: ٧٧.

٣ . الدخان: ٢٦.

كَرِيمٍ﴾[١]، ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٢]، ﴿أَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[٣]، ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾[٤]، ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٥]، ﴿قَوْلاً كَرِيماً﴾[٦]، ﴿مُدْخَلاً كَرِيماً﴾[٧]، إلىٰ غير ذلك.

ولكن لا شيء من الموجودات منزّه ومبرّء من الهوان كتنزّه الله سبحانه، فهو ليس كريماً وحسب، بل هو الأكرم علىٰ الاطلاق: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾[٨].

٢ ـ مكارم الأخلاق

بناءً علىٰ ما ذُكر، يتّضح أنّ الكرامة صفة لكلّ شيء جميل حميد حسن؛ لذا يقال للخصال المرضيّة «مكارم الأخلاق»، فلا تختصّ بالعطاء والجود، وفي الحديث: «بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[٩]. ولأنّ الرسول ذو أخلاق رفيعة قيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١٠]، والذوات النورانيّة لأهل بيت العصمة وذات النبي الأكرم ﷺ نورٌ واحد، فهم بحقّ ذوو الخُلق العظيم وأصول المكارم.

وكما للتنزّه عن الهوان درجات، للكرامة درجات أيضاً، وكلّ موجود كريمٌ بقدر ما هو مبرّء من الهوان.

---

١ . لقمان: ١٠.

٢ . سبأ: ٤.

٣ . يس: ١١.

٤ . النمل: ٢٩.

٥ . يوسف: ٣١.

٦ . الاسراء: ٢٣.

٧ . النساء: ٣١.

٨ . العلق: ٣.

٩ . بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٧٢.

١٠ . القلم: ٤.

وقادة الأمم

كلمة «قادة» جمع قائد، اسم فاعل للفعل «قاد يقود» على وزان «قال يقول»، وهو مشتقّ من «قود». قال الخليل بن أحمد: «القود نقيض السوْق، يقود الدابة من أمامها ويسوقها من خلفها، والقِياد: الحبل الذي تقود به دابة أو شيئاً»[1].

والمفردتان تفيدان معنى القيادة والدلالة والإيصال إلى المقصد، والفرق أنّ إحداهما تستعمل لذلك فيما إذا كان القائد أمام المقود، والأخرى فيما إذا كان خلفه، والهداية بمعنى الدلالة على الطريق، سواء كان الهادي مصاحباً فيه (بنحو القيادة كانت أو بنحو السوق)، أم لا، بل يدلّ عليه بالعلامات أو الخارطة مثلاً.

«الأمم» جمع «أمّة» مشتّق من «أمّ» بمعنى القصد الخاص، فالأمّة بمعنى المجموعة الخاصّة التي تُقصد وتؤمّ، سواء كانت جماعة من أفراد، أم حصصاً من أزمنة، أم مجموعة من العقائد والأفكار، وما شابه ذلك. وقد استعمل القرآن

---

١ . كتاب العين، مادة «قود».

الكريم لفظ «الأمّة» في فرد واحد: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ﴾[١]؛ لأنّه وحدَه قام بعمل أمّة، وكان مربّي أمم، ولا توجد أمّة تضاهيه في البركات الوجوديّة، فهو أبو موحّدي العالم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢]، وهو شيخ الأنبياء المعروفين بالأنبياء الإبراهميين.

وفي شأن عبد المطلب، قال الإمام الصادق عليه السلام: «يُحشر عبد المطلب يوم القيامة أمّة واحدة، عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك»[٣].

وقراءة التاريخ تدلّ على دور تاريخيّ مؤثّر وكبير لجدّ رسول الله.

وقد أطلق القرآن عنوان «أمّة» على غير الإنسان أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[٤].

القادة الربّانيين للبشريّة

الأنبياء والقادة الربّانيّون هم قوّاد الناس، وليسوا سائقيهم؛ لأنّهم يقدمونهم ويدعون الناس للسير وراءهم، لا أنّهم يقفون ويقولون لهم: الطريق من هنا، اذهبوا واحذروا السقوط، ونحن على الأثر!.

قال تعالى لنبيّه الأكرم: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[٥].

و«تعالوا» جمع «تعال» بمعنى أن يُدعى الإنسان إلى مكان مرتفع، ثمّ جُعل للدعاء إلى كلّ مكان، وقد حكى الراغب عن بعضهم أنّ أصله من «العلو»، فكأنّه دعا إلى ما فيه رفعة[٦].

---

١ . النحل: ١٢٠.

٢ . الحج: ٧٨.

٣ . أصول الكافي، ج١، ص٤٤٧، ح٢٢و٢٣؛ بحار الأنوار، ج١٥، ص١٥٧، ح٨٤و٨٥.

٤ . الأنعام: ٣٨.

٥ . الأنعام: ١٥١.

٦ . مفردات غريب القرآن، مادة «علا».

لكنّ العرب في هذه الأعصار يستعملونها في الدعاء إلى كلّ مكان.

وكيف كان؛ إنّ الذي يصحّح استعمال هذه المفردة كون الداعي بها متقدّماً في مكان ماديّ أو مكانة معنويّة، ويدعو غيره للالتحاق به، وأمّا من يأمر غيره بالتقدّم أو التأخّر من دون أن يصدر منه أيّ فعل، فلا يصدق عنوان «الداعي» عليه.

وبهذا الإيضاح يتبيّن معنى آية سورة الأنعام السابقة الذكر؛ فبعد أن طوى رسول الله ﷺ المسيرة التكامليّة وتقدّم الناس فيها، أمره تعالى بدعوتهم إليه، وأن يقول لهم: هلمّوا إليّ لأتلو وأبيّن لكم ما يصدّكم عن تكاملكم وما حرّمه عليكم ربّكم.

فالرسالة الضمنيّة لهذه الآية هي إنّ رسول الله ﷺ سبق الناس وعمل بما دعاهم إليه قبل أن يدعوهم، لا أنّه أمرهم بالعمل أولاً ومن ثمّ سيعمل ويلحق بهم.

عموم قيادة الأئمّة

وُصف الأئمّة عليهم السلام في هذه الفقرة من الزيارة بأنّهم «قادة الأمم»، قيادة عامّة تسع أيّ نوع قيادة، الماديّة والمعنويّة، كما أنّ عنوان «الأمم» عام أيضاً، يشمل مختلف الأمم والجماعات، فتنعّمُ كلّ أمّة ـ في كلّ زمان ومكان ـ بالفيض الماديّ أو الوجوديّ، هو ببركة وجود الأئمّة الأطهار.

وسرّ ذلك أنّ أئمة النور عليهم السلام هم ينابيع كلّ فيض إلهي، التكوينيّ منه والتشريعيّ، وبواسطتهم يتمّ ربط عالم الإمكان بالواجب تعالى، وبما أنّ فيض الله تعالى عام وشامل لكلّ الأمم بدون استثناء؛ فلا يمكن بحال أن ينزل من قِبله تعالى فيضٌ على ممكن وجوديّ بلا توسّطهم عليهم السلام.

ولا فرق في ذلك بين الفيض الواصل إلى الملائكة أو البشر أو الحيوانات أو النباتات والجمادات، فالمطر ـ وهو فيض مادي تستفيد منه الموجودات كلّها، وكم من فيوض معنويّة تقترن به أيضاً ـ يُفاض بيمنهم وواسطتهم، كما صرّحت به هذه الزيارة الجامعة نفسها «بكم... يُنزّل الغيث».

إنّ أهمّ فيض إلهي تهدف هذه الفقرة إلى بيانه وتعنى بتسليط الضوء عليه فيضٌ معنويّ، وهو فيض الهداية واستكشاف مسار الحركة الإلهيّة.

ولا يسع أحد أن ينكر دور الأئمّة الأطهار عليهم السلام في هداية البشريّة نحو الصراط المستقيم في مرحلة الوساطة في تنزّل الوحي، وفي غيرها من المراحل، والسعي الحثيث في تبليغ وتبيين رسالة الوحي، والجهاد لتنفيذها.

وكما ذُكر قبل قليل؛ فإنّ الفيض الواصل عام، فهم عليهم السلام لا يهدون الشيعة وحسب، بل هم ـ كما في صريح هذه الزيارة ـ حماة الأمم كافّة، الذين يذودون عنها كلّ شين وقبيح «الذادة الحماة»، وهم عليهم السلام يقودون الأمم الأخرى بما يناسب حالها واستعدادها. وكلّ أحد يهتدي، من أيّ أمّة كان، وفي أيّ زمان ومكان، فإنّما يهتدي بهدايتهم وإرشادهم، كما أنّ كلّ ضالّ إنّما يضلّ بسبب عصيانه لتعاليمهم، كما جاء في الرواية عنهم:

«... فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله باب الله الذي لا يؤتى إلاّ منه، وسبيله الذي من سلكه وصل إلى الله، وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وجرى في الأئمّة واحداً بعد واحد. جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وعمد الاسلام ورابطه على سبيل هداه، ولا يهتدي هادٍ إلاّ بهداهم، ولا يضلّ خارج من هدى إلاّ بتقصير عن حقّهم، وأمناء الله على ما أهبط من علم أو عذر أو نذر، والحجّة البالغة على من في الأرض...»[١].

---

١ . أصول الكافي، ج١، ص١٩٨، باب أنّ الأئمّة هم أركان الأرض، ح٣.

ويُفهم من عبارة «ولا يهتدي هادٍ إلاّ بهداهم» أنّ هدى الأمم السابقة أيضاً كان بفضل طاعتها للأئمة الأطهار عليهم السلام، لكن بواسطة طاعتها لأنبيائها.

وبيان ذلك:

إنّ الرسل السابقين كانت لهم واسطة في تلقي فيض الوحي الإلهي، وهي نور وجود الأئمّة عليهم السلام، ولولا نورهم لحُرم الأنبياء السابقون من الوحي. قال غوّاص بحار أنوار الأئمّة الأطهار العلاّمة المجلسي في شرح أول أحاديث أصول الكافي: «قد ثبت في الأخبار أنّ جميع العلوم والحقائق في المعارف بتوسّطهم يفيض على سائر الخلق حتى الملائكة والأنبياء. والحاصل أنّه قد ثبت بالأخبار المستفيضة: إنّهم عليهم السلام الوسائل بين الخلق وبين الحقّ في إفاضة جميع الرحمات والعلوم والكمالات على جميع الخلق، فكلّما يكون التوسّل بهم والإذعان بفضلهم أكثر كان فيضان الكمالات من الله تعالى أكثر...»[١].

وعلى هذا فطاعة وعصيان الأمم الخالية وإن كان حسب الظاهر هو لرسلها، وبذلك تكون مهتدية أو غاوية؛ لكنّ واقع هذه الطاعة وهذا العصيان، والهداية والغواية، يرجع إلى نور الأئمّة الأربعة عشر المعصومين.

بل إنّ شعاع قيادة وإمامة تلك الذوات النورانيّة تتخطّى عالم البشريّة لتشمل مجموعة نظام الكون، بكلّ موجوداته ومخلوقاته.

أمثلة لإمامة الأئمّة

* روى أبو الصباح الكناني قال: صرت يوماً إلى باب أبي جعفر، فقرعت الباب، فخرجت إليّ وصيفة ناهد، فضربت بيدي على رأس ثديها، فقلت لها: قولي لمولاك إنّي بالباب، فصاح من آخر الدار: ادخل لا أمّ لك، فدخلت وقلت: والله ما

١. مرآة العقول، ج١، ص٣٠.

أردت ريبة ولا قصدت إلاّ زيادة في يقيني، فقال عليه السلام: صدقت؛ لئن ظننتم أنّ هذه الجدران تحجب أبصارنا كما تحجب أبصاركم إذاً لا فرق بيننا وبينكم، فايّاك أن تعاود لمثلها[١].

* وعن أبي بصير قال: كنت أقرئ امرأة القرآن بالكوفة، فمازحتها بشيء، فلمّا دخلت على أبي جعفر عليه السلام عاتبني، وقال: من ارتكب الذنب في الخلاء لم يعبأ الله به، أيّ شيء قلتَ للمرأة؟ فغطّيت وجهي حياء وتبت، فقال أبو جعفر عليه السلام: لا تعد[٢].

* وعن صفوان بن مهران الجمّال قال: دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام فقال لي: يا صفوان! كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً، قلت: جعلت فداك أيّ شيء؟ قال: إكراءك جمالك من هذا الرجل ـ يعني هارون ـ قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للّهو، ولكن أكريته لهذا الطريق، يعني طريق مكّة، ولا أتولاه بنفسي، ولكنّي أبعث معه غلماني. فقال لي: يا صفوان! أيقع كراك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك، قال: فقال لي: أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قلت: نعم، قال: فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو ورد النار...[٣].

إنّ هذه المراقبة الخاصّة منهم عليهم السلام لشيعتهم لتصحيح سلوكياتهم وتذكيرهم في الوقت المناسب، هي مظهر من مظاهر إمامتهم وقيادتهم لهم.

ومن مظاهر إمامتهم وهدايتهم للمعاندين ما فعله الإمام المجتبى عليه السلام مع ذلك الشاميّ المعادي المتنفّر منه ومن أبيه عليهما السلام، فقد عامله باللطف والكرم، فعرف

---

١ . بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٤٨، ح٤٠.

٢ . بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٤٧، ح٣٥.

٣ . بحار الأنور، ج٧٢، ص٣٧٦، ح٣٤.

الرجلُ الشاميّ خطأه[١]. وكذلك ما ظهر من خُلق الإمام الحسين عليه السلام مع الحرّ قائد جيش عدوّه، ونصيحته لجيش اللعين ابن سعد حتىٰ صبح يوم عاشوراء، وما شابه ذلك ممّا نراه في حياة الأئمّة المعصومين كلّهم، كلّ ذلك مظاهر إمامتهم لأولئك المعاندين.

قيادة الأعمال

ما سبق ذكره كانت مظاهر لقيادة الأئمّة في مجال الأخلاق والعقيدة والاجتماع، ويوجد مجال آخر لقيادتهم، وهو مجال «أعمال وعبادات» عباد الله، وبيان ذلك في نقاط:

أولاً: بحسب نظريّة تجسّم الأعمال؛ فإنّ لكلّ عقيدة وخُلق وعمل لنا حقيقةً وواقعاً خارجيّاً، فليست هي اعتبار محض لا واقع لها.

ثانياً: إنّ هذه الأعمال والعقائد والأخلاق تصعد إلىٰ الله تعالىٰ: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[٢].

والنتيجة: إنّ هناك مساراً معيّناً تسلكه الأعمال الصالحة لتصل إلىٰ الله تعالىٰ، وبما أنّ كلّ سلوك بحاجة إلىٰ هادٍ ودليل يكون مسانخاً للسالك نفسه، والعمل الجدير بقيادة هذا السير، والقادر علىٰ إيصال أفضل وأحسن أعمال السائرين إلىٰ منتهاها؛ ما هو إلا عبادة وعمل الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

وعلىٰ هذا فإنّ الصلاة أول الوقت في واقع الأمر اقتداء بإمام الزمان[٣]؛ لأنّ إمام

---

١. انظر: بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٢٤.

٢. فاطر: ١٠.

٣. لا نعني بالاقتداء هنا المعنىٰ الفقهي له المذكور في باب صلاة الجماعة؛ إذ إن اختلاف الآفاق يحول بين تحقّق دخول الوقت في البقاع كلّها في وقت واحد، بل بمعنىٰ أنّ المصلي أول الوقت قد تابع إمام زمانه واقتدىٰ به [في سير صلاته الصاعدة].

كلّ دورة زمانيّة يؤديها أول وقتها، فمن يؤديها كذلك فقد اقتدىٰ به، وهذا الاقتداء يعنىٰ إمامة صلاة الإمام لصلوات العباد في صعودها إلىٰ الله وتقرّبها منه تعالىٰ، ومن ثمّ إيصالها إلىٰ محضر الربوبيّة المقدّس، مع حفظ الرتب بينها، فصلاة الإمام إمام الصلوات، وزكاته إمام الزكوات، وحجّه إمام الحجّات. والحاصل: إنّ سنّته وسيرته إمام لسنن وسير المقتدين به.

أمير الحاج

قال الإمام الصادق عليه‌السلام: «يفقد الناس إمامهم، يشهدهم الموسم فيراهم ولا يرونه»[١]، وقال محمد بن عثمان العمري، وهو أحد السفراء الأربعة لأمام العصر عجل‌الله‌فرجه: والله إنّ صاحب هذا الأمر يحضر الموسم كلّ سنة، فيرىٰ الناس ويعرفهم، ويرونه ولا يعرفونه[٢].

ملاحظة: يحدث أن تقام شعيرة الحجّ في بعض المواسم بدون حضور الإمام حسب ظاهر الحال، كما حدث في سنة ٦٠ هجري، حيث لم يكن الإمام الحسين عليه‌السلام حاضراً، وكذلك أثناء محنة الإمام الكاظم عليه‌السلام عندما كان مسجوناً وقت الحج، وحدث أيضاً في السنوات التي قضاها الإمام الرضا عليه‌السلام في خراسان، ولم يحجّ الإمام الحسن العسكري عليه‌السلام في زمن إمامته بحسب الظاهر، بسبب الحصار الأمني المضروب عليه من قِبل الحكومة آنذاك.

وفي هذه الموارد يمكن القول: إنّ تلك الذوات المقدسة عليهم‌السلام تحضر الحجّ حضوراً خفيّاً، كحضور الإمام السجاد عليه‌السلام لدفن الإمام الحسين وحضور إمام العصر عجل‌الله‌فرجه في مواسم الحجّ كلّ سنة.

---

١. أصول الكافي، ج١، ص٣٣٧، ح٦.

٢. بحار الأنوار، ج٥٢، ص١٥٢.

أو يقال: إنّ أولياء الطريق وكمّل العباد يحجّون عنهم ويتولّون إمارة الحجّ.

وكيف كان، فهم قادة الأمم، يقودون الأمم وأعمالها في كلّ الحالات بالنحو المناسب لكلّ أمّة. ولكن، المستفيدون من هذا النسيم الربّانيّ وهذه القيادة هم من يضعون أنفسهم في مسار هذه القيادة والهداية، كما أنّ الهداية الإلهيّة لا تأخذ بيد إلاّ من يفتح قلبه لسماء المعنىٰ ليهب لهم شعاع الوحي الإلهي حياةً جديدة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

و«التقوىٰ» في هذه الآية ـ بأيّ معنىٰ فسّرت ـ تدلّ علىٰ أنّ هداية القرآن ليست مطلقة ومباحة للكلّ، بل هي خاصّة لمن يُبقي سمعه مفتوحاً لآياته.

ومن المجالات الأخرىٰ لقيادة الأئمّة عليهم السلام المجال السياسي، وسيأتي شرح ذلك في فقرة «ساسة العباد»، وسيتّضح أكثر معنىٰ قيادتهم الفكريّة والعقديّة في الأبعاد المختلفة للوحي والتشريع في ثنايا شرح الفقرات الآتية.

إشارات

١ ـ معنى السوْق

ورد التعبير بالسوْق في شأن أصحاب الجحيم وفي شأن أصحاب النعيم، قال تعالىٰ:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾[3].

---

١ . البقرة: ٢.

٢ . الزمر: ٧١.

٣ . الزمر: ٧٤.

لكن يجب معرفة:

أولاً: إنّ القرآن الكريم شبّه الجهنّميين بالحيوانات: ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ**﴾[١]، ﴿**أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ**﴾[٢]، وفي الرواية عن الرسول الأكرم ﷺ في قوله تعالى: ﴿**فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً**﴾[٣] قال: «يُحشر عشرة أصناف من أمّتي أشتاتاً، قد ميّزهم الله من المسلمين وبدّل صورهم، بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير و...»[٤].

ثانياً: إنّ العادة جارية على سوق الحيوانات سوقاً لنقلها من مكان إلى آخر (بالازعاج). والجهنميّون يُساقون إلى جهنم كسوْق الحيوانات، وأمّا أصحاب الجنّة فكما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٥].

ويستفاد من آخر الآية ٧٣ من سورة الزمر أنّ الجنّة تفتّح أبوابها لأصحاب النعيم، وتأتي الملائكة خزنة الجنّة لاستقبالهم، وتتلقّاهم بالسلام والترحيب والبشارة بالخلود فيها: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾[٦].

ويُفهم من هذه الآيات أنّ ملائكة البرزخ تأتي أيضاً لاستقبالهم والترحيب بهم حين ورودهم الجنّة البرزخيّة ـ التي هي معبر القيامة الكبرى ـ ويرافقونهم حتى دخول الجنّة.

---

١. الفرقان: ٤٤.

٢. الأعراف: ١٧٩.

٣. النبأ: ١٨.

٤. مجمع البيان والدرّ المنثور، في تفسير الآية المذكورة.

٥. النحل: ٣٢.

٦. الزمر: ٧٣.

وبمقتضى العادة الجارية فإنّ فريق الاستقبال المرحّب بالقادمين الجدد سيقف بعد مراسم الاستقبال خلف المستقبَلين، وسيصحبهم حتى الوصول إلى المقصد. فهم سيكونون في المقدمة والملائكة تشيّعهم من ورائهم إلى أن يبلغوا الجنّة؛ وبهذا يكون التعبير بالسوّق في شأن أهل الجنّة صحيحاً أيضاً، مع خلوّه عن الإزعاج.

٢ ـ كيفيّة قيادة الأمم السابقة

مرّ عليك القول بأنّ قيادة الأئمّة الأطهار عليهم السلام قيادة عامّة وأنّها تعمّ كلّ أمّة وكلّ عصر، فقيادتهم تشمل الأمّم المعاصرة لهم وكذلك السابقة واللاحقة.

والسؤال هنا هو: إنّ تصوّر قيادتهم للأمم المعاصرة والآتية بعدهم لا صعوبة فيه؛ ولكن يصعب جدّاً تصوّرها للأمم الخالية، إذ كيف يمكن تعقّلها والأئمّة عليهم السلام لم يُخلقوا بعد؟!

ومثل هذا السؤال يرد أيضاً في شأن زيارة الصدّيقة الطاهرة، فقد جاء في زيارتها الخاصّة: «السلام عليكِ يامتحنة، امتحنكِ الذي خلقكِ قبل أن يخلقكِ، وكنتِ لما امتحنكِ به صابرة...»، فكيف يكون الامتحان قبل الخلق؟

والجواب:

إنّ النشأة التي نحياها الآن هي آخر مراتب الوجود وأدناها درجة، فلا مرتبة بعدها، وليس بعدها إلاّ العدم؛ لذا سُمّيت هذه النشأة الطبيعيّة بـ «الدنيا»[1]. وقبل هذه المرتبة الوجوديّة الدنيا مراتب أقوى وأرقى من الوجود، وترتيب الخلقة في تلك المراتب قائم على أساس سعة الوجود وشدّته. وبما أنّ «نظام الخِلقة» الجاري فيها يختلف كليّاً عن النظام الجاري في هذه النشأة؛ فلا ضير في تقدّم خِلقة الولد

---

١ . «دنيا» على وزان «فعلى» مؤنث «أدنى» اسم تفضيل، وبمعنى أنزل رتبة ومقاماً، وقد يُعبّر عن «الدنيا» بـ «منعل عالم الوجود».

علىٰ أبيه[١]. وفي تلك المراتب الوجوديّة العليا خُلق الأربعة عشر المطهّرون عليهم السلام قبل غيرهم، كما جاء في الرواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، قال: «أوّل ما خلق الله نوري»[٢].

وجاء في رواية أخرىٰ إنّه كان صلى الله عليه وآله جالساً مع بعض أصحابه فأقبل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: مرحباً بمن خلقه الله قبل أبيه بأربعين ألف سنة، قال [الراوي]: فقلنا: يا رسول الله! أكان الابن قبل الأب؟ فقال: «نعم، إنّ الله خلقني وعليّاً من نور واحد قبل خلق آدم بهذه المدّة، ثمّ قسمه نصفين، ثمّ خلق الأشياء من نوري ونور عليّ عليه السلام، ثمّ جعلنا عن يمين العرش، فسبّحنا فسبّحت الملائكة، فهلّلنا فهلّلوا، وكبّرنا فكبّروا، فكلّ من سبّح الله وكبّره فإنّ ذلك من تعليم عليّ عليه السلام»[٣].

وثمّة نظائر كثيرة لهذه الرواية مبثوثة في الجوامع الحديثيّة، وهي تدلّ علىٰ المراتب الوجوديّة المتقدمة علىٰ نشأة الدنيا.

ففي الجواب هنا يقال: إنّ قيادتهم للأمم السابقة عليهم في هذه النشأة بدأت في تلك المراتب الأوليّة، وما نشأة هذه الدنيا إلاّ ظلّ لتلك النشئات؛ وبهذا البيان يتّضح إنّ السابق هو القائد اللاحق، وليس العكس.

ومن لسان هذه الروايات تتّضح أيضاً قيادتهم وإمامتهم للملائكة أيضاً، وقيادتهم عليهم السلام في سائر عوالم الوجود (عالم الذر والأرواح و...). وإذا كانت الملائكة ـ وهي موجوات أرقىٰ وأقوىٰ وجوداً من عامّة البشر ـ واقعة تحت قيادتهم؛ فمن باب أولىٰ دخول الجنّ تحتها أيضاً.

---

١ . بمعنىٰ أن يكون هو الأب التكويني له لاحقاً في نشأة الدنيا، إذ لا معنىٰ للأبوّة والبنوّة في تلك النشئات بالمعنىٰ المعروف في هذا النشأة.

٢ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٢، ح٣٨.

٣ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٤.

وهناك تصوير آخر لقيادة الأئمّة للأمم السابقة عليهم، وبيانه: إنّ كلّ رسول هو قائد أمّته وشهيد على أعمالها، والرسول الأكرم محمّد ﷺ شهيد على الرسل كافّة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً﴾[١]، فهو ﷺ شاهد بالواسطة على أعمال الأمم السابقة، وقائد غير مباشر لها، وبما أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام خلفاؤه فهم القائمون بالشهادة عليهم وعلى قيادتهم.

وأمّا الجواب عمّا جاء في زيارة سيدة العالمين فإنّ الامتحان قبل خلقها بمعنى أنّ حبيبة رسول الله ﷺ كانت في تلك النشأة العليا بحال لو ظهرت بها في هذه النشأة لكانت حال امتحان، وأمّا ما هي تلك «الحال»؟ فعلمه عند أهله.

---

١ . النساء: ٤١.

وأولياء النعم

كلمة «أولياء» جمع «وليّ»، مشتقّ من المادة «وَلِيَ» بمعنى مجيء الشيء خلف شيء آخر، بحيث يكون بينهما نوع صلة، ولا يكون بينهما شيء يفصل بينهما[1]؛ فلا يقال للشيئين المتجاورين اللذين لا صلة بينهما أنّ أحدهما «وليّ» الآخر.

ولا فرق في تلك الصلة بين كونها صلة حسنة أو سيئة (وإن كانت الصلة السيئة بين موجودي السوء حسنة في ظنّهما)؛ ولذا استعمل القرآن الكريم كلمة «الأولياء» في الصلة مع الله سبحانه وتعالى وفي الصلة مع الشيطان.

ثمّ إنّ الشيئين المتقاربين المتّصلين ـ المحسوسين أو المعنويين ـ يتفاوتان فيما بينهما، وهذا التفاوت تارةً يكون من حيث المرتبة الوجوديّة، كما في العلّة والمعلول، فإنّ للعلّة تقدماً وجوديّاً على المعلول، وفي علّة العلل ـ وهو الله سبحانه ـ يُضاف إلى

---

١ . وقوع شيء وراء شيء مع رابطة بينهما... كما أنّ الشيئين أعمّ من أن يكونا مختلفين وجوداً أو بلحاظ المحلّ والاعتبار. والرابطة أيضاً أعمّ من أن تكون حسنة أو سيئة (التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج١٣ و١٤، مادة «ولي» وانظر أيضاً مفردات غريب القرآن.

ذلك التفاوتُ في «ذاتيّة الوجود وعدم تناهيه»، فإنّ وجوده تعالىٰ ذاتيّ ووجود غيره عرَضيّ. وتارةً يكون التفاوت من حيث المحلّ، كما في المعلولين أو السببين المتجاورين. وتارةً يكون من حيث الاعتبار، كما في الصورتين العلميّتين الذهنيّتين، نضعهما جنباً إلىٰ جنب في عالم الاعتبار الذهنيّ؛ لنحصل منهما علىٰ نتيجة معيّنة.

والشيئان المرتبطان ببعضهما تارة يكون ترابطهما متوافق الأطراف وأخرىٰ متخالف؛ التوافق بمعنىٰ كون الترابط متبادلاً بينهما علىٰ سواء، كما في «الأخوّة» مثلاً، فإذا كان زيد أخ بكر فإنّ بكراً أيضاً أخ له بنفس الدرجة من الأخوّة. والتخالف بمعنىٰ كون الرابطة من طرف واحد، كما في «الأبوّة والبنوّة» مثلاً، فإذا كان حسن أباً لتقيّ فإنّ تقيّاً لن يكون أباً له، بل ابن.

فالنحو الأول يقال له: رابطة المحبّة والنصرة والمعونة، وما شابه، بحيث يكون التأثير والتأثّر متبادلاً. والنحو الثاني يقال له: رابطة الرعاية والقيادة، بحيث يكون التأثير من طرف واحد والتأثّر من الطرف الآخر. وقال البعض: الوِلاية ـ بكسر الواو ـ بمعنىٰ النصرة، والوَلاية ـ بفتحها ـ بمعنىٰ المسؤوليّة والرعاية. وقال بعض آخر بعدم الفرق بين الكلمتين، وأنّهما بمعنىٰ واحد هو: المسؤوليّة وتولّي زمام الأمور[١].

والرابطة الاجتماعيّة المنعقدة بين أفراد المجتمع من النحو الأول، والرابطة المنعقدة بين الله سبحانه ومخلوقاته من النحو الثاني؛ لأنّ الله تعالىٰ له أن يؤثر فيها ولكنّها لا تستطيع التأثير فيه سبحانه، ولا تملك إلاّ أن تتأثّر. ثمّ إنّ الله تعالىٰ جعل ولاية الأمر للأنبياء والأئمّة عليهم السلام، فقال تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**[٢]، وجعلها أيضاً في

---

١ . «الوَلاية النّصرة والوِلاية تولّي الأمر. وقيل: الوِلاية والوَلاية نحو الدِلالة والدَلالة، وحقيقته تولّي الأمر» (مفردات غريب القرآن، مادة «ولي»).

٢ . المائدة: ٥٥.

الدرجات الدنيا للحاكم العادل وللأب والأمّ.

والمسؤولية الأساسية في ولاية الأمر هي التدبير والتخطيط السليم؛ لأنّه بدون ذلك سوف يقع الهرج والمرج فيمن هو تحت الولاية، أفراداً أو مجتمعات أو أيّ شيء كان. فالدولة ـ مثلاً ـ ما لم تحكم الخطط الاقتصادية فسوف يبتلي بعض الشعب بأسقام التخمة وملء البطون ويبتلي البعض الآخر بالفقر والأمراض لضيق ذات اليد وخواء البطون. وربما مكث الأولون حيناً من الدهر في متعة وإسراف وتبذير ثمّ يأخذ بتلابيبهم الفقر والفاقة! فأولياء النعم هم مَن ببركتهم تقدّر النعم الإلهيّة، لتصل إلى الموجودات بتخطيط وتدبير.

و«النِّعَم والأنعم» جمع نعمة، مشتقّتان من المادة «نعم»، بمعنى رغد العيش وحُسن الحال، أعمّ من أن يكون في أمر ماديّ أو معنويّ. و«نعمة» على وزان «جِلسة» تدلّ على تنعّم خاص، كما يقال: إنّ «جِلسة» تدلّ على هيئة خاصّة من الجلوس، يقال: جلست جِلسة الأمير.

والتآلف بين قلوب المؤمنين نوع خاص من النّعَم وطيب الحياة، كما قال تعالى: **﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾**[١]. ودفع سلطة الأجنبيّ عن الشعوب الإسلاميّة نوع آخر من أنواع النّعَم، كما قال تعالى: **﴿اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾**[٢].

والفرق بين كلمتي الجمع «أنعُم ونِعَم» إنّ «أنعُم» جمع قلّة، وتستعمل غالباً في الأقلّ من عشرة، و«النِعم» جمع كثرة، وتستعمل للدلالة على النّعم الوافرة الكثيرة[٣].

---

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. المائدة: ١١.

٣. التحقيق، مادّة «نعم».

هذا وقد ضرب القرآن الكريم للناس ـ من أجل موعظة مخاطبيه ـ مثال القرية التي كان أهلها مؤمنين، وقد أنعم الله عليهم بنعمة الأمن الظاهريّ ﴿آمِنَةً﴾ والأمن الباطنيّ ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ وبالرزق المبسوط ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، لكنّها كفرت بأنعم الله تعالى ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[1]. ثمّ أوصى الله تعالى المؤمنين بشكر نعمه، وفي ثنايا وصيّته ذكر أنّ إبراهيم كان ﴿شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ﴾ التي كفر بها أصحاب القرية، فكان جزاؤه أن ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

وحينما يخاطب القرآن مجموع البشريّة يذكر لهم أنّه تعالى ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[3] وليس هذا وحسب؛ بل إنّه تعالى تفضّل عليكم بالنعم المعنويّة علاوة على النعم المادّية؛ لأنّه ﴿أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. وعليه فإنّ كلمة «نِعَم» تدلّ على نعم إلهيّة كثيرة. وإذا ما حُلّيت بـ «ال»، ولم يكن في البين عهد ذهنيّ ولا ذكريّ ولا خارجيّ فهي دالّة حينئذ على النّعم الإلهيّة كلّها، المادّية والمعنويّة، ولن تبقى نعمة إلاّ وشملتها[4].

وليّ نعم نظام الوجود

خلاصة الكلام في بيان كون الأئمّة الأطهار عليهم السلام أولياء النِّعَم هو إنّ النعم، المادّية والمعنويّة، فيوض إلهيّة تُفاض على عباد الله وسائر الموجودات بواسطة الملائكة المدبّرة لأمر نظام العالم، وهذه الملائكة مؤتمرة بأمر الإنسان الكامل وهو

١. النحل: ١١٢.

٢. النحل: ١٢١.

٣. لقمان: ٢٠.

٤. لأنّ الجمع المحلّى بالألف واللام يفيد العموم الاستغراقي.

الإمام، و«ما من أمر يهبطه الله في أمر مما يهبط له إلاّ بدأ بالإمام فعرض ذلك عليه»[١]. فالانتفاع من تلك الفيوض يتمّ بإرادته وإذنه، فإن أذنوا بها لموجودٍ نزلت الملائكة بها، وإلا فلا؛ فبهذا اللحاظ هم عليهم السلام أولياء نعمة عمّت مائدتها عالم الوجود بأكمله، وانتفع الجميع منها مادياً ومعنوياً.

وقد أكدت هذه الزيارة الشريفة في أعطافها على وساطة الأئمّة الأطهار عليهم السلام في إفاضة النعم المعنويّة، كما في الفقرات: موضع الرسالة، مختلف الملائكة، مهبط الوحي، خزّان العلم، أبواب الايمان، محالّ معرفة الله، معادن حكمة الله، حَفَظة سرّ الله، حمَلَة كتاب الله، أوصياء نبي الله، الدعاة إلى الله، الأدلاّء على مرضات الله، المظهرين لأمر الله ونهيه، و...

كما ذكرت وساطتهم عليهم السلام في إفاضة النّعم الماديّة، كما في فقرات: بكم ينزّل الغيث، بكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، بكم ينفّس الهمّ ويكشف الضرّ، بكم... أصلح ما كان فسد من دنيانا...[٢].

فيمكن القول: إنّ فقرة «أولياء النِّعم» من الفقرات المفسَّرة في متن هذه الزيارة ذاتها.

بيان آخر: جاء في التوقيع الشريف لوليّ العصر: «نحن صنائع ربّنا والخلق بعد صنائعنا»[٣]. وهضم هذا الكلام ليس صعباً على العلماء؛ لكنّه شديد الصعوبة على الشريحة المتوسّطة من الناس، لذا فإنّ تفسيره بنحو يعيه الكلّ ليس بتلك السهولة. لكنّ بيان أمير العرفاء أسلس وأيسر فهماً لعامّة الناس، حيث كتب عليه السلام في جواب إحدى رسائل إمام الضالّين الأموي معاوية بن أبي سفيان ـ بعد أن ذكر شيئاً من

١ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٥٧.

٢ . وهناك نعم تعدّ مادية ومعنوية في آن واحد.

٣ . بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٧٨.

فضائله وفضائل أهل بيته ـ: «وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس»، ثمّ دعاه إلى ترك ما هو فيه من غيّ وتيه فقال: «فدعْ عنك من مالت به الرميّة، فإنّا صنائع ربّنا والنّاس بعد صنائع لنا»[١].

يقول الشارح المعتزلي في شرحه هذه الفقرة: «هذا كلام عظيم عالٍ على الكلام، ومعناه عالٍ على المعاني، وصنيعة الملك من يصطنعه الملك ويرفع قدره. يقول: ليس لأحد من البشر علينا نعمة، بل الله تعالى هو الذي أنعم علينا، فليس بيننا وبينه واسطة، والناس بأسرهم صنائعنا، فنحن الواسطة بينهم وبين الله تعالى. و هذا مقام جليل ظاهره ما سمعت وباطنه أنّهم عبيد الله وأنّ الناس عبيدهم»[٢].

والخلاصة: إنّ عالم الوجود صنيع الأئمّة الأطهار عليهم السلام، بحسب دلالة التوقيع الشريف لولي العصر عليه السلام، والنّاس مصنوعون لأجل الأئمّة بحسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وبملاحظة كلّ واحد من هذين البيانين، يتبيّن دور تلك الذوات النورانيّة عليهم السلام في تنزّل الفيض الإلهي؛ إذ طبقاً للبيان الأول هم واسطة الفيض الإلهي، وطبقاً للثاني هم الغاية من أفضاله سبحانه، هذا.

ويوجد في رواياتنا نظائر كثيرة للبيان الثاني، فجاء في شأن إمام الزمان عليه السلام في دعاء العديلة[٣]: «ببقائه بقيت الدنيا، وبيُمنه رُزق الورى، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء»[٤].

---

١ . نهج البلاغة، الكتاب رقم ٢٨، الفقرة ١١.

٢ . شرح نهج البلاغة، ج١٥، ذيل الكتاب رقم ٢٨.

٣ . ذكر بعضهم أنّ هذا الدعاء من إنشاء أحد كبار علمائنا؛ لكن لم يقدح أحد في صحّة مضمونه وموافقته للقرآن والسنّة.

٤ . مفاتيح الجنان، ص١٦٧، دعاء العديلة.

وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار

كلمة «عناصر» جمع «عنصر»، مشتقّ من المادة «عصَر» بمعنىٰ استخلاص سائلِ الشيء وإخراجه منه، و«عنصر» علىٰ وزان فُنعُل ـ وقد يقال فُنعَل تسهيلاً ـ هو الأصل والنسب[1].

و«أبرار» جمع «بَرّ»، مشتقّ من المادة «بِرّ» بمعنىٰ الإحسان إلىٰ الغير، وتختلف مصاديقه باختلاف الأشخاص والموضوعات، فلكلّ شيء إحسان يناسبه.

وقد قابل القرآن الكريم بين الأبرار والفجّار، فقال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾[2]. والفاجر هو من يمزّق حجاب التقوىٰ والعدالة فيظهر منه الفسقُ والعدوان، ويقابله البَرّ، وهو من يحوط التقوىٰ والعدالة بعمل الصالحات وامتثال التكليف.

---

١. انظر: المصباح المنير، مادة «عصر».

٢. الانفطار: ١٣ ـ ١٤.

و«برّ» يختلف معناه عن معنى «بَرّ»، فإنّ الثاني بمعنى الصحراء وما يخالف البحر، ولكنّهما يلتقيان في الجذر اللغوي؛ لأنّ «البَرّ» خلاف البحر، و«البِرّ» بمعنى السعة في الأخلاق الفاضلة.

و«الدعائم» جمع «دعامة»، بمعنى العماد كالذي يُجعل في الدور والأبنية لمنع سقوطها. ولذا يقال لسيّد القوم «دعامة القوم»؛ لأنّه عمادهم الذي يحول دون فشلهم وانحرافهم. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلامه:

«فسوّى منه سبع سموات... بغير عمد يدعمها»[١].

وقال أيضاً: «ألا وإنّ الله سبحانه قد جعل للخير أهلاً وللحقّ دعائم»[٢].

و«أخيار» جمع «خيّر»، وهو المحسن البارّ.

و«الخير» ما يقابل «الشرّ»، وهو ما يُختار ويُنتخب من بين الأفراد، ويكون راجحاً على غيره بفضيلةٍ ما، وله مراتب[٣]. وبلحاظ مراتبه المتعدّدة ورد في الأدعية: «اللهمّ... وأعطني من الخير أفضل ممّا أرجو»[٤]. فعلى هذا يكون لكلمة «خير» معنى عامّ ومصاديق كثيرة، منها: الايمان والعمل الصالح، والإمامة والهداية والشفاعة في الدنيا والآخرة، والعلم والحلم والزهد والتقوى، والعبادة والعبوديّة، والشجاعة والسخاء، والقناعة والعفّة والحياء، والعفو والتغاضي... وكلّ ما هو راجح ومتعالي، سواء آل إلى العقيدة والأخلاق، أم إلى الأحكام والسلوك.

وسوف تُذكر بعض مصاديق «الخير» في تحت عنوان «إشارات» الآتي قريباً.

وبناءً على هذا، فمعنى «دعائم الأخيار» هو أنّهم عليهم السلام عمد خيمة الصالحين

---

١. نهج البلاغة، الخطبة الأولى، الفقرة ١٥ و١٦.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٤.

٣. انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «خير».

٤. بحار الأنوار، ج ٨٣، ص ٣٤٣.

وسنادهم المانع من انحرافهم وسقوطهم، بحيث ينتظم أفراد المجتمع ببركتهم في سلك الصالحين، ولولاهم لفقدت الخيمة عمادها وتهاوت.

قال السيّد نور الدين الجزائري في الفرق بين «البِرّ والخير»: «البِرّ هو الخير الواصل إلى الغير مع القصد إلى ذلك، والخير يكون خيراً وإن وقع عن سهو»[١].

وبهذا تكون النسبة المنطقيّة بينهما هي العموم والخصوص المطلق، فكلّ بارّ خيّر، وليس كلّ خيّر بارّ.

وممّا يلزم من هذا التفريق أنّ البارّ متحلٍّ بالحُسن الفاعلي والحُسن الفعلي معاً؛ بينما الخيّر فهو ـ وإن تحلّى بالحُسن الفعلي بالضرورة ـ ليس بالضرورة متّصفاً بالحُسن الفاعلي، فقد يتّصف به وقد يخلو منه.

وبهذا البيان نعرف أنّ مقام الأبرار أعلى من مقام الأخيار؛ لذا ورد في هذه الزيارة أنّ الأئمّة عليهم السلام هم سناد ودعامة للأخيار والصالحين، الذين يحسنون صنعاً؛ لأنّ احتمال زيغهم موجود، فهم عليهم السلام يصونونهم من ذلك.

وأمّا بالنسبة للأبرار والمتّقين، الذين لا يُحتمل فيهم الزيغ، فهم عليهم السلام لهم بمعنى الأصل والمحتد.

الأئمّة عليهم السلام أسّ الأبرار

بيان خصّيصة كون الأئمّة الأطهار «عنصر الأبرار»:

للأبرار بُعدان: جسمي وروحي، وهم يفارقون غيرهم بلحاظ البُعد الروحيّ دون الجسميّ، فإنّه لا فرق بين البشر في أجسامهم؛ اللهمّ إلاّ في بعض النعوت الظاهريّة، كاللون والطول والوزن وما شابه، وهي فوارق لا تؤثّر في تقسيم الصالحين والطالحين.

---

١ . فروق اللغات، ص٧١، الرقم ٦٧. وذكر ذلك أبو هلال العسكري أيضاً (معجم الفروق اللغوية، ص٩٥، الرقم ٣٨٢).

إنّ أرواح الأبرار معجونة بمجموعة من الخصال الحميدة، بل إنّ أرواحهم وشخصيّتهم الروحيّة متقوّمة حقيقةً بتلك الخصال المرضيّة، وسبب إطلاق عنوان **«الأبرار» عليهم** هو اتّصافهم الروحيّ والمعنويّ بتلك الخصال.

كما أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم معدن كلّ خير وبرّ، وأساس كلّ خصلة رضيّة، «إنْ ذُكر الخير كنتم أوّله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاهُ»[١]. قال الإمام الباقر عليه السلام لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة، في رواية أبي مريم، وهو بصدد بيان منشأ العلم: «شرّقا وغرّبا، لن تجدا علماً صحيحاً إلاّ شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت»[٢].

والإمام باقر العلوم عليه السلام ذكر العلمَ هنا كمثال لذينك العالِمين المعاندين، وهما من كبار فقهاء العامّة، ولم يرد عليه السلام الحصر؛ لأنّ بيتهم الرفيع معدن لكلّ الخصال النبيلة والصفات الطيبة، والبشريّة مدينة بتلك الأخلاق الكريمة والكمالات لأئمّة النور؛ لأنّ نورانيّة وحقيقة الإمامة ليست شيئاً غير المحامد وكريم الطباع.

وعليه، فإنّ من يتصّف بخصلة حميدة وينتظم بها في زمرة الأبرار سيرتوي من كوثر الإمامة الفيّاض؛ لأنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم محتد وأصل الأبرار.

عمَد الأخيار

بيان خصّيصة كون الأئمّة عليهم السلام دعائم الأخيار:

إنّ غاية الخلقة العبوديّة؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[٣]. **فمن يوفّق لبلوغ تلك الغاية** فقد سلك طريقه التكاملي وانتظم في

---

١ . إحدىٰ فقرات الزيارة الجامعة الشريفة. انظر: مفاتيح الجنان.

٢ . بحار الأنوار، ج٢، ص٩٢.

٣ . الذاريات: ٥٦.

صفوف الصالحين، وإلاّ فهو مبتلىً بالغواية والضلالة، وطعمة لمفترسي سبيل السير والسلوك.

إنّ الخطر الذي يهدّد سالكي هذه السبيل إمّا أنّه ناشئ من الشبهة العلميّة والرؤى الفكريّة، أو من الأخطاء السلوكيّة والشهوة العمليّة، فقد يؤدّي الخلل في بعض مسائل المعرفة، في باب التوحيد أو المعاد أوالنبوّة أو القرآن أو الأحكام أو الحِكم أو الأخلاق و... إلى التنكّب عن مسار العبوديّة، وقد تكون المعارف الدينيّة صحيحة وبيّنة؛ لكن تكمن للسالك الشهوةُ العمليّة والرغباتُ النفسانيّة، فتقطع عليه طريقَ العبوديّة والطاعة، وقد يجتمع هذان المانعان معاً، فتحول الرذيلة دون تحصيل الفضيلة. والأئمّة الأطهار عليهم السلام ميزانٌ في هذين المحورين، ومعيارٌ للحقّ والباطل:

المحور الأول: إنّ الأعلميّة إحدى علامات الأفضليّة؛ ومن هنا ذهب الشيعة إلى أنّ من الشرائط الأساسية في «الإمام» أن يكون الأفضل في كلّ شيء، وأن يكون الأحسن من أيّ أحد في كلّ الجوانب، ولا يصحّ أن يكون أحد أفضل منه؛ بينما الرأي السنيّ لا يمنع من مرجوحيّة الإمام.

ونحن نعتقد بأنّه حتى العلوم التي ورثناها من الأنبياء السابقين عليهم السلام كانت ببركة وجود الأئمّة؛ لأنّ الأنبياء السابقين كانوا في النشأة الملكوتيّة متلقّين للعلوم من الأئمّة[1]، وقد سمعت قبل قليل قول الإمام الباقر عليه السلام لذينك العالِمين المتعنّتين: «شرّقا وغرّبا، لن تجدا علماً صحيحاً إلاّ شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت».

---

١ . قد سبق القول أنّ خلق نور النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ثمّ الأئمّة الطاهرين كان قبل خلق أيّ شيء، وآمن بهم في تلك النشأة كلّ شيء. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا إنّي عبد الله وأخو رسوله وصدّيقه الأول، صدّقته وآدم بين الروح والطين». (أمالي الشيخ المفيد، المجلس الأول، ح٣).

وعلـم الأئمّـة مـوروث مـن علـم الرسـول الأكـرم ﷺ، قـال الإمـام الصادق عليه السلام: «إنّا لو كنّا نفتي النّاس برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين، ولكنّها آثار من رسول الله ﷺ، أصلُ علمٍ نتوارثها كابراً عن كابر، نكنزها عن رسول الله كما يكنز النّاس ذهبهم وفضّتهم»[١]. وقال: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله ﷺ قول الله عزّ وجلّ»[٢].

فالأئمّة ليس عندهم شيء بالذات، وعلومهم ليست من قبيل الاجتهاد والاستنباط المصطلح، بل هي علوم إلهيّة، ورثوها من رسول الله ﷺ نسلاً بعد نسل؛ لذا يصح إسناد كلام أيٍّ منهم للآخر، وقد ورد في بعض الزيارات الجامعة:

«ورّثكم كتابَه وخَصّكم بكرائمِ التّنزيلِ»[٣].

لكنّ غيرهم لم يرثوا منه شيئاً، قال الإمام الصادق عليه السلام: «... وما ورّثك اللهُ من كتابه حرفاً»[٤].

فالأئمّة الأطهار عليهم السلام هم المانع الأساس والحائل دون ضلال الأخيار في العلم والعقيدة.

المحور الثاني: الرأي الشيعي مجمع أيضاً على شرطيّة العصمة في الإمام، و«المعصوم» هو من لا يقترف الذنب ولا يخطأ ولا يسهو ولا ينسى مدّة حياته؛ فالأئمّة عليهم السلام سالكون معصومون، بسلوكهم يضيئون الطريق بعقباته ومنحدراته،

١. بصائر الدرجات، ص٣١٩.

٢. أصول الكافي، ج١، ص٥٣.

٣. بحار الأنوار، ج٩٩، ص٢٠٧.

٤. بحار الأنوار، ج٢، ص٢٩٣، والكلام مع أبي حنيفة.

فيرى السائرون طريقهم ميسّراً في ضوئهم الساطع: «ورضيكم... أدلاّء على صراطه»[١]. وليس هذا وحسب؛ بل هم أسوة عمليّة وشاخص أحسن لما يليق بالانسان أن يكونه في الحياة؛ لأنّهم «المثل الأعلى»[٢].

ثمّ إنّ لسالكي هذا المسار درجات، وأصحاب الدرجات العليا هم أدلاّء أصحاب الدرجات الدنيا، يأخذون بأيديهم لبلوغ المقصد. ومع أنّ ذوي الدرجات السفلى أيضاً بدورهم سناد للخير وعُمد لخيمتهم؛ لكنّ أصحاب الدرجة الأعلى، الذين لا يحتاجون إلى عون أحد، ويستمدّون فيضهم من النبع الربوبي مباشرةً، هم تلك الذوات المقدسة عليهم السلام لا غير.

والحاصل: إنّهم عمد هذه الخيمة، وهي منصوبة ببركة وجودهم.

هذا كلّه فيما يرجع إلى الهداية التشريعيّة، وهم كذلك عمد لخيمة الأخيار في مجال الهداية التكوينيّة[٣].

إشارات

١. بعض مصاديق البرّ

ممّا يدخل المرءَ في زمرة الأبرار:

الإيمان بالله، الإيمان بالقيامة، الإيمان بالملائكة والكتب السماويّة والأنبياء السابقين، الإنفاق المالي، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، الوفاء بالعهد، الصبر في الشدائد والمحن.

---

١ . الزيارة الجامعة.

٢ . الزيارة الجامعة.

٣ . سيأتي الكلام في الهداية التكوينيّة في محله المناسب.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

٢. بعض مصاديق الخير

ذكرت الروايات بعضَ مصاديق الخير، ونشير إلى شيء منها:

أ) الصوم والصدقة وقيام الليل. قال الباقر عليه السلام: «... إن شئت أخبرتك بأبواب الخير... قلتُ: نعم جُعلت فداك. قال: الصوم جُنّة، والصدقة تذهب بالخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يذكر الله»[٢].

ب) الغُسل بماء الفرات، ففي الرواية أنّه دخل رجل من أهل الكوفة على أبي جعفر عليه السلام، فقال له الإمام: «أتغتسل من فراتكم في كلّ يوم مرّة؟ قال: لا، قال: ففي كلّ جمعة؟ قال: لا، قال: ففي كلّ شهر؟ قال: لا، قال: ففي كلّ سنة؟ قال: لا، قال: فقال له أبو جعفر عليه السلام: إنّك لمحروم من الخير»[٣].

ج) زيارة الإمام الحسين عليه السلام، ففي الرواية المذكورة سأل الإمامُ الرجل الكوفي: «أتزور قبر الحسين في كلّ جمعة؟ فقال: لا، قال: ففي كلّ شهر؟ قال: لا، قال: ففي كلّ سنة؟ قال: لا، فقال له أبو جعفر عليه السلام: إنّك لمحروم من الخير».

---

١. البقرة: ١٧٧.

٢. بحار الأنوار، ج٦٦، ص٣٩٢.

٣. المصدر السابق، ص٤٠٩. والذي يظهر أنّ التأكيد على ذلك من أجل إحياء ذكر الإمام الحسين عليه السلام.

د) العلم والعمل، والحلم والعبادة. قال علي عليه السلام: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك؛ ولكنّ الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهي النّاس بعبادة ربّك»[١].

هـ) صلة الرحم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أعجل الخير ثواباً صلة الرحم»[٢].

و) التواضع. قال الصادق عليه السلام: «... رأس الخير التواضع»[٣].

ز) الشكر على النعمة والصبر في المصيبة. قال المجتبى عليه السلام: «الخير الذي لا شرّ فيه الشكر مع النعمة والصبر على النازلة»[٤].

ح) سجدة الشكر، والرحمة، والجنّة، وكفاية المهمّ، فقد عدّ الإمام الصادق عليه السلام هذه الأمور من الخير[٥].

ط) حبّ أهل البيت عليهم السلام. قال خيثمة: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال لي:

---

١. المصدر السابق؛ نهج البلاغة، الحكمة رقم ٩٤، باختلاف يسير.

٢. المصدر السابق، ج٧١، ص١٢١.

٣. المصدر السابق، ج٧٢، ص١٢٣.

٤. المصدر السابق، ج٧٥، ص١٠٦.

٥. لم يذكر سماحة الشيخ نصّ الرواية، ونذكره لجماله: عن مرازم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سجدة الشكر واجبة على كلّ مسلم، تتمّ بها صلاتك، وترضي بها ربّك، وتعجب الملائكة منك، وإنّ العبد إذا صلّى ثمّ سجد سجدة الشكر، فتح الربّ تعالى الحجاب بين العبد وبين الملائكة، فيقول: يا ملائكتي! انظروا إلى عبدي أدّى فرضي وأتمّ عهدي، ثمّ سجد لي شكراً على ما أنعمت به عليه. ملائكتي! ماذا له؟ قال: فتقول الملائكة: يا ربّنا! رحمتك، ثمّ يقول الربّ تبارك وتعالى: ثمّ ماذا له؟ فتقول الملائكة: يا ربّنا! جنّتك، فيقول الربّ تبارك وتعالى: ثمّ ماذا؟ فتقول الملائكة: يا ربّنا كفاية مهمّه، فيقول الربّ تبارك وتعالى: ثمّ ماذا؟ قال: فلا يبقى شيء من الخير إلاّ قالته الملائكة، فيقول الله تبارك وتعالى: يا ملائكتي! ثمّ ماذا له؟ فتقول الملائكة: يا ربّنا! لا علم لنا، قال: فيقول الله تبارك وتعالى: أشكرُ له كما شكر لي، وأقبل إليه بفضلي وأريه وجهي». (بحار الأنوار، ج٨٣، ص٢٠٥).

«يا خيثمة! إنّ شيعتنا أهل البيت يُقذف في قلوبهم الحبّ لنا أهل البيت، ويُلهمون حبّنا أهل البيت، وإنّ الرجل يحبّنا ويحتمل ما يأتيه من فضلنا ولم يرنا ولم يسمع كلامنا، لما يريد الله به من الخير...»[١].

ي) الزهد. عن الصادق عليه السلام، قال: «جُعل الخير كلّه في بيت وجُعل مفتاحه الزهد في الدنيا»[٢]. قال العلاّمة المجلسي في شرح هذا الحديث: لأنّ الزهد في الدنيا سبب لحصول جميع السعادات العلميّة والعمليّة.

ك) العبادة الخالصة، الثواب على العمل، إجابة الدعاء وإنصاف الناس. فعن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام: يا آدم! إنّي أجمع لك الخير كلّه في أربع كلمات: واحدة منهنّ لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين الناس:

فأمّا التي لي: فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً،

وأمّا التي لك: فأجازيك بعملك أحوج ما تكون إليه،

وأمّا التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعليّ الاجابة،

وأمّا التي بينك وبين الناس: فترضى للنّاس ما ترضى لنفسك»[٣].

ل) معرفة المرء قدر نفسه. قال عليّ عليه السلام: «إنّ الخير كلّه فيمن عرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره»[٤].

قال المرحوم ابن ميثم «شارح نهج البلاغة»: أيّ مقداره ومنزلته بالنسبة إلى مخلوقات الله تعالى وأنّه أيّ شيء منها، ولأيّ شئ خُلق، وما طوره المرسوم له في كتاب ربّه وسنن أنبيائه.

---

١ . المصدر السابق، ج٢٤، ص١٥١.

٢ . المصدر السابق، ج٧٠، ص٤٩.

٣ . المصدر السابق، ج٧٢، ص٢٦.

٤ . المصدر السابق، ج٢، ص١٠٠.

م) تقوىٰ الله. قال الإمام الصادق في جواب رسالة المفضّل بعد الوصيّة بالتقوىٰ وبأمور أخرىٰ: «فإنّه من يتّق الله فقد أحرز نفسه من النار بإذن الله، وأصاب الخير كلّه في الدنيا والآخرة، ومن أمر بالتقوىٰ فقد أبلغ الموعظة، جعلنا الله من المتّقين»[١].

ن) التعرّض لرحمة الله. روىٰ عبد العظيم الحسني عن الإمام الهادي عليه السلام أنّه قال: «معنىٰ الرجيم أنّه مرجوم باللعن، مطرود من مواضع الخير»[٢].

س) التعهّد بالتربية الصالحة. عن مجاهد بن جبر ـ وهو أحد الأئمّة في التفسير والعلم ـ قال: «كان ممّا أنعم الله علىٰ عليّ بن أبي طالب وأراد به الخير أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعبّاس عمّه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عبّاس! إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب النّاس ما ترىٰ من هذه الأزمة، فانطلق حتىٰ نخفّف عنه من عياله. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً فضمّه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتىٰ بعثه الله نبيّاً»[٣].

ملاحظة: ما تقدّم ذكره كان من مصاديق الخير المعنويّ، وقد أطلق «الخير» علىٰ المال والأشياء الماديّة أيضاً:

قال تعالىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً﴾[٤]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٥]. والمال والحياة و... من مصاديق الخير.

---

١ . المصدر السابق، ج٢٤، ص٢٨٦.

٢ . المصدر السابق، ج٦٠، ص٢٤٢.

٣ . المصدر السابق، ج١٨، ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

٤ . البقرة: ١٨٠.

٥ . العاديات: ٨.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾[١]. والمال من المصاديق البارزة للخير.
وقال تعالى شأنه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٢].

١. المعارج: ٢١.
٢. الأنبياء: ٣٥.

وَسَاسَةَ العِبادِ

كلمة «ساسة» جمع سائس، على وزان «قالة وقائل»، وهو اسم فاعل للفعل «ساس يسوس»، مشتقّ من «السياسة»، وهي بمعنى تدبير الشيء والقيام بما يصلحه[1]. وهو معنى عامّ يشمل تدبير الأمور الشخصيّة وتدبير المنازل والمجتمع، والمراد هنا تدبير أمور الناس وإدارة المجتمع، بقرينة إضافة الساسة إلى «العباد»[2].

و«العباد» جمع «عبْد» مشتقّ من مادّة «عبَدَ». والعبوديّة بمعنى غاية التذلّل، يظهره العبد في ساحة مولاه، مقروناً بالطاعة.

والتذلّل تارةً يكون تكوينيّاً، كما قال تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**

١ . «ساس زيد الأمر يسوسه سياسة: دبّره وقام بأمره». (المصباح المنير، مادة «سوس»).

٢ . يقسّم الحكماء الحكمةَ إلى قسمين: نظريّة وعمليّة، ولكلٍّ منهما أقسام عندهم، فأقسام الحكمة النظرية هي: الالهيّات والرياضيّات والطبيعيّات والمنطقيّات. ومن أقسام الحكمة العمليّة: تهذيب الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدن والمجتمع. (انظر: الرحيق المختوم، ج١، ص١٢٣و١٤١).

إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[١]، وأخرىٰ يكون عن اختيار وعملاً بالتشريع، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾[٢]، وثالثة يكون بسبب عقد توافقي بين بني البشر، كما قال تعالىٰ: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾[٣]؛ فليس في مثل هذه الموارد تشريع ولا تكوين، بل توافق اجتماعي محض.

والعبادة فعل يجسّد التذلّل، ويقابلها التكبّر والطغيان. قال تعالىٰ: ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٤]، وقال: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾[٥]، وسمّىٰ الممتنعين عن عبادته مستكبرين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[٦].

فالعبدُ إذن هو من تصدر أفعاله عن طاعة لله تعالىٰ.

حاجة المجتمع للحكومة

إنّ الغاية التي لا غاية وراءها من الوحي والتشريع هي هداية الإنسان وتنويره، قال سبحانه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٧].

وأمّا ما يذكر كغايات للرسالة، مثل إزالة الاختلاف وإقامة القسط وغير ذلك فهي غايات متوسّطة للرسالة، واقعة في طريق الغاية النهائيّة والغرض الأصلي.

---

١. مريم: ٩٣.
٢. الرعد: ٣٦.
٣. البقرة: ١٧٨.
٤. السجدة: ١٥.
٥. الأنبياء: ١٩.
٦. غافر: ٦٠.
٧. المائدة: ١٦.

وما يهمّ الأنبياء والأئمّة الطاهرين عليهم السلام أوّلاً هو تنوير عباد الله؛ لأنّهم المكلّفون بتحقيق غاية الرسالة، والكتاب السماوي وسيلة لتحقق تلك الغاية العليا: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1].

قال سبحانه في شأن موسىٰ الكليم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾[2]. والتذكير بأيّام الله المأمور به في هذه الآية جُعل من مهامّ كليم الله عليه السلام؛ لأنّه يعدّ أرضيّة لبلوغ تلك الغاية المقدّسة، ويعين في تحقيقها. وكلّ ما من شأنه الإسراع في تحقيق هذه الغاية متاحٌ للأنبياء، كالمعجزة والعصمة وطيب الولادة وحُسن الصوت والصورة، والسخاء والنظافة والصبر، وسائر الكمالات، ويدخل في ذلك البراءة من نقص الأعضاء، ومن كلّ ما ينفّر الناسَ ويبعّدهم[3].

وإنشاء حكومة والقيام بإدارة شؤون الناس ليس له أثر بالغ في هداية المجتمع وحسب؛ بل له دوره الفاعل في صون آيات الله وأحكامه من الاندراس والنسيان وحبسها في بطون الكتب.

وممّا لا شكّ فيه أنّ إحياء شرع الله تعالىٰ وآياته يرجع بالخير، من هداية البشر وصونهم من الأخطار، وهذا ما نوضحه في عدّة نقاط:

الأولى: إنّ الدين ليس مجرّد نصائح ومواعظ، بل هو نظام مكوّن من حِكَم وأحكام، وضعه الله سبحانه بهدف إدارة المجتمع في أبعاده المتعدّدة، العقدي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الخ.

---

١ . إبراهيم: ١.

٢ . إبراهيم: ٥.

٣ . وردت لمعظم هذه الأمور روايات في مصادرنا الحديثية، ناهيك عن الأدلّة العقلية المؤيّدة.

هذه الحِكَم والأحكام بإمكانها ـ إن جرىٰ العمل بها علىٰ أرض الواقع ـ أن تسعد الفرد والمجتمع؛ وأمّا إذا ما توقّفت عند حدّ الكلام فلن يكون لها أيّ تأثير في تحقّق الهدف.

الثانية: إنّ الاختلاف بين الناس أمر طبيعيّ، بل ضروريّ، ومنشأه تفاوتهم في استعداداتهم وقابليّاتهم. فليس من المتوقّع عدم حدوث هذه الاختلافات، ولا حتىٰ زوالها، والحلّ العقلائي للاختلافات الفكريّة والذوقيّة هو التعامل معها بحنكة وحكمة، تفادياً للفوضى.

الثالثة: إنّ الطرح النظري للمسائل والتنظير الإصلاحي علىٰ مستوىٰ الكلام فقط، وكذا النذارة والبشارة، كلّ ذلك لا يكفي وحده لتنفيذ الأحكام وحلّ النزاعات ورفع الاختلافات، بل لا بدّ من قدرة وسلطة مع الإنذار والتبشير؛ ليتمكّن الناصح والمصلح الخيّر من الاجراء العملي،. وبدون ضمان التنفيذ العمليّ سوف تكون الأحكام الشرعيّة حبيسة الكتب والحوارات العلميّة والمؤتمرات والندوات! وهذا ما يعني عدم كمال الشريعة، والضمان الوحيد للتنفيذ العمليّ هو أخذ زمام الحاكميّة وإنشاء حكومة.

وحاصل الكلام: إنّه لا مجال للجدل والاختلاف في ضرورة تكوين حكومة لأجل تفادي الفُوضى الاجتماعيّة، وإن كان هناك بحث وكلام عريض في نوع تلك الحكومة والحاكم.

وكلّ ذي مسكة يعي هذه الحقيقة؛ وهي أنّ الفوضى لا تزول ما لم يوجد متولٍّ معيّن يقوم بأعباء الحكومة وإجراء المقرّرات، واعتبار كلّ مبادر وسابق لذلك الأمر متولّياً يزيد الفوضى انتشاراً ويؤزّم الأوضاع أكثر ممّا كانت عليه قبل نزول

الأحكام[1]. والحلّ السليم هو تصدّي الآتي بالتشريعات نفسه للتنفيذ والنظارة على التطبيق، ويكون بعهدته أيضاً القول الفصل في مسألة صحّة التنفيذ أو خطئه، وتحت رئاسته يعمل الآخرون.

ولهذا قيل: إنّه ما لم تكن حكومة تتولّى إدارة المجتمع لن يمكن تطبيق الكثير من الآيات القرآنيّة، مثل آيات الحدود والديات والقصاص والقضاء والجهاد و...، ولن يبقى منها إلاّ الثواب لقارئها. وبما أنّ هذه الآيات ـ شأنها شأن الآيات الأخرى ـ دائمة الحياة، ولا تختصّ بعصر بعينه؛ يكون إنشاء الحكومة واجباً في كلّ عصر أيضاً؛ لتبقى تلك الآيات في ظلّها حيّة فاعلةً.

الشرط الأساس في السياسيّ

القرآن الكريم تبيان لكلّ شيء وهادٍ إلى كلّ طريق أقوم للسعادة.

ولأنّ من أهمّ طرق هداية البشر هو إيضاح أصول السياسة وبيان السبل الصحيحة لتنفيذها؛ فقد تلقّى رسول الله التعليم والأدب الإلهي، وتأيّد بتسديد الملائكة، ونال وسام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]؛ لأنّه المبيّن للقرآن والمنفّذ لأحكامه، وبيده أعطي زمام أمور المجتمع ليسوسهم ويدير شؤونهم، ويوصلهم إلى الغاية. قال الإمام الصادق: «إنّ الله عزّ وجلّ أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ثمّ فوّض إليه أمر الدين والأمّة ليسوس عباده، فقال عزّ وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3]، وإنّ رسول الله ﷺ كان مسدّداً موفّقاً مؤيّداً بروح القدس، لا يزلّ ولا

---

١. لأنّه في حال وجود الأحكام والتشريعات ستقوم عدّة من المؤمنين بالشريعة الإلهيّة بحفظ شريعة الله، وهذا ما لا يحصل قبل وجود التشريع الإلهي لعدم وجود الباعث والداعي.

٢. القلم: ٤.

٣. الحشر: ٧.

يخطئ في شيء ممّا يسوس به الخلق، فتأدّب بآداب الله...»[١].

ساسة العباد

بيان معنى جملة «ساسة العباد» الموصوف بها الأئمّة الأطهار بحاجة إلى مقدمّتين:

الأولى: إنّ أمير المؤمنين بمنزلة نفس رسول الله: ﴿**وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**﴾. وما رشح من رسول الله ﷺ من علوم تلقّاها منه بدون زيادة ولا نقصان، فكان هو أيضاً متعلّماً بالتعليم الإلهي، وموصوفاً بالخُلق العظيم.

الثانية: إنّ مقتضى كون الأئمّة عليهم السلام نوراً واحداً، وكونهم وأمير المؤمنين سواءً في الشرائط العامّة للامامة، أنّهم مأتمنون على ودائع الرسالة، وقد جاء في الرواية: «فما فوّض الله إلى رسوله ﷺ فقد فوّضه إلينا»[٢].

وبعبارة أخرى: هم عليهم السلام بمنزلة نفس رسول الله، ومتأدّبون بأدب الله ومسدّدون بتسديد الملائكة، وبالغون مقام «**الخُلق العظيم**»، فصاروا أيضاً ساسة لعباد الله تعالى.

ملاحظة: ليس المراد من «التفويض» الوارد في هذه الروايات التفويض المصطلح المقابل للجبر؛ لأنّه باطل ومحال، ولا يصحّ بأيّ فرض وصورة.

---

١. بحار الأنوار، ج١٧، ص٤. ومن هذه الرواية يُعلم أنّ «الخُلق العظيم» ليس مخصوصاً بالأخلاق الحسنة في مجال السلوك الاجتماعي، بل له معنى أشمل وأعمّ، فهو يعني أيضاً إحراز الملكات العلميّة والمعرفة بشؤون إدارة الدولة وغيرها، ولولا ذلك لما صحّ قول الإمام بأنّه بلغ به الخُلق العظيم أوّلاً وأيّده وسدّده بروح القدس ثانياً، ومن ثمّ فوّض إليه أمر الدين والأمّة ليسوس عباده. وهذا المعنى مدلول عليه في آية: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ (الحشر: ٧) لمكان الاطلاق والشمول لكلّ الأحكام الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وغير ذلك، وليس منحصراً في مورد الآية وهو «الفيء».

٢. الكافي، ج١، ص٢٦٨، ح٩.

إشارات

١ ـ هدف الصالحين والطالحين من الحكومة

ما زال رؤوس الشرك والاستكبار على طول التاريخ ساعين للاستيلاء على السلطة والمناصب الحكوميّة بغرض استعباد واستحمار واستغلال الشعوب، وفي المقابل يعمل الأنبياء ويجاهدون لتولّي زمام السلطة بغرض فكّ أسر البشر من قيود العبوديّة، إلى جانب الدعوة إلى التوحيد وتبليغ التعاليم والمعارف الإلهيّة. قال الامام عليّ عليه‌السلام:

«فإنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّداً صلى‌الله‌عليه‌وآله بالحقّ ليُخرج عباده من عبادة عباده إلى عبادته، ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته»[1].

وقد قرّرت سورة الحديد أنّ إنشاء الحكومة هو من أهداف الأنبياء كافّة فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[2].

فتولّي أمر الحكومة والقيام بالعدل هدف متوسّط للأنبياء جميعاً، والهدف النهائي لهم هو إخراج البشر من الظلمات إلى النور، كما جاء في الآية التاسعة من سورة الحديد والآيتين الأولى والخامسة من سورة إبراهيم، وفي آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم.

لقد جاهد كليم الحقّ عليه‌السلام للقضاء على سلطة الفراعنة، ومن ثمّ كرّس سعيه

---

١ . روضة الكافي، ص٣٨٦.

٢ . الحديد: ٢٥.

لانشاء حكومة كريمة تقوم على أساس الوحي السماويّ[1]؛ ولذا تجد أنّ أوّل خطاب وجّهه إلى جبابرة قصور الظلم الفرعوني هو:

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[2]، وهذا منه استدلال منطقي يتقوّم بصغرى وكبرى، وهو: إنّ المجتمع الانساني أمانة إلهيّة، والأمانة يجب أن تودع عند الأمين، وأنا أمين الله، فالنتيجة: يجب أن تودعوني الأمانةَ الإلهيّة.

لم يكن منطق الكليم موسى عليه السلام أنّه لم لا تمكّنوا مستضعفي بني اسرائيل ومحروميهم من المال والثروة؟ بل كان ينادي في بدء دعوته بأداء الأمانة الإلهيّة إلى يد أمين الله؛ ليحرّر عباده من قيود العبوديّة لغير الله تعالى. وتوالت الأحداث، فصارت تلك الأمانة المؤدّاة المتحرّرة من الطاغوت، وبقيادة أمين الله، تجاهد الظلم، إلى أن ابتلي الفراعنة بغضب البحر وصاروا لقمةً في بطنه. وبطيّ صفحة الظلم وانهيار قصور الاستبداد وزوال سلطته؛ أصبحت الثروات البحريّة والبريّة بيد مظلوميّ بني اسرائيل: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾[3].

فالمهمّة الرئيسيّة للسّاسة الربّانيّين هداية وتنوير البشريّة، وأمّا القيام بالقسط وحفظ الوطن والماء والمعادن وما شابهها فهي فرع الهداية، وإذا ما استشعر المرء في وجدانه وضميره الاحساس بالاستقلال عن الأجنبي، ووجد هويّته وذاته في ظلّ الواحد الأحد؛ فإنّه سينافح عن كلّ ما يملك، وسيجاهد في سبيل إقامة القسط.

---

١. إنّ الرسالة والنبوّة والامامة «عهد إلهيّ»، وهو منوط بالاستعداد الذاتي لمن يُعهد به إليه، وليس منوطاً بالسعي والطلب، كما أنّ القائم به لا ينعزل بالانتخاب وآراء الناس، قال تعالى لإبراهيم الخليل: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ (البقرة: ١٢٤)، وقال تعالى في ردّ مشركي الحجاز الذين اشترطوا في الايمان نزول الوحي عليهم: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

٢. الدخان: ١٨.

٣. الأعراف: ١٣٧.

٢ ـ أصول السياسة الاسلاميّة

سبق القول إنّ تكوين المجتمع المدني وإنشاء حكومة من لوازم الحياة الاجتماعيّة للانسان. ولا ريب في أنّ التوفيق لتشكيل حكومةٍ ما مرتهن بأمور، من أهمّها تحلّي القائم بها بالحكمة في التدبير والإدراة السليمة، ومعرفته بسياسيّ الداخل والخارج، ومعرفته بأصول السياسة وقواعدها، والقدرة على إدارة العاملين تحت إمرته، ويمكن القول: إنّ الفوضى الحاصلة من سوء تدبير الزعيم السياسيّ ليست بأقل من الفوضى المسبَّبة عن عدم وجود أصل الحكومة.

إنّ الأصول السياسيّة لأيّ فكر مبنيّة على رؤية ذلك الفكر للأمور وطبيعة تفسيره لها. والفكر التوحيدي شيّد أصول سياسته على قاعدة التوحيد بمراتبه كلّها، وعلى أساس الإيمان بالوحي والنبوّة والمعاد.

لهذا يصبّ جلّ سعيه في تكريس محاور ذات صلة بقواعده، من قبيل: تهذيب النفس وتصحيح العلاقات الشخصيّة والاجتماعيّة، والقيام بالقسط وإيثار الآخر على الذات، واعتبار «التقوىٰ» محور التكريم، دون اللون والعرق والمال وما شابه، ورفض الظلم وإباء المظلوميّة، والإحسان إلى الناس كافّة، باستثناء المفسدين ومثيري الفتن، والتأكيد على الاتحاد والأخوّة ونبذ الفرقة.

وأمّا الفكر غير التوحيدي فسياسته قائمة على النفعيّة والمصالح الماديّة.

وبعبارة أخرىٰ: الرؤية التوحيدية تتحرّك وفق شعار: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾[١]، والفكر غير التوحيدي يتحرّك وفق شعار: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾[٢].

---

١. الأعلىٰ: ١٤.

٢. طه: ٦٤.

فالأساس الحقيقي والخالص للبناء التحتيّ للسياسة الاسلاميّة هو «التوحيد»، المستخلص من عمليّة التفكير في كيفيّة نشوء هذا العالم، وفي الانسان، من أين قدم وإلى أين سيصير؟ وهكذا سياسة لا يسعها أبداً تصحيح إدارة الناس بأيّ نحو ممكن، ولا بما هم يرغبون فيه. وعلى هذا الأساس هي لا تتقبّل الحريّة السياسيّة (الديمقراطيّة) مطلقاً وبلا حدود، بل بشرط توافقها مع ضوابط الشرع وحدود حاكميّة الله تعالى؛ لأنّ الناس أمانة الله سبحانه، والحاكم الاسلامي أمين الله، وهو مكلّف ـ بعد أن يعلّمهم الكتاب والحكمة ـ بأن يدلّهم على مصالحهم ومفاسدهم، وأن يخلّصهم من الفقر الفكري والمالي، ويحمي ثغورهم.

ودليل هذا المعنى أنّ «الإمام» بمنزلة «القلب» للأمّة، على حدّ تعبير هشام بن الحكم[1]، والقلب خبير بمصلحة كلّ عضو ومفسدته، منفرداً كان أو منضمّاً مع بقيّة الأعضاء، فيدلّها على ما ينفعها ويحذّرها ممّا يضرّها.

إنّ معرفة الأمين بحقيقة الأمانة المودعة بيده، لها تأثير مباشر في نجاحه في حفظها وصونها.

والمؤتمن على المجتمع ـ وهو الحاكم ـ يجب أن يعرف حقيقة الأمانة المودعة عنده أي الانسان؛ ليستطيع القيام بمصالحه. ولا شكّ في أنّ الإحاطة بعلم السياسة الإسلاميّة والمعرفة بأصولها وضوابطها منوط بفهم الإسلام والانسان، مبدءاً ومعاداً، وكلّما ازدادت المعرفة بذلك ازدادت المعرفة والإحاطة بأصول السياسة في الإسلام[2].

---

١. قاله في مناظرة جرت بينه وبين عمرو بن عبيد في مسجد البصرة. (أصول الكافي، ج١، ص١٦٩، باب الاضطرار إلى الحجّة، ح٣).

٢. انظر للمزيد رسالة «العناصر الرئيسيّة في السياسة».

٣ ـ تجلّي التوحيد في السياسة

تتمحور سياسة الأئمّة عليهم السلام حول «التوحيد» كما هو الحال في سائر أفعالهم الأخرىٰ؛ ولهذا لا تتلائم بعض تحرّكاتهم السياسيّة والاجتماعيّة ومعايير السياسيّين المخادعين في ذلك الزمان، ولا مع معايير السياسيّين المتلاعبين في هذا الزمان.

إنّهم عليهم السلام يرون السياسة والحكم، والحرب والدفاع، والصلح وغير ذلك، وسائل لهداية البشريّة وإرشادهم، وليست وسائل للتسلّط والاستيلاء علىٰ كرسيّ الزعامة والعبث ببيت المال ونهبه. والشواهد علىٰ هذه السياسة كثيرة، نجدها في واقعة كربلاء وفي سيرة سائر الأئمّة عليهم السلام، وخصوصاً في حياة أمير المؤمنين عليه السلام وحكومته الممتدّة عبر سنوات خمس. ومن هنا، حينما التقىٰ سيّد الشهداء أبو عبد الله الحسين عليه السلام بجيش الحرّ، ورأىٰ بعض أصحابه أن يبدأوهم بالقتال، أجابه بقوله: «صدقتَ يا زهير، ولكن ما كنتُ لأبدأهم بالقتال حتىٰ يبدأوني»[١]. مع أنّه لو بدأهم بالقتال فاحتمال التغلّب عليهم كان كبيراً[٢].

وهذا ما سار عليه النظام الإلهي العادل في إيران بعد انتصاره علىٰ النظام الطاغوتي المتجبّر، لا سيّما أثناء سنوات الدفاع المقدّس الثمان.

ومن الشواهد الكثيرة علىٰ ذلك الفتوىٰ التي أصدرها الامام الراحل، ذلك الشيخ فتّي القلب ذي الرضوان، في قضيّة ارتداد سلمان رشدي، فقد أفتىٰ بوجوب إعدامه، ممّا أثار ردود فعل شديدة من جانب الدول الغربيّة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة إلىٰ معاوية:

«متىٰ كنتم يا معاوية ساسة الرعيّة وولاة أمر الأمّة؟»[٣].

---

١ . مقتل الحسين للخوارزمي، ج١، ص٢٣٤.

٢ . لأنّ جيش الحرّ وإن كان أكثر عدداً بكثير، إلاّ أنّه كان يعاني العطش، وقد سقاهم الامام الحسين عليه السلام وسقىٰ خيولهم أيضاً. (المعرّب).

٣ . نهج البلاغة، الكتاب رقم ١٠.

ومن المعروف أنّ سيرة الأمويين كانت قائمة على السفاهة والمكر، لا على السياسة الحقّة والقيادة النزيهة؛ لأنّهم لم يستثمروها في هداية وإصلاح وإرشاد المجتمع الإنساني.

إنّ لتسييس الأمّة وتدبير شؤونها شرائط، وما لم تتوّفر في السائس لن يتمكّن من القيام بالدور الإلهي الصحيح، ممّا يجرّه إلى الغضب الإلهي. ومن تلك الشرائط: الصبر والتحمّل وسعة الصدر، كما جاء أنّ «آلة الرئاسة سعة الصدر»[١].

وحينما تلّقى كليم الله تعالى الأمر بتبليغ الرسالة الإلهيّة إلى الفراعنة سأل الله فيما سأل شرح الصدر، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[٢]. وسبب هذا الطلب منه أنّ الرسول إذا ما قلّ صبره في التبليغ وهداية الناس فسوف يعاتَب من قِبل الله سبحانه، وقد حصل هذا للنبيّ يونس عليه السلام، فبعد أن أمضى ثلاثاً وثلاثين عاماً في تبليغ رسالته، ولم يؤمن به سوى اثنين، ضجر من قومه فدعا عليهم؛ لكن جاءه خطاب العتاب من الله سبحانه: «إنّما بعثتك إلى قومك لتكون حيطاً عليهم، تعطف عليهم بالرحم الماسّة منهم، وتأناهم برأفة النبوّة، وتصبر معهم بأحلام الرسالة، وتكون لهم كهيئة الطبيب المداوي، العالم بمداواة الداء، فخرقت بهم، ولم تستعمل قلوبهم بالرفق، ولم تسسهم بسياسة المرسلين»[٣]. ولذا يلاحظ أنّه في موارد كثيرة قصّ القرآن سيرة الأنبياء السالفين للرسول الأحمد الأكرم صلى الله عليه وآله ودعاه إلى الاقتداء

١ . نهج البلاغة، الحكمة رقم ١٧٦.

٢ . طه: ٢٥.

٣ . بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٩٣. ويجدر التنبيه هنا إلى أنّ نبي الله يونس إنما غضب لله ودعا عليهم غضباً لله تعالى، كما جاء في ذيل الرواية: «فقال يونس: يا ربّ إنّما غضبت عليهم فيك، وإنّما دعوت عليهم حين عصوك». ولكن كان بإمكانه الصبر عليهم أكثر؛ لذا قال له تعالى: «وعبدي نوح كان أصبر منك على قومه». اهـ والمؤلف اكتفى بنقل فقرة: «ولم تسسهم بسياسة المرسلين» من الرواية، ونقلتُ منها أكثر لتجانس السياق. (المعرّب).

بهم؛ لكنّه نهاه عن التأسّي بالنبيّ يونس عليه السلام، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[1].

وخلاصة القول: إنّ المحور الأساس في سياسة الأنبياء ورسل الله وسالكي طريق التوحيد هو هداية الناس إلى كمال التوحيد والقيام فيهم بالعدل.

٤ ـ وقف الحرب من طرف واحد

إنّ شعار الشؤم القائل بفصل الدين عن السياسة ما هو إلاّ صنيع السياسيّين الماكرين، ونتاج تحجّر وجهل المتظاهرين بالقداسة، الطالبين للراحة والعافية، وغفلة مدّعي التنوّر الفكري، سواء كانوا تابعين أم مستقلّين؛ لأنّه ما من سياسيّ محنّك يرى السياسة بمعزل عن الدّين، بل يعدّهما مرتبطين بمحكم الربط.

إنّ السياسيّين ذوي النزعات الشيطانيّة المتمحورين حول أهوائهم، دائبون في تأسيس سلطتهم السياسيّة والثقافيّة، ولكي يناهضوا الأديان الحقّة المحاربة للمتسلّطين، يخترعون أدياناً ويبتدعون فرقاً ومذاهب دينيّة، ويحرّفون الأديان الإلهيّة الحقّة تحت عنوان «القراءة الجديدة» وما شابه ذلك من عناوين، وهم جادّون في ذلك تمهيداً لبسط وجودهم السلطوي فكراً وسياسةً، وما الاسلام الأمريكي والمسيحيّة الأمريكيّة إلاّ مثال لتحريف الأديان[2]، وما البهائيّة في عالم التشيّع والوهابيّة في عالم التسنّن إلاّ مثال لتحريف المذاهب، هذا من جهة.

---

١. القلم: ٤٨.

٢. وكما أنّ الإمام العظيم الراحل خلّص المسلمين من شرّ الاسلام الأمريكيّ، وأحيا الاسلام المحمدي الأصيل بنفخته الإلهيّة وقدّمه إلى العالم، فإنّ مسيحيّة عيسى الخالصة بحاجة إلى «روح الله» آخر يخلّص بنفخته العيسويّة العالم الغربي من فتنة وفساد المسيحيّة الأمريكيّة المحرّفة والمنحرفة، ويقدّم للعالم المسيحيّة العيسويّة الخالصة.

ومن جهة أخرىٰ، فإنّ الجبّارين الماكرين، المعلنين بعداوتهم، المتسلّحين بأنواع الأسلحة، السياسيّة والفكريّة والعسكريّة والاقتصاديّة وغيرها؛ وبحماية نار الفتنة الداخليّة الموقدة بالتعاون والانسجام الفكري مع طالبي العافية ومدّعي التنوّر في الداخل، وباستغلال غفلة الشعوب وخدرها؛ قد بدأوا بشنّ هجمة كاسحة شاملة، بغرض القضاء علىٰ الأسس الدينيّة والعقديّة لمعسكر المتديّنين، وشرعوا في إهلاك الحرث والنسل. وفي مقابل هذه الهجمة الشرسة، ألقىٰ البعض سلاحه أرضاً ورفع يدي الاستسلام للأجنبيّ، وأعلن وقف الحرب من طرف واحد. ومن جهة ثالثة، فإنّ فريقاً أخلىٰ ساحة الفكر الأصيل علىٰ إثر هجمة التثبيط النفسيّ والإرجاف الكاذب للمخادعين، وبعض آخر ترك مضمار الحوار العلميّ انخداعاً بتسويل وتزيين السذّج المغفّلين.

فهم ليس فقط لم يحملوا سلاح الهجوم ضدّ الأجنبيّ؛ بل إنّهم ألقوا أرضاً سلاح الدفاع أيضاً! وبدلاً من ذلك أمسكوا بأصابعهم قلم الغفلة أو أداروا في أيديهم مسبحة التحجّر! واستعاضوا عن الزيّ العسكريّ بلباس العافية الكاذبة، وهو لباس الذلّة في حقيقته[1]، ونسوا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2]، وشغلوا أنفسهم بأوراد وأذكار شخصيّة لا تخيف أحداً، بل إنّ بعضهم أخذ يكرّر بقلمه ولسانه شعارات الأجنبيّ المغايرة لشعارات الاسلام؛ والحاصل: إنّهم بدلاً من حلّ المعادلة قاموا بمحوها![3].

١ . لأنّه جاء في الرواية: «فمن تركه (الجهاد) رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ»، نهج البلاغة، الخطبة٢٧.

٢ . الأنفال: ٦٠.

٣ . هذا التعبير كناية عن العجز عن معالجة المشكلة كما ينبغي والتصدّي لحلّها، والاستسلام لها والتغاضي عنها وكأنّها ليست موجودة أصلاً، وهذا حال من يعجز عن حلّ مسألة ما، أو معادلة رياضيّة ما، فيقوم بمحوها! معتبراً ذلك حلاً لها. (المعرّب).

وعلى كلا الفريقين أن يوفّقا ـ إن استطاعا ولن ـ بين العهد السياسيّ للاسلام المحمديّ العلويّ الأصيل، المتمثّل بعهد مالك الأشتر[١]، وبين الشعار المزيّف بفصل الدين عن السياسة؛ فكيف يمكن الجمع بينهما؟

كيف يمكن عرض إسلام صحيح لا سياسة فيه؟ وقد بادر الرسول الأكرم ﷺ في أوّل فرصة سنحت بُعيد الهجرة إلى إنشاء حكومة إسلاميّة، ومن بعده سعى أمير المؤمنين عليه السلام للتصدّي للخلافة.

وكيف يمكن رفع شعار المتابعة للذوات المقدسة عليهم السلام وشعار فصل الدين عن السياسة؟ ونحن نرى مواقف أمير المؤمنين والامام المجتبى والامام الحسين عليهم السلام تجاه معاوية اللعين وابنه يزيد ملاعب الكلاب، وموقف سائر الأئمّة تجاه حكّام الجور؟![٢]

وكيف نجمع بين هذا الشعار وبين كلام الامام الرضا عليه السلام في المسجد الجامع بمرو؟ ألم يقل بمسمع من جمع غفير إنّ من شرائط «الامامة والإمام» أنّه «... عالمٌ بالسياسة، مفروضُ الطاعة، قائمٌ بأمر الله عزّ وجل، ناصحٌ لعباد الله، حافظٌ لدين الله...»؟[٣]

وهل بالامكان القيام بأمر الله تعالى وحفظ دينه وإصلاح عباده من دون ممارسة

---

١ . نهج البلاغة، الكتاب رقم (٥٣).

٢ . إنّ القراءة الدقيقة والموضوعيّة المستوعبة لأحوال الظرف الزمانيّ والمكانيّ تدلّ على أنّ موقف كلّ إمام في عصره هو أصحّ وأسلم موقف يمكن أن يُتّخذ آنذاك، وأيّ موقف آخر ربما وجّه ضربة قاصمة للاسلام والتشيّع، ومن الشواهد هنا قول أمير المؤمنين عليه السلام لفاطمة الزهراء عليها السلام ما معناه: إن أردتِ بقاء هذه الأذان فاصبري. (شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٤٧٥).

٣ . أصول الكافي، ج١، ص٢٠٢.

دور سياسيّ ومن دون معرفة بأصول السياسة وأساليب السياسيّين[1]، وهاهم السياسيّون منهمكون في إعمال الحيلة، وفي كلّ لحظة لهم مكر جديد للقضاء على دين الله وتحريفه واستغفال عباده واستدارجهم؟

إنّ القراءة الموضوعيّة والتحليل المعمّق الموسّع للمعارف الاسلاميّة أوصلتنا إلى هذه النتيجة الواقعيّة النيّرة التي لا ظلمة فيها: «ديننا عين سياستنا وسياستنا عين ديننا»، وهو الشعار الذي جعله نصب عينيه، وما فتئ يكرّره شهيد الإسلام و «مدرّس»[2] درس الحريّة.

١ . هذا كلام الامام الراحل قدّس سرّه في تعريف الاجتهاد والمجتهد. (صحيفة النور، ج٢١، ص٩٨، بتاريخ ٣/ ١٢/ ٦٧ هـ. ش).

٢ . المؤلّف وضع في النصّ الفارسي كلمة «مدرّس» بين قوسين صغيرين، و«مدرّس» لقب أحد العلماء الايرانيين المجاهدين سياسيّاً، وقد استشهد على أيدي أزلام الشاه، فالظاهر أنّه المقصود هنا. (المعرّب).

وأركان البلاد

كلمة «أركان» جمع «رُكن»، مشتقّ من المادة «رَكَنَ» بمعنى الميل إلى شيء مع السكون[1]. و«رُكن» على وزان «فُعل» اسم لما يُركن إليه[2]، أي يكون سبباً للأمن والطمأنينة.

و«البلاد» جمع «بلدة» على وزن «كِلاب وكلْبَة». والبلدة هي قطعة محدودة من الأرض، عامرةً كانت أو مواتاً[3]. وقد أطلق القرآن الكريم عنوان «بلد» على الأرض الموات الخالية من النبات، فقال تعالى: ﴿إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[4].

فمعنى «أركان البلاد» أنّهم أوتاد الأرض وقواعدها، التي تستقرّ بها وتطمئنّ.

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٤، مادة «ركن».

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر السابق، ج١، مادة «بلد» بتصرّف يسير.

٤ . فاطر: ٩. قال في «المصباح المنير»: «وفي التنزيل: إلى بلد ميت أي إلى أرض ليس بها نبات ولا مرعى».

و«البلاد» جمع يدلّ على العموم والشمول لكلّ أرض؛ لأنّه اسم محلّى بالألف واللام، ولم يشَرْ به إلى أرض معيّنة [مسبوقة ذكراً أو عهداً].

أوتاد طمأنينة الأرض

لكلّ مركّب أجزاء، وبعض الأجزاء تعدّ محوراً لأجزاء أخرى وعماداً لها، بحيث تكون هذه الأجزاء المحوريّة ضروريّة للإفادة من بقيّة الأجزاء، فإذا ما فُقدت كان وجود البقيّة وعدمها سواء. وركن كلّ شيء متناسب وحاله، فالانسان ـ وهو مركّب حقيقي ـ تُعدّ بعض أجزائه أركاناً لحياته، مثل الرأس والرقبة والقلب و... فهي من بين بقيّة الأعضاء لها دور محوري، ولولاها لفقد الانسان حياته، بخلاف اليد والقدم والأذن والعين واللسان والأنف وما شابه، فإنّ الحياة بدونها ممكنة.

وفي الصلاة ـ وهي مركّب اعتباري ـ تُقسّم أجزاؤها إلى ركن وغير ركن، وقالوا في بحوث الفقه: إنّ زيادة الركن ونقصانه مبطل للصلاة، والركن مثل النيّة وتكبيرة الاحرام وغيرهما، سواء في ذلك العمد والسهو؛ في حين أنّ زيادة غير الركن أو نقصانه لا يبطلها إلاّ بالتعمّد.

والحجّ أيضاً مركّب اعتباري، بعض مناسكه أركان، كالوقوف في عرفات والمشعر، وبعضها ليست كذلك.

بملاحظة هذا وبالتأمّل في هذه الفقرة من الزيارة، يُعلم أنّ الناس ينقسمون بلحاظ تأثيرهم الوجوديّ في «الأرض» إلى فريقين:

الفريق الأول: أناس يقومون بدور محوريّ في استقرارها وسكونها، فهم أركانها وأوتادها، وهم قلّة قليلة.

الفريق الثاني: أناس وجودهم وعدمهم سواء.

والوجه الأوّل في معنى «أركان الأرض» ما ورد في بعض الروايات: «جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها»[١]. فالمعنى: إنّ الامام المعصوم هو من ترسو به الأرض، ولولاه لارتجّت بأهلها وابتلعتهم، ولعلّ هذا المعنى هو المراد ممّا ورد في التوقيع الشريف لصاحب العصر:

«إنّي لأمان لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء»[٢].

والوجه الثاني المحتمل هنا أن يقال:

أولاً: إنّ ما يرتفق به أهل الأرض ويديمون به حياتهم الماديّة والمعنويّة ينزل لهم من خزائن الغيب، ولولا الفيوض الغيبيّة لانمحقت الأرض، كما أنّ نظام الوجود بأكمله يفنى بدون تلك الفيوض.

ثانياً: إنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم الحبل الرابط بين أرض المادة وسماء المعنى، وببركتهم حظي نظام الوجود بالفيوض الغيبيّة، وبقاؤه الظاهريّ والمعنويّ ـ بما في ذلك كوكب الأرض ـ مدين لوجود الامام المعصوم، فهم أركان ورواس وبيمن وجودهم صارت الأرض صالحةً للسكنى والارتفاق بها.

وهذا المقام من شؤون الولاية الإلهيّة الكليّة، وهي ولاية تكوينيّة حقيقيّة، لا تشريعيّة اعتباريّة، ثابتة للامام في حياته وغيبته على حدّ سواء، وليس ثبوتها بالتنصيب في مثل يوم الغدير[٣]، ولا تُغتصب في مثل يوم السقيفة.

ملاحظة: إنّ بعض الموجودات سبب لنزول النعم والبركات الإلهيّة، ومانع من

---

١ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٣٥٩.

٢ . المصدر السابق، ج٥٣، ص١٨١ . وهذا التعبير جاء وصفاً للأئمّة كلّهم «ونحن أمان أهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء»، المصدر السابق، ج٢٣، ص٦.

٣ . ما حصل في صحراء الغدير كان إعلام وإبلاغ الأمر الإلهي بالتنصيب، على لسان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

نزول النقم والبلاء، وفي الرواية: «فلولا بهائم رتّع وصبية رضّع وشيوخ ركّع، لصبّ عليكم العذاب صبّاً، تُرضّون به رضّاً»[١]. قال العلامة المجلسي في ذيل هذه الرواية: «وكفى بنا عجزاً وذلاّ بسوء فعالنا أن يرحمنا ربّنا الكريم ببركة بهائمنا وأطفالنا». اهـ.

وبعبارة أخرى: إنّ العصاة يُرزقون ببركة الحيوانات والأطفال وكبار السنّ، ولكنّ ذلك عن رحمة ورأفة أو احترام ليس غير، بينما الرحمة المفاضة بالأئمّة الأطهار عليهم السلام هي باعتبار وساطتهم في نزولها وخلافتهم الإلهيّة، التي هي الرابط بين الأرض والسماء.

وممّا تجدر الاشارة إليه هنا أنّه إن كان المراد من الشيوخ الركّع كبار السنّ وإن كانوا عصاة مذنبين؛ فدفعُ العذاب بهم من باب محض الرحمة لا غير، وإن كان المراد بهم من قضوا أعمارهم في طاعة الله المنطبق عليهم العنوان الروائي «ذا شيبة في الاسلام»[٢]، فدفعُ العذاب بهم من باب التوقير والإجلال، لا من باب الرأفة المحضة، وإن كان المراد منهم العنوان الجامع بين هذين الصنفين فدور كلّ منهما في دفع العذاب يكون بحسبه وحاله بعد الانحلال والتميّز، فأحدهما من باب الرحمة المحضة والآخر من باب التوقير.

العلماء أركان الأرض

جاء في الرواية أنّ «العلماء منار الأرض»[٣]؛ ذلك أنّ «العلماء ورثة الأنبياء»[٤]،

---

١ . بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٤٤.

٢ . في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم». (أصول الكافي، ج٢، ص١٦٥و٦٥٨).

٣ . المصدر السابق، ج١، ص٣٢.

٤ . المصدر السابق، ج١، ص٣٢.

يرثون علمهم وحديثهم، وقد جاء في الرواية في معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[1]، أنّ نقصان الأرض «هو ذهاب العلماء»[2] و«فقد العلماء»[3].

فهم بدورهم أركان للأرض، يحفظونها من الميدان المدمّر، ويقومون بدور أنبياء الله؛ لكن بصورة مصغّرة، أمّا الأئمّة المعصومون عليهم السلام فهم أركان أمان بمستوى أوسع وأشمل.

ملاحظة: إذا كان التعبير بنقصان الأرض يراد به العلماء، تطبيقاً وليس تفسيراً، فالمناسب لهذا التطبيق أن تكون كلمة «أطراف» بمعنى «طريف وطارف وطُرفة» لا بمعنى الجهات المكانيّة والأطراف الجغرافيّة للمعمورة.

---

١ . الرعد: ٤١.

٢ . نور الثقلين، ج٢، ص٥٢٠.

٣ . المصدر نفسه.

وأبواب الإيمان

كلمة «أبواب» جمع «باب»، وأصله «بَوَب» على وزان فَعَل، ثمّ صار «باب» بالإعلال[1]. و«الباب» يُطلق على مدخل ومخرج مكان معيّن، وهو «الدروازة» بالفارسيّة.

و«باب» موضوع بالوضع الأوّلي في اللغة للاستعمال في المعاني الماديّة والمحسوسة، مثل باب المدينة والدار والبيت، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[3]، وقد يعتبرون لمعنىً معنوي غير محسوس حدوداً خاصّة به، كما في المكان الماديّ، ومن ثمّ يجعلون له باباً للدخول والخروج، كما جاء في الحديث النبويّ: «أنا

---

١ . الإعلال هو تغيير حرف العلّة للتخفيف «تعريفات الجرجاني». وفي «المصباح المنير» قال: «في تقدير فَعَل بفتحتين؛ ولهذا قُلبت الواو ألفاً، ويُجمع على أبواب مثل سَبَب وأسباب».

٢ . يوسف: ٢٥.

٣ . يوسف: ٦٧.

مدينة العلم وعليّ بابها»[١]. وكذلك حديث: «معاشر الناس! أنا مدينة الحكمة وعليّ بن أبي طالب بابها»[٢]. والحال أنّه ليس للعلم مدينة ولا باب مادّيين، كما هو المعروف في الأمور المحسوسة، وما هذا الإطلاق إلاّ لكون معنى «الباب» هو الوسيلة الموصلة إلى شيء آخر[٣].

و«الإيمان» مصدر باب «إفعال» مشتقّ من المادّة «أمن». و«الأمن» بمعنى طمأنينة النفس وزوال الخوف[٤]. ومن معاني باب «إفعال» التعدية، وأطلق «الإيمان» على العقائد لأنّ المؤمن يصون عقيدته من الآفات، كالشكّ والريب، كما أنّ «الإيمان» يحفظ المؤمنَ في حصن حصين ويصونه ليأمن من كلَب الذنوب في الدنيا ومن حرّ النار في الآخرة.

معنى كونهم عليهم السلام أبواب الإيمان

التسليم حقيقة الإيمان، فليس للمؤمن إرادة مستقلّة في عرض إرادة ربّ العالمين، وليس له عزم في عرض عزم الله سبحانه، بل إرادته تابعة لإرادة الذات المقدّسة، وأمره مسلّم للتكليف الإلهي المبيّن على لسان الرسول. قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً**﴾[٥].

---

١. بحار الأنوار، ج١٠، ص١٢٠.

٢. المصدر السابق، ج٣٧، ص١٠٩.

٣. قال الراغب: «الباب يقال لمدخل الشيء، وأصل ذلك مداخل الأمكنة، كباب المدينة والدار والبيت... ومنه يقال في العلم: باب كذا وهذا العلم باب إلى علم كذا، أي: به يُتوصّل إليه، وقال صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها». (مفردات غريب القرآن، مادة «بوب»).

٤. مفردات غريب القرآن، مادة «أمن».

٥. الأحزاب: ٣٦.

إنّ المؤمن الحقّ هو من يسلّم قياده لأمر الله ورسوله، ولا ينطق لسانه بكلمة ردّ، بل يرضى كلّ الرضا بحكم رسول الله ﷺ، ولا يجد في نفسه ضيقاً ممّا قضى به، كما قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[١]؛ ذلك لأنّ ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٢].

وفي الرواية عن الامام الباقر عليه السلام: قال: «بينا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ لقيه ركب، فقالوا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: ما أنتم؟ فقالوا: نحن مؤمنون يا رسول الله، قال فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرضا بقضاء الله والتفويض إلى الله والتسليم لأمر الله، فقال رسول الله ﷺ: علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فان كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتّقوا الله الذي إليه ترجعون»[٣].

وعليه فإنّ الإيمان نور، إذا ما سطع في قلب الانسان قاده إلى التسليم الخالص لأمر الله سبحانه والخضوع لإرادته، وتظهر آثار التسليم في فكره ثمّ ينعكس في سلوكه وميوله، ويتجلّى في كلّ جارحة من جوارحه، وكلّما علت درجة التسليم ازداد الايمان، فهو كالدم الذي يسلك من القلب عبر العروق إلى سائر أجزاء البدن ليغذّيها، وآثار هذه التغذية عبارة عن الحياة والفعالية في الجوارح ومكوّنات الجسم.

والايمان كمصباح منير يكون في الدار الكبيرة، يُرىٰ نوره ساطعاً من كواها وخصاصها، وكلّما ازداد نوره ازداد سطوعه ونفاذه من تلك المنافذ.

---

١ . النساء: ٦٥.

٢ . الأحزاب: ٦.

٣ . الكافي، ج٢، ص٥٢.

وفي الرواية عن الامام الصادق عليه‌السلام، أنّه سئل عن أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: «ما لا يقبل الله شيئاً إلاّ به»، فسئل: وما هو؟ قال: «الايمان بالله الذي لا إله إلاّ هو، أعلى الأعمال درجةً وأشرفها منزلةً وأسناها حظّاً».

فقال له الراوي: إنّ الايمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال: «نعم»، قلت: كيف ذلك؟ قال: «لأنّ الله تبارك وتعالى فرض الايمان على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلاّ وقد وكّلت من الايمان بغير ما وكّلت به أختها، فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلاّ عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما وأذناه اللتان يسمع بهما، ويداه اللتان يبطش بهما ورجلاه اللتان يمشي بهما، وفرجه الذي الباه من قبله، ولسانه الذي ينطق به، ورأسه الذي فيه وجهه، فليس من هذه جارحة إلاّ وقد وكّلت من الايمان بغير ما وكّلت به أختها بفرض من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها ويشهد به عليها، ففرض على القلب غير ما فرض على السمع، وفرض على السمع غير ما فرض على العينين، وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان، وفرض على اللسان...»[١].

ملاحظة: المكلّف بالتكليف الإلهي والمأمور به بالذات هي الحقيقة الانسانيّة الأصيلة، وهي روحه، وما الجوارح والأعضاء سوى آلات لامتثال التكليف.

أجل؛ طبقاً لمقولة أنّ لكلّ موجود شعوراً خاصّاً به، وأنّ عليه تكليفاً معيّناً ـ بدليل شهادة الجوارح يوم القيامة ـ يكون تكليف الجوارح والأعضاء بمعنى من المعاني صحيحاً أيضاً.

والايمان بدرجته العليا ـ وهي كمال تسليم الأعضاء والجوارح لإرادة الله سبحانه ـ وبدرجته الدنيا؛ بحاجة إلى معرفة وظيفة كلّ عضو وتكليف كلّ جارحة،

---

١. الكافي، ج٢، ص٣٣، باب أنّ الايمان مبثوث في الجوارح كلّها.

ومعرفة وظائف الجوارح متوّقفة علىٰ مقدمات معرفيّة، من قبيل معرفة المبدأ والمعاد والرسالة وأسماء وصفات الله تعالىٰ... وبدون ذلك لا يتحقّق الايمان.

وقد أشير مكرّراً إلىٰ أنّه لولا الأئمّة عليهم السلام لما عرفت الأمّة الاسلاميّة هذه المعارف، ولضلّت طريق الوصول إلىٰ ينابيع الايمان.

قال الامام العسكري عليه السلام: «ولولا محمد صلى الله عليه وآله، والأوصياء من ولده كنتم حيارىٰ كالبهائم، لا تعرفون فرضاً من الفرائض، وهل تُدخل قرية إلاّ من بابها...»[1].

وسئل الامام الباقر عليه السلام: لِمَ سُمّي عليّ عليه السلام «أمير المؤمنين»، وهو اسمٌ ما سُمّي به أحد قبله ولا يحلّ لأحد بعده؟ قال: «لأنّه ميرة العلم، يُمتار منه ولا يُمتار من أحد غيره...»[2].

ملاحظتان: الأولىٰ: «ميرة ويمتار» كلمتان مشتقّتان من المادة «ميّر»، بمعنىٰ جلب الطعام لبيعه أو لإطعام العيال، يقال: مارهم ميراً... أتاهم بالطعام[3]. وفي قصّة النبيّ يوسف وإخوته أنّهم قالوا لأبيهم حينما قصدوا مصر: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾[4]، فالمعنىٰ أنّ أمير المؤمنين يغذّي المؤمنين بالطعام العلميّ ويميرهم به.

الثانية: هذا الإرجاع اللغوي [للتسمية بأمير المؤمنين] يصحّ فقط في شأن المعصومين الذي هم عِدل القرآن الكريم؛ إذ إنّ مادتي اشتقاق «أمير و مير» متباينتان في المعنىٰ، وربما أمكن قبول هذا الإرجاع اللغوي والتوجيه العلميّ وفق بعض أنواع الاشتقاق؛ لكن لا يمكن استفادة معنىٰ «الميرة» من لفظ «أمير» بلا دليل معتبر.

---

١. نور الثقلين، ج١، ص٥٩٠.

٢. علل الشرائع، ج١، ص١٩١، الباب١٢٩.

٣. المصباح المنير، مادة «مير».

٤. يوسف: ٦٥.

وكيف كان؛ فهم عليهم السلام أبواب العلوم والمعارف الإلهيّة والطرق الموصلة لحقائق الإيمان، فيجب التزوّد من منبع علومهم والاستمداد من سيرتهم، فهم الأسوة الحسنة للبشريّة في حياتها.

إشارات

١. المعيار في استعمال المعنى الحقيقي والمجازي

سبق في مطاوي البحث السابق، وسيجيء في أعطاف البحوث الآتية، الاختلافُ في مسألة وضع الألفاظ في اللغة، فهل اللفظ موضوع للمعنى روحاً ولبّاً، والمنظور إليه حين الوضع بالذات هو الأثر والغرض الحاصل من المصداق، بحيث لا يكون للمصداق الخارجي أيّ تأثير في عمليّة الوضع؟ أم أنّ اللفظ موضوع أصلاً للمصداق الخارجيّ الخاصّ، بحيث لا يكون للأثر الحاصل منه أيّ تأثير في عمليّة الوضع؟

فإن رجح الرأي الأول صحّ استعمال اللفظ في كلّ مصداق له ذلك الأثر والغرض والمعنى الكلّي، وإن تغيّر المصداق الخارجيّ الموجود حين الوضع، ولن يكون إطلاقه في الأزمان والأمصار على المصاديق المختلفة خروجاً عن دائرة معناه الموضوع له؛ لأنّ استعماله فيهما استعمال حقيقيّ لا مجازيّ، ومثاله: استعمال «المصباح والميزان والصراط والوزن...» بلحاظ الغرض منها في مصاديق متنوعة، تقليديّة وصناعيّة، وفي الأمور المجرّدة والماديّة. وإن رجح الرأي الثاني فسيكون مثل هذا الاستعمال مجازيّاً، وسينحصر استعمالها الحقيقيّ في دائرة ضيّقة، وهي دائرة الغرض الحاصل من خصوص المصداق الملحوظ والموجود حين الوضع، وإطلاقه على غيره أو على معنى مجرّد بحاجة إلى عناية وقرينة؛ لأنّه استعمال مجازيّ في اللغة، والمجاز بحاجة إلى مشابهة ليصحّ وإلى قرينة ليصحّ الحمل عليه.

والرأي الأول هو الأولى والأرجح؛ فيصحّ استعمال لفظ «باب» في معناه العامّ، غير المخصوص بمصداق بعينه، وكما لا حاجة إلى قرينة في إطلاقه على الأبواب الحديثة، وما كان لها وجود عينيّ لا ذهنيّ حين وضع هذا الكلمة لمعناها؛ فلا حاجة أيضاً إلى قرينة في إطلاقه على الانسان الكامل، كعليّ بن أبي طالب عليه السلام.

٢ ـ العقد العلميّ والعقيدة القلبيّة

الفرق بين العقد والعقيدة أنّ العقد العلميّ عبارة عن الربط الذهنيّ بين الموضوع والمحمول، وهما المكوّنان لما يسمّى اصطلاحاً بـ «القضيّة»، وبسبب هذا الارتباط الذهنيّ يحصل العلم عند العالم به؛ ولكن ليس بالضرورة حصول الإيمان به، بل يتّصف العالم به بالإيمان إذا ما تحقّقه بروحه وانعقد قلبه على التصديق به والإذعان بصحّته، ولربما وجد عقد علميّ من دون أن يقترن باعتقاد قلبيّ، وهذا كان حال الفراعنة. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[1]، فقد حصل لهم العقد العلميّ في أذهانهم وعلموا بصدق معجزات موسى عليه السلام؛ ولكن لم يحصل العقد الإيماني، بسبب إصرارهم على الظلم واستحكام الاستكبار في نفوسهم، فجحدوا وعتوا.

والحاصل: إنّ العقد العلميّ بين الموضوع والمحمول نتاج العقل النظريّ، والعقد العمليّ بين النفس ذاتها وبين لبّ القضيّة نتاج محركيّة العقل العمليّ، وهو ما جاء في الرواية: «العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[2].

والفكر ليس باختيار النفس، ما عدا المبادئ؛ ولكنّ الباعث والمحرّك نحو الفعل بيد النفس وتحت اختيارها.

---

١ . النمل: ١٤.

٢ . الكافي، ج١، ص١١.

٣ ـ مكانة الإيمان

للإيمان في روايات أئمّة الدين مكانة خاصّة، فعن الرسول ﷺ قال: «ما من شيء أحبّ إلى الله من الإيمان»[١].

وسئل الامام الصادق عليه السلام: أيّ الأعمال أفضل عند الله؟

قال: «ما لا يقبل الله شيئاً إلاّ به»،

قلت: وما هو؟ قال: «الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجةً...»[٢].

وممّا جاء عن علي عليه السلام قوله: «الإيمان أعلى غاية»[٣]، وقوله: «لا شرفَ أعلى من الإيمان»[٤]، وقوله: «الإيمان أمان»[٥]، وقوله: «لا نجاة لمن لا إيمان له»[٦]، وقوله: «بالإيمان يُرتقى إلى ذروة السعادة ونهاية الحبور»[٧].

ملاحظة: للإيمان درجات بلحاظ المعرفة ومستوى الاعتقاد القلبي، ويصحّ تدرّجه أيضاً بلحاظ متعلّقه، فالإيمان بوجود الله وبوحدانيّته أعلى من الإيمان بوجوب الواجب المعيّن أو حرمة شيء معيّن.

٤ ـ آثار الإيمان

للإيمان آثار وبركات لا تُحصى، بعضها يظهر في هذه الدنيا وبعضها في الآخرة،

---

١ . بحار الأنوار، ج٦٤، ص٧١، ح٣٧. و الأمران الآخران المذكوران في الحديث وهما «العمل الصالح وترك ما أمر أن يُترك»، إمّا من آثار الإيمان أو من أجزائه.

٢ . بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٣.

٣ . شرح غرر الحكم، ج١، ص٢١٣.

٤ . شرح غرر الحكم، ج٦، ص٣٧٩.

٥ . شرح غرر الحكم، ج١، ص٢٦.

٦ . شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٠٢.

٧ . شرح غرر الحكم، ج٣، ص٢٣٤.

وفي الرواية أنّ رسول الله ﷺ نظر إلى الكعبة، فقال: «مرحباً بالبيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله؟! والله لَلمؤمن أعظم حرمة منك؛ لأنّ الله حرّم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: ماله، ودمه، وأن يُظنّ به ظنّ السوء»[1].

ومن آثار الإيمان الهيبة والوقار لصاحبه في قلوب الآخرين. قال الامام الباقر عليه السلام: «إنّ الله أعطى المؤمن ثلاث خصال: العزّ في الدنيا وفي دينه، والفلح في الآخرة، والمهابة في صدور العالمين»[2]. وقال الامام الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن يخشع له كلّ شيء، حتى هوام الأرض وسباعها وطير السماء»[3].

ملاحظة: السرّ في هذا الخشوع للمؤمن خشوع المؤمن نفسه في ساحة القدس الربوبي، فما من أحد يخاف الله إلاّ أخاف الله منه كلّ شيء.

٥ ـ حقيقة الإيمان

الإيمان حقيقة ذات دعائم عديدة، ولا تحقّق لها بلا تلك الدعائم، وحينما سئل عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن حقيقة الإيمان أجاب: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد...»[4]. وهذا بيان للدعائم الأساس للإيمان، وله شعب وفروع كثيرة لإكماله. وفي الرواية عن النبيّ ﷺ قال: «لا يكمل المؤمن إيمانه حتى يحتوي على مائة وثلاث خصال: فعلٍ، وعملٍ، ونيّةٍ، وباطنٍ، وظاهرٍ».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا رسول الله! ما المائة وثلاث خصال؟ فقال: «يا عليّ! من صفات المؤمن أن يكون:

---

١ . بحار الأنوار، ج٦٤، ص٧١.

٢ . المصدر السابق، ج٦٤، ص٧١.

٣ . المصدر السابق، ج٦٤، ص٧١.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة٣١.

جوّال الفكر،

جوهريّ الذكر».

ملاحظة: ورد في بعض النسخ «جهوريّ الذكر»؛ لكنّ المناسب لفقرة «جوّال الفكر» هو «جوهريّ الذكر»، والمعنى أنّ ذكر الله باللسان يجب أن يسبقه ذكره سبحانه بالقلب وأن يصطبغ بحضوره تعالى في السرّ، وإلاّ فذكره اللساني عرَض زائل، لا جوهر باقٍ. وعلى فرض صحّة عبارة «جهوريّ الذكر» فالمعنى أنّ المؤمن يجهر باسم الله تعالى ويعلن تمجيده، كما قال تعالى في وصف النبيّ الأكرم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[1].

«كثيراً علمه،

عظيماً حلمه،

جميل المنازعة،

كريم المراجعة».

أي حسن الخُلق في تعامله مع الناس في رجوعه إليهم أو رجوعهم إليه.

«أوسع الناس صدراً».

ذو صدر منشرح في مواجهة الصعاب، يكسرها بصبره ولا تكسره بشدّتها.

«وأذلّهم نفساً».

أي متواضع النفس، وليس وضيعها.

«ضحكه تبسّماً».

فلا يتعدّى ضحكه حدّ التبسّم؛ لأنّ القهقهة تميت القلب، وهي من الشيطان، فجاء في صفات النبي أنّ «جلّ ضحكه التبسّم»[2].

---

١ . ألم نشرح: ٤.

٢ . بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٩٨.

«واجتماعه تعلّماً».

لئلا يتلوث بالغيبة والتهمة ولغو الكلام فيذهب عمره هدراً.

«مذكّر الغافل».

أي يذكّر الغافلين عن ذكر الله.

«معلّم الجاهل،

لا يؤذي من يؤذيه».

بل يتغاضى عنه.

«ولا يخوض فيما لا يعنيه».

فلا يشغل نفسه بسفاسف الأمور وحقيرها، بل فيما ينفعه في دنياه وآخرته.

«ولا يشمت بمصيبة».

أي لا يفرح بهموم غيره،

شعر:

لا سرور بموت العدو... لأنّ حياتنا ليست خالدة.

«ولا يذكر أحداً بغيبة،

بريئاً من المحرّمات،

واقفاً عند الشبهات».

لأنّ الشبهات مدخل منطقة المحرّمات الإلهيّة، فمن لا يتّقيها يوشك أن يدخلها. قال النبيّ الأكرم ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر! إنّ المتّقين يتّقون الله عزّ وجلّ من الشيء الذي لا يُتّقى منه؛ خوفاً من الدخول في الشبهة»[1].

«كثير العطاء،

قليل الأذى».

---

١ . بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٦.

وذلك القليل يصدر عن سهو وغفلة وغيرهما ممّا لا تعمّد فيه.

«عوناً للغريب،

وأباً لليتيم».

سواء اليتيم العلمي أو اليتيم العرفي، فيعلّم الأول ويحسن إلى الثاني.

«بِشْرُهُ في وجهه»،

ليحدّث بنعمة الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١].

«وحزنه في قلبه».

ليُوفّى غداً أجر الصابرين.

«متبشّراً بفقره».

يتلقّى الفقر بالبِشْر ولا يستوحش منه؛ لأنّ الشعور بالافتقار إلى الله تعالى مع الاستغناء عمّن سواه فخر وبشرى خير.

«أحلى من الشهد».

محضره حلو؛ لأنّه مظهر أسماء الله الحسنى، ومتمسّك بحجزة الأئمّة الأطهار عليهم السلام، المخاطبون في هذه الزيارة بعبارة: «فما أحلى أسماءكم».

«وأصلد من الصلد».

صُلب في رفض الباطل؛ ولكنّه أوّاب إلى الحقّ ليّن في قبوله.

«لا يكشف سرّاً، ولا يهتك ستراً».

لأنّه مظهر ستّار العيوب.

«لطيف الحركات».

يتعامل برفق لا خرق فيه، بخطوات متأنّية محسوبة العواقب، لا يقدم قبل التدبّر في موضوع القضيّة وحكمها، فحاله حال أصحاب الكهف في تحرّي

---

١ . الضحى: ١١.

اللطف، حينما قالوا لجالب الطعام: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾[١]؛ لئلاّ يعلم أحد بأمرهم.

«حلو المشاهدة».

كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «خالطوا الناس مخالطة إن متّم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنّوا إليكم»[٢].

«كثير العبادة،

حسن الوقار،

ليّن الجانب».

يسهل التواصل معه، لا فظّ ولا غليظ القلب، بل متأسٍّ بأسوة البشريّة الرسول الكريم، عامل دوماً بقوله تعالى: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾[٣].

«طويل الصمت».

ففي السكوت منجاة من ذنوب كثيرة؛ ولذا أوصت به الروايات، منها قول النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «هو أوّل العبادة»[٤]. وقال له: «مَن صمت نجى»[٥].

شعر:

إنّك وإن وجدت الكلام يحلو كلّ لحظة... فإنّ الصمت أحلى منه إن كنت تعقل

إن إغلاق باب الفتنة يكون بإغلاق الفم... لأنّ العالم مليء بالخير والشرّ

وجدت الندامة على الكلام كثيراً... ولم يندم أحد على السكوت[٦].

---

١. الكهف: ١٩.

٢. نهج البلاغة، الحكمة رقم ١٠.

٣. آل عمران: ١٥٩.

٤. بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٨.

٥. المصدر نفسه.

٦. كشكول الشيخ البهائي، ج١، ص٦٩، نقلاً عن أمير خسرو دهلوي.

والصمت إحدىٰ وظائف خمس يحرص السالكون علىٰ العمل بها:

شعر:

صمت وجوع وسهر وخلوة وذكر دائم...

خمسةٌ ترّبي مَن لم يبلغ رشده مِن الآنام

«حليماً إذا جُهل عليه».

لا يعجل بالغضب علىٰ من يسفه عليه؛ إذ إنّ الانسان موجود اجتماعي بطبعه، فلا غرابة في أن يوجد في المجتمع سفهاء أحلامٍ يقدمون علىٰ سلوكيات مشينة، وإن لم يتحمّل المؤمن هذا الجهل منهم سوف يبتلي هو أيضاً بالوقوع في الزلل نفسه، وفي الرواية النبويّة: «يا أباذر! مَن لم يأتِ يوم القيامة بثلاث فقد خسر... وحلمٍ يردّ به جهل السفيه»[1].

«صبوراً علىٰ من أساء إليه».

ولا يعاجله بالانتقام.

«يبجّل الكبير»..

لأنّ توقير كبار السنّ من توقير الله تعالىٰ، كما في الرواية عن النبيّ[2].

«ويرحم الصغير،

أميناً علىٰ الأمانات».

سواء في الأمانة الماليّة أم أمانة العِرض والشرف والحرمة الشخصيّة، أم الأمانة العلميّة والفكريّة.

«بعيداً من الخيانات».

---

١. بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٧.

٢. المصدر السابق، ج٧٢، ص١٣٦.

لرعاية الأمانة مصاديق كثيرة، وبكثرتها تُعرف كثرة مصاديق الخيانة؛ لأنّ معناه عدم رعاية الأمانة.

«إلفه التقى،

وحلفه الحياء،

كثير الحذر».

فهو يراقب نفسه على الدوام، وكأنّه يمشي في طريق شائكة، ويراقب أيضاً عدوّه الخارجي بتيقّظ، عملاً بقوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[1].

«قليل الزلل».

وإن كان قد تزلّ قدمه هنا أو هناك جهلاً أو لغفلة تعتريه.

«حركاته أدب».

فهو يراعي الأدب في سمته، والأدب هو أثمن رأس مال الانسان؛ إذ«لا ميراث كالأدب»[2].

شعر:

سألنا الله التوفيق للأدب... ومن لا أدب له محروم من لطف الربّ

من لا أدب له لا يضرّ نفسه وحسب... بل يحرق كلّ شيء حوله[3].

«وكلامه عجب».

لأنّه ينطق بلبّ المعارف وحقائق العلوم.

«مقيل العثرة».

يقيل عثرة المعتذر، ولا يتصلّب في مواقفه منه.

---

١ . النساء: ٧١.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة رقم ٥٤.

٣ . مثنوي معنوي، الجزء الأوّل، البيت ٧٨.

«ولا يتتبّع العورة».

عملاً بحديث: «لا تتبّعوا عورات المؤمنين فإنّه من تتبّع عورات المؤمنين تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته فضحه ولو في جوف بيته»[١].

«وقوراً، صبوراً، رضيّاً».

لعلمه بأنّ الله حكيم عطوف، فيرضى بما كتبه الله له، مع السعي للقيام بوظيفته.

شعر:

أن تصهر بيديك الحديد لتخبز... خير من أن تخضع للأمير في طلبه

أفنيت سنيّ عمري الثمين في أنّه... ماذا أرتدي في الصيف وماذا أطعم في الشتاء!

أيّها البطن اللئيم لتقنع بالرغيف... كي لا تحني ظهرك تذلّلاً وصغاراً[٢].

«شكوراً،

قليل الكلام».

قال علي عليه السلام: «إذا تمّ العقل نقص الكلام»[٣].

لأنّ كمال العقل يكون برعاية الأحكام الشرعيّة، والالتزام بحدود الله تعالى يلجم اللسان عن كثير من الكلام. ومن هنا قال رسول الله لأبي ذر: «أترك فضول الكلام وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك»[٤]. لأنّ الكلام من آليات تواصل المرء مع الآخرين لنقل أفكاره ومقاصده وقضاء حوائجه، وما سوى ذلك لغو.

---

١. بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢١٤.

٢. گلستان، ص٤٩، الباب الأول، الحكاية رقم ٣٦.

٣. نهج البلاغة، الحكمة رقم ٧١.

٤. بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٥.

«صدوق اللسان،

بَرّاً،

مصوناً».

من الشبهات والمزالق الفكريّة والاعوجاج الأخلاقي والعملي. ومحفوظة كرامته وحرمته.

«حليماً».

الحلم هو غاية الصبر والتحمّل، وهو من النعوت التي لا يوفّق إليها إلاّ القلّة.

«رفيقاً».

ليّن العريكة، مُدارٍ للناس.

«عفيفاً،

شريفاً،

لا لعّان».

بل هو رحمة للجميع، كما كان رسول الله؛ إذ يقول: «إنّي لم أبعث لعّاناً وإنّما بعثت رحمةً»[1].

«ولا كذّاب».

لا في الجدّ ولا في المزاح، قال رسول الله لأبي ذر: «يا أبا ذر! ويلٌ للذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له، [ويلٌ له]»[2].

«ولا مغتاب».

لأنّ الغيبة بمنزلة أكل لحم الأخ المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿أيحبّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ

١ . صحيح مسلم، ج٨، ص٢٤.

٢ . بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٨.

لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾[١]، ولأنّ الغيبة ماحقة للحسنات، و«تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٢].

«ولا سبّاب».

لأنّ السباب فسقٌ؛ لرواية: «سبابُ المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر»[٣].

«ولا حسود».

الحسد هو أن يتأذّىٰ المرء من نعمة الله تعالىٰ عند غيره ويتمنّىٰ زوالها.

شعر:

إنّ البائسين سيىء الحظّ يتمنّون زوال نعمة ذوي النعمة والجاه

إن لم ير الخفّاش في وضح النهار فما ذنب الشمس في ذلك؟!

والحسد لا نفع فيه للحاسد؛ إذ«لا راحة لحسود»[٤] و«الحسود لا يسود»[٥]؛ ولا ضرر فيه للمحسود، بل هو يضرّ فاعله.

شعر:

إصبر علىٰ حسد الحاسد فانّ صبرك قاتله

فالنّار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله[٦]

أستطيع أن لا أوذي أحداً... لكن ماذا أفعل بالحسود؟ فإنّه يتعذّب بنفسه

فلتمت أيّها الحسود لتنجو، لأنّ هذا عذاب... لا خلاص من الشقاء به إلاّ بالموت[٧].

---

١ . الحجرات: ١٢.
٢ . بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٥٧.
٣ . بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٩.
٤ . المصدر السابق، ج٧٠، ص٢٥٧.
٥ . المصدر نفسه.
٦ . بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٦١.
٧ . گلستان، ص٢١، الباب الأول، الحكاية ٥.

فالمؤمن يغبط ولا يحسد، ويشكر الله تعالىٰ علىٰ ما منحه من نعم لأخيه المؤمن، ويطلب مثلها.

«ولا بخيل،

هشّاشاً بشّاشاً،

لا حسّاس ولا جسّاس».

لأنّ التجسّس ذنب في حدّ ذاته، ويمهّد لذنوب أخرىٰ أيضاً.

«يطلب من الأمور أعلاها».

فهو طمّاح إلى المعالي ذو همّة فيها؛ إذ «إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ معالي الأمور ويكره سفاسفها»[1].

شعر:

يوم القيامة سوق الجنان... يبيعون منازلها بالأعمال الجليلة.

«ومن الأخلاق أسناها».

ملاحظة: إنّ ما يُذكر في هذه الوصايا الأخلاقيّة مأخوذ من القرآن الكريم، الذي وصّىٰ بأن لا يقنع السّالك إلى الله المتخلّق بأخلاقه بالحدّ الأدنىٰ أو المتوسط من الكمال، بل عليه ببلوغ الأعلىٰ منه. قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]. بمعنىٰ أنّه لتكن عبوديّتكم خالصة ولا تشوبوها بالغفلة والمعصية والتكبّر و... واثبتوا علىٰ هذا الصراط المستقيم حتّىٰ الممات. وفي آية أخرىٰ، حثّ تعالىٰ علىٰ بذل الجهد قدر الاستطاعة في تحصيل الدرجة الرفيعة

١ . بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٢٣.

٢ . الزمر: ٥٥.

٣ . آل عمران: ١٠٢.

والغاية العالية، وأن لا نفتر ولا نتوانىٰ قدر ذرّة في ذلك، قال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[١].

«مشمولاً بحفظ الله».

فهو آمن من نزغ الشيطان وشرّه وهوىٰ النفس.

«مؤيّداً بتوفيق الله،

ذا قوّة في لين».

فهو سمح النّفس في عين قدرته.

«وعزمة في يقين».

فهو يقرّر ما يفعله عن يقين لا عن شكّ وتردّد.

«لا يحيف علىٰ من يبغض،

ولا يأثم فيمن يحب».

بمعنىٰ أنّه عالم بحدود الأمور، فلا يفْرط إن أحبّ ولا يفرّط إن أبغض، وليس كالبهائم التي تأكل أكلاً لمّاً[٢]، وتقصف كلّ ما تجده أمامها.

«صبوراً في الشدائد،

لا يجور ولا يعتدي،

ولا يأتي بما يشتهي».

فهو لا ينقاد لشهواته، بل همّه العمل بتكليفه. قال الرسول الأكرم ﷺ: «مَن أكل ما يشتهي ولبس ما يشتهي وركب ما يشتهي لم ينظر الله إليه حتىٰ ينزع أو يترك»[٣].

---

١. التغابن: ١٦.

٢. إشارة إلىٰ آية: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً﴾ (الفجر: ١٩).

٣. بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٤٢.

«الفقر شعاره، والصبر دثاره،

قليل المؤنة».

لا يبالي بزينة الدنيا، بل يتأسّىٰ بعليّ الذي آثر القناعة بخبز الشعير مع ما كان يقوم به من كدّ وإنتاج.

«كثير المعونة».

فهو معوان لغيره، جامع بين الجهد والجدّ في الانتاج وإثراء الاقتصاد العامّ للأمّة، والقناعة في الاستهلاك؛ لأنّه يحيا حياة القناعة، وهي حياة طيّبة.

«كثير الصيام، طويل القيام، قليل المنام.

قلبه تقيّ».

فهو مُتحلٍّ بحقيقة التقوىٰ الباطنيّة، لا التقوىٰ الظاهرة في الجوارح فقط.

«وعلمه زكيّ،

إذا قدر عفا».

قال الامام علي عليه السلام: «إذا قدرتَ علىٰ عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»[1].

«وإذا وعد وفىٰ،

يصوم رغَباً، ويصلّي رهَباً، ويحسن في عمله كأنّه ناظر إليه».

ملاحظات: الأولى: حُسن العمل بكماله وأدائه علىٰ أحسن وجه، مبرّءاً من العيوب سالماً من النواقص، جامعاً لشرائط الصحّة، هذا بلحاظ صورته الظاهريّة؛ وبلحاظ صورته وبنيته الداخليّة يكون ذا نظام متكامل منتج، وإذا ما اختلّت بعض هذه الأمور فلن يكمل حُسنه.

١ . نهج البلاغة، الحكمة رقم١١.

الثانية: إنّ نيّة القربة لله تعالىٰ وخلوصها هي روح العمل، فإذا ما انتفت نقص العمل ولم يبلغ الحُسن، بل ربّما أدّىٰ ذلك النقص إلىٰ انعدام الحُسن بكلّه، فلا يكون فيه أيّ عائد.

الثالثة: لمراقبة العامل لعمله دور فاعل في الحفاظ علىٰ حُسنه وكماله.

ولهذه المراقبة مراتب، منها:

١ ـ الرقابة علىٰ الحُسن الفعلي، بمعنىٰ النظارة علىٰ العمل نفسه، والحرص علىٰ تحقّق أركانه وأجزائه وشرائطه، وكلّ ما يسهم في تقوّمه، فلا يفوته منها شيء ولا يقع الفعل مخالفاً للنظم العقلي أو للنضد النقلي[١]. فإذا ما راعىٰ العاملُ هذه الأمور في عمله، لن يخاطَب بالتهديد بمثل قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢].

إنّ السهو في الصلاة لم يرد فيه تحذير وتهديد بالويل، لكن ورد ذلك في السهو عن الصلاة، والسهوُ عن كلّ عمل يستتبع عقاباً يناسب أهميّته، ولكن ما من سهوٍ يكون عقابه كعقاب السهو عن الصلاة؛ لأنّها عمود الدين، وعلىٰ هذا العمود تعتمد بقية الأعمال. وعليه فإنّ رقابة المرء علىٰ أعماله تصونه من السهو عن العمل وفيه، والعمل المبرّء من كلّ سهو هو الموصوف بالحُسن.

٢ ـ الرقابة علىٰ الحُسن الفاعلي، بمعنىٰ رقابة العامل المباشرة ووجود اليقين العلمي العقلي والعزم العملي النفسي، حذراً من الشكّ العلمي والتردّد العملي والرياء والسمعة و ماشابه؛ لأنّ الحُسن الفاعلي ينثلم وربما يزول بطروء هذه الأمراض، ويتبع ذلك انثلام الحُسن الفعلي أو زواله أيضاً؛ لأنّ حُسن العمل لا يكمل إلاّ بكمال الحُسن الفاعلي والحُسن الفعلي معاً.

---

١ . بمعنىٰ أن يكون الفعل المأتيّ به موافقاً لحكم العقل وقواعده إن كان عقليّاً، وموافقاً للأدلة النقليّة إن كان تعبديّاً. (المعرّب).

٢ . الماعون: ٤ ـ ٥.

٣ ـ الاستشعار العلميّ برقابة الله سبحانه وإشرافه عليه، ليحظي بالنظر التشريفي واللطفي منه تعالىٰ.

إنّ الرقابة الذاتيّة علىٰ العمل وإن كان لها دورها الفاعل في حُسنه، ولكن إذا استشعر العامل المراقب لعمله أنّه في محيط قيوميّة مبدءٍ، منه يصدر الأمر، وله يُمتثل التكليف، وبيده قبول العمل إن ارتضاه، أو ردّه إن كرهه، وبعلمه وقدرته ومشيئته يتنجّز الوعد والوعيد بالثواب والعقاب وبالجنّة والنار، وهو محيط بذلك بكلّ جوانب العمل بأحكامه وحِكمه وبدئه وختمه؛ فإنّه قَمَنٌ بأن لا ينسىٰ حين الامتثال حضور قيّمه وإشرافه عليه، وأنّ العمل كلّه مشهود له حاضر لديه بدءاً وختماً، وأنّ كلاً من الحُسن الفاعلي والفعلي بمرأىٰ منه. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١].

وإذا ما علم العامل أنّه الله يراه ومحيط علماً بباطن حاله فسيسعىٰ لأن يأتي بعمله علىٰ أحسن وجه؛ أملاً بأن يحظىٰ منه تعالىٰ بنظر تشريفيّ، وأن يصل عن طريق «العلم» برقابة الله تعالىٰ إلىٰ الفوز بالنظر اللطفيّ التشريفيّ إليه سبحانه. فهو يعمل وهذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾[٢] نصب عينيه، ويقوم بأعماله علىٰ أساس العلم بإشراف الله تعالىٰ عليه، فلا جرم أن تكون هكذا أعمال متّصفة بحُسن خاصّ.

ـ رؤية الله ذاته للعمل واستشعار رقابته وشهوده.

---

١ . يونس: ٦١.

٢ . العلق: ١٤.

لا شكّ في أنّ لرقابة العامل لعمله وعلمه برقابة قيّم عليه أثراً كبيراً في حُسن العمل؛ ولكن سيكون الحُسن أكمل وأتمّ وأثر الرقابة أعمق إذا ما اشتدّت الرقابة بحضور مراقب آخر، وهذا يحصل بأن يستشعر العامل للعمل القربيّ رؤيةَ قيّمهِ له، لا بمعنىٰ أن يعلم بأنّه بمرأىٰ منه وحسب، بل بمعنىٰ أنّ يراه العاملُ نفسه وأن يرىٰ شهوده للعمل، فيكون العمل محفوفاً في الحقيقة بشهود العامل وشهود القيّم.

وهذا مقام عزيز المنال، لا يحظىٰ به سوىٰ الانسان الكامل كأمير المؤمنين، القائل: «ما كنتُ أعبد ربّاً لم أره»[1]، فإن صار من نصيب عاملٍ ما وإلاّ فليكن من نصيبه المقام الأدنىٰ، وهو مقام «الاحسان»، وهو ما ذكره الرسول الأكرم ﷺ في قوله: «الاحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[2]. وفي هذا المقام لا يرىٰ العاملُ الله ذاته، بل كأنّه يراه، وبما أنّ الله سبحانه هو الشاهد القيّم فكأنّ العامل يرىٰ الشاهد لعمله؛ فكأنّه يرىٰ أنّه وعمله بمرأىٰ من الله تعالىٰ، فيسعىٰ جهده في أن يُتقن عمله لئلاّ يُعاب في حُسنه الفعلي أو الفاعلي؛ لأنّ من يحظىٰ بهذا المقام الرفيع هو أشدّ اتّصافاً بملكة الحياء من غيره. والحياء في ساحة شهود الله تعالىٰ لا ينفكُّ عن أدب خاصّ، يُسمّىٰ بالأدب مع الله. والأدب هو التجوّد في العمل لإكسابه الجمال وتحليته بالكمال، وعملُ المؤدّب جميل دائماً، وعمل الحييّ كامل تامّ، فلا غرو أن يكون حسناً، هذا.

وهذه المعاني المذكورة في بيان هذه الفقرة ـ والمجال مفتوح لوجوه ومعانٍ أخرىٰ أيضاً ـ تتمركز حول بيان الضمائر الواردة فيها، فبعضها يعود إلىٰ تعيين «الناظر»، وبعض منها يعود إلىٰ تعيين «المنظور»؛ وبعض الوجوه المذكورة أقرب وأتقن معنىً، وبعضها أحكم بلحاظ اللفظ والسياق.

---

١ . بحار الأنوار، ج٤، ص٥٢.

٢ . بحار الأنوار، ج٦٤، ص٣١٣.

«غضّ الطرف، سخيّ الكفّ،

لا يردّ سائلاً، لا يبخل بنائل،

متواصلاً إلى الاخوان، مترادفاً للاحسان،

يزنُ كلامه».

يزن كلامه بميزان الحقّ، فإن كان فيه أجر وثواب تكلّم، وإلاّ أحجم؛ لأنّ الكلام الطيّب صدقة،[1] وكذلك الخطوات التي يخطوها الإنسان إلى الصلاة صدقة. قال النبيّ ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر! الكلمة الطيّبة صدقة، وكلّ خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة»[2].

«ويُحرس لسانه».

فلا يتكلّم باللغو، حابساً لسانه عمّا لا فائدة فيه: «يا أبا ذر! ما من شيء أحقّ بطول السجن من اللسان»[3].

«لا يغرق في بغضه،

ولا يهلك في حبّه».

فهو معتدل في جذبه ودفعه، في حبّه وبغضه، في تولّيه وتبرّيه، وبعيد عن الإفراط والتفريط.

«ولا يقبل الباطل من صديقه،

ولا يردّ الحقّ على عدوّه،

ولا يتعلّم إلاّ ليعلم،

ولا يعلم إلاّ ليعمل».

---

١ . صدقة بمعنى الشيء المصدّق لإيمان الإنسان، والمعنى الاصطلاحي للصدقة المتقوّم بالإنفاق هو أحد مصاديق هذا المعنى العامّ.

٢ . بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٥.

٣ . المصدر السابق.٣٨١

شعر:

أيّها الجاهل مهما حزتَ من علم... فاعلم أنّه غير باقٍ فيك بقاء العمل

فمن هذا حاله ليس محقّقاً ولا عالماً... بل لا يعدو حماراً يحمل بضعة كتب

إنّ ذلك الأحمق الخرِف... لا يعلم ما يحمل! أحطَبٌ أو كتب[1].

«قليلاً حقده،

كثيراً شكره،

يطلب النهار معيشته،

ويبكي الليل علىٰ خطيئته،

إن سلك مع أهل الدنيا كان أكيسهم،

وإن سلك مع أهل الآخرة كان أورعهم،

لا يرضى في كسبه بشبهة،

ولا يعمل في دينه برخصة،

يعطف علىٰ أخيه بزلّته،

ويرعىٰ ما مضىٰ من قديم صحبته»[2].

ملاحظات: الأولى: عدد ما جاء في هذه الرواية يزيد علىٰ ١٠٣ خصلة، ولعلّ منشأ الاختلاف في العدد الأسباب التالية:

أ) أن يكون الراوي كرّر بعض الفقرات سهواً.

ب) أن يكون الراوي أخطأ سمعُه في سماع العدد أو في سماع الفقرات.

ج) أن يكون النبيّ الأكرم ﷺ قد جمع في بعض الفقرات بين أكثر من وصفين وبيّنه كوصف واحد.

١. گلستان، ص١٨٦، الباب الثامن.

٢. بحار الأنوار، ج٦٤، ص٣١٠.

الثانية: إنّ الأوصاف المذكورة للمؤمن تختلف في النصوص قلّةً وكثرةً، ومرجع ذلك إلى أنّ كلّ نصّ ليس بصدد الحصر الحقيقي، بل بصدد بيان هدف مرحليّ؛ فالجمع بين الأوصاف في مجموع النصوص سهل، لعدم تعارضها.

الثالثة: إنّ المؤمن الجامع لكلّ الصفات العقديّة والملكات الخُلقيّة العمليّة أكمل من سائر المؤمنين.

الرابعة: أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام هم المصداق الأكمل والمظهر الأتمّ لصفات الكمال.

وأُمناءَ الرّحمنِ

أُمناء: كلمة «أُمناء» جمع «أمين» مشتقّة من المادة «أمن» بمعنى طمأنينة النفس وزوال الخوف[1]. و«أمين» صفة مشبّهة، تأتي بمعنى اسم الفاعل تارةً وبمعنى اسم المفعول أخرى، مثل قتيل؛ ولذا فهي تأتي بمعنى «المؤتَمِن والمؤتمَن»[2]، والأكثر مجيئها بمعنى المفعول به.

والفرق بين «المؤتمَن والأمين» أنّ الأول موضع اعتماد النّاس وثقتهم، وإن كان خائناً في نفسه، والثاني هو مَن يتّصف بالأمانة حقّاً وصدقاً كملكة راسخة، فهو جديرٌ بثقة الآخرين في ذاته.

وعليه فالأمين هو مَن تودع لديه الأمانات لحفظها اطميناناً وثقةً به.

ولُقّبَ صاحب تفسير «مجمع البيان» بـ «أمين الاسلام»، ولُقّبَ بعض العلماء والأعيان بـ «أمين الشريعة» و«أمين الدين» و... لأنّهم لم يخونوا جماعة المسلمين ولا

---

١ . مفردات غريب القرآن للراغب، مادة «أمن».

٢ . مقاييس اللغة، مادة «أمن».

البشريّة، رغم ابتلائهم بامتحان صعب وعسير، وقد كان أهل مكّة قبل البعثة يطلقون على النبيّ الأكرم «محمّد الأمين» لأمانته.

الرحمن: «الرحمن والرحيم» مشتقّتان من «الرحمة» التي هي مصدر لمادّة «رحم»، والفرق بين معنييهما ورد في رواية للإمام الصادق عليه السلام، قال: «الرحمن اسم خاصٌّ بصفةٍ عامّة، والرحيم اسم عامٌّ بصفةٍ خاصّة»[1].

بمعنى: أنّ «الرحمن» اسم خاصّ بالله سبحانه، ولا يجوز لأحد التسمّي به، وهو مظهر للرحمة العامّة للعالمين، و«الرحيم» اسم عامّ، يصحّ لغيره تعالى التسمّي به، وهو مظهر للرحمة الخاصّة بالمؤمنين.

الأئمّة أمناء الله

وُصف الأئمّة الأطهار عليهم السلام في هذه الفقرة بأنّهم «أُمناء الرحمان»، ولبيان ثبوت هذه الخصّيصة لكلّ واحدٍ منهم نقول:

يتهدّد المؤتمنين أمران:

١. قابليّتهم الضيّقة وقدرتهم المحدودة، فليس كلّ مؤتَمن بقادر على تحمّل كلّ أمانة تُعرض عليه، وخير مثال لذلك السموات والأرض والجبال، فقد أبينَ حمل الأمانة لثقلها، قال تعالى: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾**[2].

٢. الخشية من خيانة الأمانة وعدم أدائها أداءً حميداً.

وهذان الأمران لا يتهدّدان الأئمّة الأطهار عليهم السلام:

أولا: لأنّ قابليّتهم الوجوديّة من السعة والفسحة بحيث تستوعب كلّ فيض

---

١. مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٩٤؛ نور الثقلين، ج١، ص٢٢٥، في تفسير البسملة من سورة الحمد.

٢. الأحزاب: ٧٢.

ربوبيّ يتنزّل؛ لأنّهم الواسطة بين الواجب تعالىٰ وبين عالم الإمكان، وكلّ فيض غيبي يتنزّل إنّما يصل إلىٰ الموجودات عبر قناتهم الوجوديّة المقدّسة.

ثانياً: لأنّهم معصومون من كلّ ذنب ومنزّهون من كلّ زلل، فلا معنىٰ لاحتمال القصور أو التقصير فيهم.

وعليه فهم عليهم السلام واسطة الفيض في الرحمات الرحيميّة وفي تنزّل الرحمة الرحمانيّة أيضاً.

إنّ أعداء الله يستمدّون من الفيض الإلهي حتّىٰ في عداوتهم له تعالىٰ، ويعصونه مستفيدين من النعم الربانيّة بإذنٍ تكوينيّ من ربّ العالمين، فالله تعالىٰ لا يقطع عنهم فيضه حتّىٰ مع عصيانهم؛ ولذا ورد في حديث قدسيّ: «ابن آدم!... وبقوّتي أدّيتَ إليّ فرائضي، وبنعمتي قويت علىٰ معصيتي»[1]، وورد كذلك: «عملتَ المعاصي بقوّتي التي جعلتُ فيك»[2]. فأعداء الأئمّة يستقوون في عداوتهم بما يتلقّونه من الفيض الإلهي عبر قناتهم عليهم السلام، ومع ذلك فهم عليهم السلام لا يمنعون عنهم وساطتهم في إيصال الفيض إليهم؛ لأنّهم مظهر لصفات الربّ، وهو متجلٍّ علىٰ عرش حكم العالم باسم «الرحمن»، ومن مائدة نعمه يطعم أعداؤه، فهم عليهم السلام أيضاً مظهر «الرحمن» في وساطتهم في إيصال الفيض العام، ومن مائدة وساطتهم يأكل أعداؤهم.

ملاحظة: لا شبهةَ في أنّ أمين الله الرحمن أمينٌ في إيصال الفيض إلىٰ المحتاجين، وأمين أيضاً في عرض حاجة السائلين وإبلاغ طلبة الطالبين، علماً أنّ الذات الإلهيّة المقدّسة أقرب وأعلم وأقدر في كلّ شيء؛ لكنّ الكلام في خصائص أمين الله تعالىٰ علىٰ الوساطة.

---

١. بحار الأنوار، ج٥، ص٥٦.

٢. المصدر نفسه.

إشارات

١ ـ قيمة الأمانة في الإسلام

من التعاليم الاسلاميّة المهمّة والمحوريّة حفظ الأمانة وأداؤها، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[١]، وفي آيةٍ أخرىٰ قُرنت خيانة الأمانة بخيانة الله ورسوله: ﴿لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾[٢]، ولم يكتفِ الله تعالىٰ بإيجاب ردّها فقط؛ بل أكدّ علىٰ السعي البليغ في حفظها ورعايتها، حتّىٰ أنّه تعالىٰ عدّ من صفات المؤمن الحقيقيّ المقيم الصلاة حفظ الأمانة والمبالغة في رعايتها وصونها من كلّ نقص، فقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٣]. وورد في كثير من الروايات أنّ معيار الفرق بين الإيمان الصادق والإيمان الكاذب أداء الأمانة؛ قال رسول الله: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[٤]، وقال في رواية ثانية: «لا تنظروا إلىٰ كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحجّ والمعروف وطنطنتهم بالليل؛ انظروا إلىٰ صدق الحديث وأداء الأمانة»[٥]. وفي ثالثة عدّ أداء الأمانةِ من أسباب خير هذه الأمّة، فقال:

«لا تزال أمّتي بخير ما تحابّوا وتهادوا وأدّوا الأمانة واجتنبوا الحرام، وقَرَوا الضيف، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة؛ فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين»[٦].

---

١ . البقرة: ٢٨٣.

٢ . الأنفال: ٢٧.

٣ . المؤمنون: ٨؛ المعارج: ٣٢.

٤ . بحار الأنوار، ج٧٢، ص١١٦.

٥ . بحار الأنوار، ج١٠، ص١١٥.

٦ . المصدر السابق.

وعن أبي كهمس قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: عبد الله بن أبي يعفور يقرؤك السلام. قال: وعليك وعليه السلام، إذا أتيت عبد الله فاقرأه السلام، وقل له: إنّ جعفر بن محمّد يقول لك: «انظر ما بلغ به عليّ عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله فالزمه؛ فإنّ عليّاً عليه السلام إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة»[1].

وعدّ أميرُ العرفاء أداء الأمانة من أسباب النّصر والتسلّط، قال: «سيُدالون منكم... وبأدائهم الأمانة إلىٰ صاحبهم وخيانتكم»[2].

٢ ـ الحقّ العالمي

أقرّ الاسلام رعاية الأمانة وأدائها لصاحبها كحقّ عامّ لكلّ البشر، لا يلغيه فسق ولا كفر، فلا يُشترط فيه إيمان و عدالة[3].

أجل؛ الأمين بالخيار في قبول الأمانة، فله أن يمتنع ابتداءً من قبول أمانة غير المؤمن أو غير المسلم أو غير العادل... ولكن لو قبلها من أيّ أحدٍ كان لم يجز خيانتها أبداً؛ ولذا ورد في الروايات لزوم أداء الأمانة إلىٰ الفاجر أيضاً، قال الامام الصادق عليه السلام: «أدّوا الأمانة إلىٰ البرّ والفاجر، فلو أنّ قاتل عليّ ائتمنني علىٰ أمانةٍ لأدّيتها إليه»[4].

وقال سيّد الساجدين وزين العابدين عليه السلام: «عليكم بأداء الأمانة، فو الذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً لو أنّ قاتل أبي الحسين بن عليّ عليه السلام ائتمنني علىٰ السيف الذي قتله به لأدّيته إليه»[5].

---

١ . الكافي، ج٢، باب الصدق وأداء الأمانة، ح٥.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٢٥، الفقرة٢.

٣ . انظر: النهاية للشيخ الطوسي، ص٤٣٥.

٤ . بحار الأنوار، ج٧٢، ص١١٥.

٥ . المصدر نفسه، ص١٤٤.

ملاحظتان: الأولى: مراد الامامين الصادق والسجّاد عليهما السلام أنّ خبث طينة ابن ملجم وشمر لا يلغي حقّ ردّ الأمانة، حتّى لو كانت الأمانة السيف الذي قُتل به عليّ أو الحسين، هذا في حالة سبق القتل؛ أمّا في حال سبق الإئتمان والعلم بإضمار قتلهما فهم عليهم السلام لن يرجعوا السيف الأمانة إليهما؛ لعدم جواز تمكين العدوّ المحارب وتقويته؛ ولذا لا حرمةَ لمال الكافر الحربيّ الذي يخوض حرباً فعليّة ضدّ الاسلام، بل ماله مباح وإن كان أمانةً.

الثانية: لو أنّ الظالم أودع عند الأمين مالاً اغتصبه، لم يسغ للأمين إرجاعه إليه، بل عليه إرجاعه إلى صاحبه؛ لأنّ الأمانة محترمة في حال كونها ملكاً للمؤتَمِن، لا غصباً؛ لذا فإنّ كلّ مال يجب ردّه إلى مالكه الشرعيّ، إلاّ أن يكون في ذلك خوف ضرر في النفس أو المال،على نفسه أو على مؤمن، فلا مناص حينئذٍ من إرجاع المال إلى الغاصب[1].

٣ ـ دائرة الأمانة

يختزل البعض معنى الأمانة وحفظها في الأمانة الشخصيّة المعروفة، مثل أن يأتمنهم أحد على كتاب مثلاً، فيرون أنّ حفظه يكمن في عدم التصرّف فيه، وأن يؤدّوه إلى صاحبه حال طلبه؛ والحال أنّ دائرة الأمانة ـ مقارنةً بالعارية ـ أوسع بكثير من ذلك، وإليك بعض مصاديقها الواردة في الآيات والروايات:

١. أموال وثروات الناس عامّة: قال تعالى: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾[2].

٢. **المنصب والوظيفة**، قال الامام عليّ عليه السلام لأحد ولاته: «إنّ عملك ليس لك

١. النهاية للشيخ الطوسي، ص٤٣٦.

٢. البقرة: ٢٨٣.

بطعمة، ولكنّه في عنقك أمانة»[١].

٣. النفس وجوارحها: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهمّ اجعل نفسي أوّل كريمة تنتزعها من كرائمي، وأوّل وديعةٍ ترتجعها من ودائع نعمك عندي»[٢].

٤. مجالس الأخوان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المجالس بالأمانة وإفشاء سرّ أخيك خيانة»[٣].

٥. الوحي الإلهي: قال الإمام علي عليه السلام: «أمين وحيه وخاتم رسله»[٤].

٦. الدين والقرآن: وقال أيضاً: «إنّ الله بعث محمّداً نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل»[٥].

إلى غير ذلك من المصاديق.

وخلاصة الكلام: إنّ العارية شيء يصير إليك من أموال وممتلكات غيرك، وإنّما أخذته للإفادة منه بالكيفيّة الصحيحة ثمّ إرجاعه إلى صاحبه؛ والأمانة شيء لغيرك يقع في يدك لتوصله إليه؛ وبيد كلّ إمرء أمانات عديدة، بحسب وظيفته ومنصبه الذي يشغله في هذه الحياة، وعليه إيصالها إلى أصحابها، بل إنّ نظام الوجود بأسره مؤتَمَن، وسيؤدّي أماناته عاجلاً أو آجلاً إلى صاحبها الحقيقي، وهو الله سبحانه الذي يستردّ من الكلّ أماناتهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[٦]، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٧].

وهو الله تعالى ـ دون غيره ـ الذي لا أمانة لأحد عنده.

---

١. نهج البلاغة، الكتاب الخامس.
٢. نهج البلاغة، الخطبة٢١٥، الفقرة٥.
٣. بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٩.
٤. نهج البلاغة، الخطبة١٧٣.
٥. نهج البلاغة، الخطبة٢٦.
٦. مريم: ٤٠.
٧. آل عمران: ١٨٠؛ الحديد: ١٠.

٤ ـ الرحمة العامّة والرحمة الخاصّة

على ضوء الآية الكريمة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] تنقسم الرحمة الإلهيّة إلى رحمة عامّة ورحمة خاصّة؛ لأنّ الله سبحانه قرّر في جوابه لموسى الكليم بأنّ رحمته ليست خاصّة بموجود معيّن، بل تسع كلّ شيء، ثمّ قال تعالى إنّه سيوجبها لمن اتّقى وآتى الزكاة ومن آمن بآياته؛ فهناك رحمتان:

١. الرحمة الرحمانيّة، وهي رحمة شاملة لا يُستثنى منها شيء، ويدخل في عمومها حتى الغضب، فغضبه تعالى ناشئ من هذه الرحمة العامّة ومظهر لها. وبهذه الرحمة الواسعة خُلق عالم الوجود بأسره، بآخرته وجنانها ونعيمها ونيرانها وعذابها، وبملائكته، والدنيا بجنّها وإنسها، صالحهم وطالحهم، وجمادها ودوابّها، وبها يُرزقون ويطعمون. ولعموم هذه الرحمة فإنّه لا ضدّ وجوديّ يقابلها، بل يقابلها «العدم». ويطلق عليها «الرحمة الرحمانيّة» لأنّ القرآن الكريم شرع بالاسم المبارك (الرحمن) في ذكره الرحمات المتنوّعة الموجودة في النظام الأحسن، وهذا يفيد بأنّ الرحمة العامّة المذكورة في سورة الأعراف المباركة من تجلّيات وبركات الاسم المقدّس (الرحمان). وهذا الاسم برزخ وواسطة بين ذات الباري تعالى والأسماء والصفات الإلهيّة الأخرى، يتلقّى الفيض الإجمالي من الذات الحقّة ويوزّعها تفصيلاً بين الأسماء والصفات الأخرى لذا يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[٢].

٢. الرحمة الرحيميّة، وهي رحمة خاصّة، وُعد بها المتّقون؛ لقوله تعالى:

---

١. الأعراف: ١٥٦.

٢. طه: ٥.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[1]. فعلّل تعالى صلواته وصلوات ملائكته على خصوص المؤمنين وهدايته لهم بأنّه «رحيم»، ولخصوص هذه الرحمة فإنّ المقابل لها هو الغضب. فالرحمة الخاصّة هذه تجلٍّ للاسم المبارك (الرحيم).

٥ ـ معنى العرش

ذُكر «العرش» في عدد من الآيات الكريمة كمحلّ لاستواء وجلوس الله سبحانه، وهو كناية عن المُلك والقدرة والحاكميّة الإلهيّة المطلقة على نظام الوجود، وإذا كان للمَلك الاعتباري قدرة وحاكميّة وإحاطة نسبيّة بشؤون مملكته ومَن فيها؛ فخالق الوجود أولى بذلك؛ لأنّه تعالى الملك الحقيقي، وما يعزب عنه من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، فكلّ شيء في قبضته وتحت حكمه وتدبيره. فلا نهاية لعلمه وقدرته وَ﴿لهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]؛ لأنّ سلطنته هي الواقع ونفس الأمر، لا مجرّد اعتبارٍ من معتبر؛ لذا جاء في الدعاء: «ولا يمكن الفرار من حكومتك»[3]، ولا شيء غائب عن علمه النافذ؛ لـ ﴿أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[4]. وهذه الإحاطة الشاملة والتدبير العام فرع الرحمة والإفاضة العامّة. ولذا بيّن الله سبحانه مقام حاكميّته الفريد باسم «الرحمن»، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[5]؛ لأنّه لا اسم آخر يضاهيه في سعة فيضه وعموم سيبه، وهو

---

١ . الأحزاب: ٤٣.

٢ . الحديد: ٢.

٣ . مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٤ . الطلاق: ١٢.

٥ . طه: ٥.

أقرب الأسماء من الاسم «الله».

وأمّا السلطان الاعتباري فالفرار منه والخروج عليه ممكن؛ لأنّه محدود العلم والقدرة والنفوذ، ولأنّ حاكميّته لا رصيدَ لها في الواقع ونفس الأمر، بل هي اعتبار محض، وناشئةٌ من التوافق العقلائي، لا أكثر.

وَسُلالَةَ النّبيّينَ وَصَفْوَةَ المُرسَلينَ وَعِتْرَةَ خيرَةِ رَبّ العالَمينَ

كلمة «سُلالة» مشتقّة من المادة «سلل» بمعنى التحصّل والخروج من شيء، كسلّ السيف من الغمد[1]، والسلالة اسم لما يُسلّ من الشيء[2]؛ ولذا يسمّى ماء الرجل «سلالةً» لانسلاله من صلبه[3]، فيكون معناها صفوة الشيء التي تنسلّ وتخرج منه[4].

و«النبيّين» جمع «النبيّ»، وسبق تعريفه بأنّه متلقّي الوحي السماويّ[5]. فسلالة النبيّين بمعنى «خلاصة الأنبياء وعصارتهم».

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٥، مادة «سلل».

٢ . مجمع البيان، ج٧ ـ ٨، ص١٦٠، ذيل الآية ١٢ من سورة المؤمنون.

٣ . المصدر السابق، ص٥١٢، ذيل الآية ٨ من سورة السجدة.

٤ . المصدر نفسه، ص١٦٠.

٥ . هذا أحد معنييه.

و«صفوة» مشتقّة من المادة «صفو» بمعنى الخلوص من كلّ شوب[١]. و«صفو الشيء خالصه»[٢]، و«الصفاء» ضدّ الكدورة والنقاء من كلّ شوب، ومنها اشتقاق «التصفية» وهي تنقية الشيء وتخليصه من الشوائب.

ويصحّ قراءة «صفوة» بفتح الصاد وكسرها وضمّها.

و«المرسَلين» جمع «المرسَل» مشتقّ من المادة «رسل»، و«المرسلون» في الاصطلاح هم من يتلقّون الوحي الإلهي والمأمورون بإبلاغه للناس، ويسمّون باللغة الفارسيّة «پيامبران».

وتصفية شيء وتنقيته بمعنى اصطفاؤه وانتخاله، فمن يسلّ عصارة الورد بطريقة معيّنة فهو يقوم باصطفاءٍ وانتقاء.

و«التصفية» تارة تكون بمعنى تخليص الشيء من العوالق الدخيلة عليه، كما في عملية إعداد العطور من نوَر الورود، فإنّ ما يبقى من الورد بعد استلال مائه يُلقى في الكناسة؛ لأنّه حثالة الورد. وتارةً يكون بمعنى اختيار الأحسن من الحسن، كانتخاب «نهج البلاغة» من بليغ كلام أمير المؤمنين، بهمّة عالية من السيّد الرضي؛ فإنّه عمليّة انتقاء للأحسن من غير الأحسن، لا استلال الحسن من القبيح، وعدّ بقيّة كلام عليّ عليه السلام رديئاً لا خير فيه.

وعليه فمعنى «صفوة المرسلين» هو خلاصتهم الخالصة من كلّ خليط. وبما أنّ رسل الله سبحانه معصومون فهم لا يتّصفون بغير الفضائل، فلا جرم أن تكون خلاصتهم وصفوتهم مثل ماء الورود، مستجمعة في ذاتها عطر فضائل تلك الورود. فأهل البيت هم صفوة أنبياء الله تعالى، وفيهم خلاصة فضائلهم وزبدة فضلهم.

---

١. مقاييس اللغة، مادة «صفو».

٢. المصباح المنير، مادة «صفو».

العترة: قال الفيومي: «العترة نسل الإنسان، قال الأزهري وروىٰ ثعلب عن ابن الأعرابي أنّ العترة وُلد الرجل وذريّته وعقبه من صلبه، ولا تعرف العرب من العترة غير ذلك»[١].

خِيَرَة: هذه الكلمة مشتقّة من المادة «خير»، وسيأتي البحث فيها في فقرة: «إن ذُكر الخير كنتم أوّله»، ونكتفي هنا بذكر معنيين لهذه الكلمة:

١ ـ أن تكون معنىٰ مصدريّاً، بمعنىٰ «الاختيار» نفسه[٢]. وهو المعنىٰ المراد من «الخِيَرة» في آية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٣].

٢ ـ أن تكون معنىٰ وصفيّاً، بمعنىٰ الشيء المنتَخب والمصطفىٰ. وهو المعنىٰ المراد في عبارة «خِيَرَة الله» الواردة في الروايات وصفاً[٤] للرسول الأكرم ﷺ. و«خِيِّرة وخِيَرَة» في معنىٰ واحد[٥]؛ لكنّ المعنىٰ المراد من هذه الفقرة من الزيارة الثاني، ومصداقه الرسول الأكرم ﷺ.

ربّ: الربوبيّة تحمل معنىٰ سوق الشيء إلىٰ جهة الكمال وإزالة النقائص، بالتخلية أو بالتحلية[٦]. فالربّ هو مَن شأنه تهذيب الأشياء من عيوبها وسوقها

---

١ . المصباح المنير، مادة «عتر». وسيأتي في بحث «إشارات» توضح أكثر لهذا المطلب.

٢ . قال الزجاج: «الخيرة التخيير، وقال علي بن عيسىٰ: الخيرة إرادة اختيار الشيء علىٰ غيره». (مجمع البيان، مج٧ ـ ٨ ، ذيل الآية ٣٦ من سورة الأحزاب).

٣ . الأحزاب: ٣٦.

٤ . ويقال: هي اسم من «تخيّرت الشيء»، مثل: الطيرة اسم من تطيّر. (المصباح المنير، مادة «خير»). وهي الاسم من قولك: اختاره الله تعالىٰ. وفي الحديث: «محمّدٌ صلىٰ الله عليه وسلم خِيَرَةُ الله». (لسان العرب، ج٤، ص٢٦٦؛ وصحاح اللغة، مادة «خير»).

٥ . انظر: لسان العرب، مادة «خير».

٦ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٤، ص٩، مادة «ربّ».

إلىٰ كمالها[١].

العالمين: هذه الكلمة جمع «العالَم». و«العالَم والعلَم والعلامة» أسماء لما يُعلم به الشيء. قال الزمخشري: العالَم: اسم لذوي العِلم من الملائكة والثقلين.

وذكر قول بعضهم بأنّه: كلّ ما علم به الخالقُ من الأجسام والأعراض.

ثمّ قال: فإن قلتَ: لِمَ جُمع؟ قلتُ: ليشمل كلّ جنس ممّا سُمّي به[٢].

وعلاوةً علىٰ ذلك فإنّ علماء النحو قالوا: إنّ دخول الألف واللام علىٰ الجمع يفيد العموم، وهذا تأكيد للعموم الذي ذكره الزمخشري. وعليه فكلّ موجود من موجودات نظام الوجود يُسمّىٰ «عالَماً»؛ لأنّه آية وعلامة علىٰ وجود الله سبحانه.

فيكون مصداق «ربّ العالمين» هو مَن يتكفّل بتكميل وتهذيب جميع موجودات دار الوجود.

ملاحظتان: الأولىٰ: الرسول الأكرم ﷺ هو خِيَرة الرحمن وخِيَرة الكريم وخِيَرة الغفور، وفوق هذا كلّه هو خِيَرة الله؛ ولكن هنا اختير التعبير عنه بـ«خِيَرة ربّ العالمين» للتدليل علىٰ أنّ هذا الاصطفاء هو مقتضىٰ ربوبيّة الله تعالىٰ[٣].

الثانية: إنّ الربوبيّة ليست خاصّة بصنف معيّن من الموجودات، وإضافة«ربّ» إلىٰ «العالَمين» تدلّ علىٰ شمولها لكلّ الوجود، وأنّ علىٰ عاتق هذا المصطفىٰ الربّاني إيصال كافّة موجودات نظام الوجود إلىٰ كمالها؛ لأنّ دور «خليفة الله» الوساطة بين الواجب تعالىٰ والممكنات، وهي تقتضي إفادتها من الفيض الربوبي للحقّ تعالىٰ؛ لذا قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]، فهو نهج تربويّ للتكامل للجميع. وقد ذكر

---

١. للمزيد انظر: تفسير تسنيم، ج١، ص٣٣١، ذيل آية: ﴿الحمدُ لله رَبِّ العالمينَ﴾.

٢. الكشّاف، ج١، ص١٠.

٣. وهذا ما يعبَّر عنه في الاصطلاح الأصولي بأنّه تعليق الحكم علىٰ وصف مُشعر بالعليّة.

٤. الحاقة: ٤٣.

كلٌّ من الأنبياء العظام كنوح وهود وموسى وهارون بأنّه: ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

فيتحصّل من هذا كلّه أنّ «عترة خيرة ربّ العالمين» بمعنى: ذريّة خيرة الله وصفوته، وهو الرسول محمّد ﷺ لا غير.

خلاصة فضائل كُمّل البشر

إنّ الأوصاف الثلاثة الواردة في هذه الفقرة لأهل بيت العصمة والطهارة جاءت مرتّبةً وفقَ الأهميّة، فوصفوا أولاً بأنّهم «سلالة النبيّين»، ثمّ وُصفوا بأنّهم «صفوة المرسلين»، وشأن المرسلين أعلى من شأن النبيّين، ثمّ وُصفوا بأنّهم «عترة خِيَرة ربّ العالمين»، والرسول الأكرم أشرف المخلوقات على الاطلاق. وهذا يدلّ على عدم كفاية الوصفين الأوليين للتأهّل لمنصب الإمامة وخلافة النبي الأكرم ﷺ، بل لا بدّ من الإضافة الخاصّة إلى «خيرة ربّ العالمين»؛ لتخرج مثل ذريّة أبي لهب والأمويين والعباسيّين، لأنّهم وإن كانوا من نسل الأنبياء والمرسلين لكونهم من ذراري عبد المطلّب وعبد مناف عليهما السلام؛ لكنّهم ليسوا من عترة خيرة ربّ العالمين.

والمُعطى الأولي لهذه الفقرة أنّ كثيراً من عظماء الأنبياء والمرسلين هم أجداد للأئمة الأطهار عليهم السلام. وهذا وإن كان حقّاً، ولكن يبدو أنّ هذه الفقرة بصدد بيان معنى آخر أهمّ، وهو أنّ أئمّة هذه السلسلة الجليلة ـ علاوة على طهارتهم وعصمتهم في أنفسهم ـ مطهّرون أيضاً من جهة أبائهم وأجدادهم، وتوضيح ذلك:

إنّ متولّي المناصب لا بدّ أن تتوفر فيهم مزايا وقدرات تتناسب مع المنصب الذي يتصدّون له، ولا بدّ أيضاً من خلوّهم من جملة موانع، فمن يطمح لرئاسة

---

١. الأعراف: ٦١ و٦٧ و١٠٤؛ الشعراء: ١٦؛ الزخرف: ٢٦. مع اختلاف يسير.

دولة يجب أن يتمتّع برؤية سياسيّة، وقدرة تدبير وتخطيط إداري، واستطاعة بدنيّة كافية، ولكلّ منصب شروطه الخاصّة اللازمة المناسبة له، سواء إدارة مصنع أم مؤسسة تعليميّة أم غير ذلك؛ ولذا يُشترط شرعاً في القاضي ـ علاوة على الشرائط العامّة ـ شرائط خاصّة. قال الفقيه الكبير المحقق الحلّي: «ويُشترط فيه... وكمال العقل و...»[١]. وعلّق صاحب الجواهر بقوله: «بلا خلاف أجده في شيء منها»[٢]. فلا يكفي في القاضي توفّره على القدرة العقليّة المذكورة في الشرائط العامّة للتكليف، بل لا بدّ من اتّصافه بكمال العقل. ومن شرائط القاضي ومرجع التقليد وإمام الجماعة والشاهد في الأمر المهمّ طهارةُ المولد[٣]. وهذا ليس بمعنى شرطيّة طهارة الولادة، بل بمعنى أنّ التولّد من الزنا مانعٌ؛ لذا قال الفقيه اليزدي: «... وأن لا يكون متولّداً من الزنا»[٤].

وفي بيان شرائط إمام الجماعة، قال: «وأن لا يكون ابن زنا»[٥]. وعليه فمن يُشتهر بأنّه ابن زِنَوي لا يليق بتولّي هذه المناصب. ولكن لا يشترط إحراز طهارة الولادة فيمن لا يُعرف عنه ذلك، فلا يجب على المكلّف التحقيق والفحص عن نسب وحسب إمام الجماعة أو القاضي أو الشاهد؛ ولذا عبّر الفقهاء عن هذا بالقول: «ليست الطهارة شرطاً للإمامة، بل المانع كونه ولد الزنا، فالقيد المعتبر عدميّ، لا وجوديّ»[٦].

---

١ . شرائع الاسلام، ج٤، ص٦٧.
٢ . جواهر الكلام، ج٤٠، ص١٢.
٣ . المصدر السابق،ص١٣.
٤ . العروة الوثقى، باب التقليد، المسألة٢٢.
٥ . المصدر نفسه، باب الصلاة، شرائط إمام الجماعة.
٦ . مستند العروة الوثقى، ج٥، القسم الثاني، ص٤٠١.

وأقوىٰ دليل مذكور علىٰ مانعيّة ولادة الزنا هو أنّ هذه الولادة منقصة لا يرضى بها الشارع المقدّس في متولّي المناصب المعنويّة، كمنصب القضاء وإمام الجماعة والمرجع الديني، وما ماثل من مناصب معنويّة مهمّة[١]، والابن وإن لم يكن له ذنب، لكنّ المحيط الاجتماعي المسلم يعتبر التولّد من زنا نحساً وشقاءً، ويتشائم من الاقتراب من الولد الزِنَوي أو الانقياد له؛ والحال أنّ متولّي هكذا مناصب يُفترض أن يحكموا القلوب. فمثَل ولد الزنا وغيره كالوردة النابتة في الكناسة والوردة النابتة في الحديقة، فإنّ بينهما تفاوتاً كبيراً؛ إذ إنّ نبات وردة في كناسة نادر الوقوع، وإن حصل ونبتت فلن يكون لها من أريج العطر ما لوردة الحديقة، وإن كان لها ذلك في نفسها فإنّ رائحة عفونة الكناسة والقاذروة ستطغىٰ عليها وستنفّر النفوس منها[٢]. وعلاوة علىٰ هذا التعليل العقلائي، توجد أيضاً أدلّة نقليّة تنهىٰ عن تولّي ولد الزنا لمثل هذه المناصب، فقال الامام الصادق عليه السلام: «خمسة لا يؤمّون الناس علىٰ كلّ حال:... المجنون وولد الزنا»[٣].

وغير خافٍ علىٰ أحد نفور الناس من المجنون وولد الزنا، ومن المرتدّ وشارب الخمر والمحدود بحدّ شرعي، وقد جاء ذكرهم في روايات أخرىٰ أيضاً.

لازم الإمامة: العشق القلبيّ

نحن نعلم أنّ الإمامة الملكوتيّة ليست منصباً مختزلاً في الرئاسة الماديّة والدنيويّة، بل هي مقام معنوي ومنصب النيابة عن الذات المقدّسة للباري تعالىٰ،

---

١ . انظر: التنقيح في شرح العروة الوثقىٰ، ج١، ص٢٣٦.

٢ . عن الصادق، عن آبائه عليهم السلام، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال للناس: «إيّاكم وخضراء الدمن»، قيل: يا رسول الله! وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في مَنبت السوء». (بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٢٣٢).

٣ . وسائل الشيعة، ج٨، كتاب الصلاة، الباب ١٤ من أبواب صلاة الجماعة، ح١.

والخلافة عن الرسول الأكرم، والوجود كلّه تحت ولاية الامام، وبأمره تأتمر الملائكة، ويفتخرون بالتربّي والتعلّم منه؛ والخلاصة: إنّ الامام هو منظّم العلاقة فيما بين الأسماء الإلهيّة الحسنىٰ بأذن الله تعالىٰ.

ومثل هذا الشخص يحتاج ـ قبل كلّ شيء ـ إلىٰ تسخير القلوب؛ ليعطف إليه قلوب الناس ويتربّع علىٰ كرسيّ حكومتها، وحتىٰ الأنبياء كانوا بحاجة إلىٰ هذا العشق الجماهيري. ومن صور حبّ الناس وعشقهم للنبيّ ما جاء في قصّة صلح الحديبيّة، فقد جاء إلىٰ معسكر المسلمين عروة بن مسعود لمفاوضة الرسول، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأىٰ ما يصنع به أصحابه: لا يتوضّأ إلاّ ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقا إلاّ ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه، فرجع إلىٰ قريش، فقال: يا معشر قريش! إنّي قد جئت كسرىٰ في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشيّ في ملكه، وإنّي والله ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل محمّد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسْلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم[1].

وحينما أسر المشركون زيد بن دَثنة وعرضوه علىٰ السيف، قال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد أيسرّك أنّ محمّداً في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟ فقال زيد بشجاعة: ما يسرّني أنّ محمّداً أُشيك بشوكة وإنّي في بيتي وجالس في أهلي. فأثّرت كلماته في نفس «أبي سفيان» فقال: ما رأينا أصحاب رجل قطّ أشدّ حبّاً في أصحاب محمّد بمحمّد. وعن كبشة قالت: دخل عليّ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، فشرب من فم قربة معلّقة، قالت: فقطعت فمها فرفعته[2].

لذا قال علماء الكلام: «ويجب في النبيّ العصمة... وكمال العقل والذكاء

---

١ . سيرة ابن هشام، ج٣، ص٣٢٨.

٢ . الاستيعاب، ج٢، ص١٢٧.

والفطنة وقوّة الرأي وعدم السهو وكلّ ما ينفّر عنه من دناءة الآباء وعهر الأمهات والفظاظة والغلظة والأبنة وشبهها، والأكل على الطريق وشبهه[١].

إنّ السفاح أمر منفّر للطباع صادٌّ عن القبول، فيجب تنزيه رسل الله تعالى عنه، هم وآباؤهم وأمّهاتهم، بل وأزواجهم أيضاً. قال ابن عبّاس: «ما زنت امرأة نبيّ قطّ؛ لما في ذلك من التنفير عن الرسول وإلحاق الوصمة به»[٢].

وعليه فصاحب هذا المنصب العظيم يجب أن يكون معلوم النسب وأن يطمئنّ أشياعه بطهارة ولادته؛ لأنّ إحراز طهارة الولادة شرط في تولّي هذا المنصب. وعلى هذا الأساس، فإنّ ذكر أمير المؤمنين عليه السلام ـ في كتاب لمعاوية ـ جملة من مثالب بني أميّة، وكلام سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام لأعدائه حينما قال: «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة...»[٣]، وقول الامام السجّاد عليه السلام في أصحاب يزيد: «... لا يقتل الأنبياء وأولادهم إلاّ أولاد الأدعياء»[٤]، لم يكن هتكاً وفحشاً وطعن لسان. وفي قبال ذلك، فإنّ بيان الأئمّة الأطهار لفضلهم، كما في كتاب أمير المؤمنين المذكور إلى معاوية[٥]، وكلمات

---

١. كشف المراد، المقصد الرابع، المسألة الثالثة، ص٣٤٩؛ شرح المقاصد، ج٥، ص٦١.

٢. جوامع الجامع، ج٢، ص٣٦٠، ذيل الآية ١٠ من سورة التحريم، وهو في مجمع البيان، ج٩ - ١٠، ص٤٧٩، بتفاوت يسير. وكلام ابن عباس وإن لم يكن منقولاً كرواية لكن من المحتمل جدًا أن يكون ابن عباس افاده من الامام علي عليه السلام؛ لأنّه قد تعلّم على يديه ومن خرّيجي مدرسته عليه السلام، ونصّ كلام ابن عباس يقوّي هذا الاحتمال.

٣. تحف العقول، ص٢٤١؛ مقتل الخوارزمي، ج٢، ص٧، بتفاوت يسير.

٤. إثبات الوصيّة، ص١٤٥ ـ ١٤٦، باب ما جرى في أيام علي بن الحسين عليه السلام.

٥. جاء فيه: «... منّا النبيّ ومنكم المكذّب، ومنّا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنّا سيّدا شباب أهل الجنّة، ومنكم صبية النّار، ومنّا خير نساء العالمين، ومنكم حمّالة الحطب، في كثير ممّا لنا وعليكم». (نهج البلاغة، الكتاب٢٨). وانظر: شرح هذه الفقرات في «الحماسة والعرفان»، ص٢٨٩.

الامام الحسين في طريق سفره إلى كربلاء وخطبة الامام السجّاد في المسجد الجامع بالشّام، ليس بقصد مدح الذات والإعجاب بالنفس، بل بقصد بيان جدارتهم بمقام الإمامة، وعدم كفاءة الآخرين لتولّي مثل هذا المنصب الشامخ، فالهدف كان:

أولاً: تبيين الشرط الأساس في قيادة الأمّة الاسلاميّة.

ثانياً: إثبات أنّ عترة طه وياسين محرزة لذلك الشرط.

ثالثا: بيان أنّ هذا الشرط الأساس غير موجود في ذريّة آكلة الأكباد.

فهذه الأوصاف الثلاثة بصدد بيان أحد شرائط الإمامة، وهو طهارة الولادة ونقاء النسب، والتأكيد على أنّ أهل بيت العصمة والطهارة متصفّون بذلك.

إشارات

١ ـ معنى العترة

نقل الشيخ الصدوق عن محمد بن بحر الشيباني، عن محمد بن عبد الواحد صاحب أبي العباس ثعلب في كتابه «الياقوتة»، أنّ ابن الاعرابي ذكر عشرة معانٍ للعترة، أوّلها أنّها «قطاع المسك الكبار في النافجة». ثمّ طبّق الشيخ الصدوق المعاني العشرة كلّها على أهل بيت النبي، فقال: «والعترة علي بن أبي طالب وذريّته من فاطمة، وسلالة النبي ﷺ، وهم الذين نصّ الله تبارك وتعالى عليهم بالإمامة على لسان نبيّه ﷺ، وهم اثنا عشر، أوّلهم عليّ وآخرهم القائم ؑ، على جميع ما ذهبت إليه العرب من معنى العترة؛ وذلك أنّ الائمة ؑ من بين جميع بني هاشم ومن بين جميع ولد أبي طالب كقطاع المسك الكبار في النافجة»[١].

---

١ . معاني الأخبار، ص١٩، باب معنى الثقلين والعترة.

ولنا أن نوضح تطبيق صدوق الأمّة ببيان أجمل:

١ ـ إنّ الأئمة بمنزلة كبار قطع المسك في نافجة[١] الغزال.

٢ ـ إنّ الولاية الكليّة كنافجة الغزال، مكان لتكوّن قطع المسك الفتيق.

٣ ـ إنّ قطع المسك في نافجة الغزال ليست منفصلةً عن بعضها البعض كانفصال قطع الحجارة وتبعثرها، بل هي قطع متّصلة ببعضها بالعروق، وهي بمجموعها الواحد تتّصل بالنافجة بالعروق أيضاً، وبسببها تتكوّن وتنمو؛ والأئمة الأطهار عليهم السلام يجمعهم حبلُ الولاية ببعضهم وبالنبيّ وبالولاية الكليّة، وهم يتكاملون ويتبلورون بهذه الصلة.

تنبيهات: ١ ـ الجميل هنا تشبيه المسك بالولاية، لا تشبيه الولاية بالمسك.

شعر:

قلتُ: إنّ المسك الفتيق هو خصلات شعرك

قالت: صار مسكاً فتيقاً برائحة ولون الحبيب[٢].

٢ ـ إذا ادعىٰ العاري من الولاية أنّه مطيّب بالمسك فدعواه بلا دليل؛ لأنّ الولاية هي روح الانسانيّة ومعناها، والفاقد للمعنىٰ إنّما ينطق بلفظ فارغ.

شعر:

إنّ رائحته المسك في اللفظ والمعنىٰ

والمسك الذي لا رائحة له هو رماد يا فتىٰ[٣].

وينبغي الاحتراز والحذر من بائعي المسك الرديء والأرواث النتنة.

---

١. هي الكيس التي يجتمع فيه المسك.

٢. الشاعر عنصري.

٣. الشاعر ناصر خسرو.

شعر:

لا تشمنّ مسك الجاهلين ولا تحتسي خمرهم

فلا عطر ولا خمر عند الجاهلين في هذا العالم[١].

٣ ـ إنّ عطر أئمّة الولاية هو لأجل جذب مشامّ أهل الولاية؛ لأنّ الرائحة الطيّبة الحسنة أفضل سبيل لجذب حاسّة الشم.

وكما أنّ مسك غزال التتار هو المادّة المشمومة ومغذّي الحاسّة الشامّة، فإنّ الولاية النبويّة والإمامة العلويّة هي مادّة الاستشمام العقليّ ومغذيّة الحاسّة الباطنيّة. ويجب صون الأنف من الانسداد والزكام، ويجب التبيّن والمبالغة في الاستشمام؛ لكي يتبيّن لنا من أيّ مكان يهبّ نسيم المسك الأريج، فنستقبله ونتعطّر به ولا ندبر عنه مولّين.

شعر:

إنّ الحقّ لم يخلق المسك طيبَ الرائحة عبثاً..

وكلّ مَن يشمّه يعرفه به، لكنّ المأروض لا يستطيع ذلك[٢].

٤ ـ إنّ الله تعالىٰ أنعم علىٰ الإنسان بنعمة العقل ليميّز به الحقّ من بين الشبهات، وأنعم عليه بنعمة البصر ليرىٰ الطريق المستقيمة، فيسلكها ويرىٰ ما تفرّق من السبل فيتجنّبها. فأعمىٰ البصر عاجز عن التمييز بين الطريق والبئر، وأعمىٰ البصيرة عاجز عن تمييز التبر من التبن، والحقّ من الباطل؛ فهو يلتقط الحجر وينبذ الجوهر، ويحسب الخرز فيروزجاً، ويتشابه في نظره المسك العلويّ بالروث الأمويّ.

---

١ . الشاعر ناصر خسرو.

٢ . مثنوي معنوي، الدفتر الأول، البيت٢٣٨٥. والمأروض هو المزكوم، والمزكوم لا يفرّق بين الروائح الطيّبة والنتنة.

شعر:

لا يفرّق المزكوم بين الروث والمسك

هما شيء واحد عنده لأنّه لا يشمّ[١]

آه آه من بائعي الجوهر الجاهلين...

فإنّهم يجعلون الخرز مكان الدرّ.

إنّ غزال بلاد الترك يتغذّىٰ بسنبل التتار، لكن لا يعني ذلك طيب رائحة كلّ شيء فيه، وكونه غزالاً تركيّاً[٢] لا يعنىٰ أنّ روثه كمسكه، فياليت التاريخ يفهم! وياليت واقع نظام الطبيعة يعي، وياليت الأمّة الاسلاميّة كانت أرشد وأعقل، وياليت ثمّ ياليت أنّه لم يكن محض النسب القرشيّ ومحض الانتساب إلىٰ بيت وآل رسول الله ومحض الانتساب إلىٰ الحجاز سببَ الاشتباه.

إنّ العارفين بحقيقة السقيفة وما جرىٰ آنذاك يميّزون بين مسك الولاية وروث العداوة، ومازالوا يعطّرون البشريّة بطيب المسك الأذفر، والأمل أن يظهر للعالم النافجة الملكوتيّة لفاطمة، عجّل الله فرجه الشريف.

---

١ . مثنوي معنوي، الدفتر الرابع، البيت ٢٤٦٥.

٢ . الغزال التركي يُضرب به المثل في جودة مسكه.

وَرَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ

ذكرنا معنى «الرحمة» في بحث فقرة «ومعدن الرّحمة».

و«بركات» جمع «بركة»، مشتقّة من مادّة «برْك» على وزان «برْق»، وأصل «البرك» صدر البعير، يقال: برك البعير إذا وضع صدره على الأرض ومكّن ثفناته منها، ويسمّى صدر البعير ممّا يلي الأرض «بِرْكة»[1]، ويسمّى ما يُتّخذ من وبره «بَرَكي». ثمّ فُهم من هذا المعنى معنى «اللزوم والدوام»، فقيل لمحبس الماء: «بِرْكة»، ويقال للزيادة والنماء الدائم: «بَرَكة»[2].

والدعاء بالبَرَكة يسمّى «تبريك».

---

١. «والبِرْكَةُ: ما ولي الأرض من جلد البطن وما يليه من الصدر من كل دابّة. اشتق من مبرك البعير؛ لأنه يبرك عليه». (كتاب العين، مادة «برك»).

٢. «أصل البرك صدر البعير وإن استعمل في غيره، ويقال له: بِرْكة، وبرك البعير: ألقى بَرْكه، واعتبر منه معنى اللزوم... وسمّي محبس الماء بِرْكة، والبَرَكة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء». (مفردات الراغب، ص١١٩؛وانظر: كتاب العين، مادة «برك»).

وهاتان الكلمتان معطوفتان على «السلام»، فيكون معنى المجموع: سلام ورحمة وبركات الله عليكم.

إنّ المقصود بعبارة «السلام عليكم» الدعاء بسلامة القلب من كلّ عيب، لكنّ الهدف الأساس ليس ذلك؛ لأنّه:

أولاً: القلوب أوعية، وخيرها أوعاها وأوسعها، كما جاء في الرواية: «إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها»[١].

ثانياً: إنّ قيمة الوعاء السليم من أيّ عيب وثلم ظاهريّ، والمنزّه من كلّ قذر، هي في حدّ كونه وعاءً جديراً بحفظ الأشياء الثمينة، لا أكثر، وأحسن ما يمكن أن يكون عليه القلب السليم في نفسه أن يخلو من العيوب ليتحمّل الفيوض الإلهيّة، ولكنّه بهذا الحدّ لا يتصّف بالكمال والرقي؛ لأنّ كماله وتعاليه ليس بسلامته من العيوب وحسب؛ بل باحتوائه الجليل من المعاني والخطير من المضامين، وكلّما كان محتواه راقياً كان القلب به أنور وأثمن.

وإنّما نعطف عبارة «ورحمة الله وبركاته» بعد عبارة «السلام عليكم» لأننا ندعو بعد طلب سلامة القلب بأن يكون محتواه قيّماً أيضاً؛ ليحسن الوعاء وما وعى، وهذا المحتوى القلبيّ هو الرحمة والبركة الإلهيّتين الخاصّتين؛ لذا نحن نعطف عبارة «ورحمة الله وبركاته» على الفقرات الخمس المبتدءَة بالسلام، والتي تضمّنت كلّ فقرة منها مجموعةً من صفات وكمالات الأئمّة عليهم السلام.

ملاحظتان: **الأولى**: المطلوب هنا ـ كما أشرنا إليه ـ هو الرحمة الخاصّة؛ لأنّ الرحمة العامّة مبذولة للجميع، حيث قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢].

الثانية: البحث اللغوي يفيد أنّ المراد من طلب البركة ليس محض حصول النّماء، بل دوامه وبقاؤه أيضاً.

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧.

٢. الأعراف: ١٥٦.

إشارة

من التعاليم الأخلاقيّة للدين الإسلامي أن لا يبقىٰ الإحسان والمعروف بلا جزاء، فمن يُحسَن إليه عليه أن يسعىٰ لردّ الإحسان، وإن تمكّن فليردّه بأحسن منه وأوفىٰ[1]، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2]. وقد سبق القول إنّ للتحيّة معنىً وسيعاً، وإنّ «السلام» أحد مصاديقها، وقد طبّقت الرواياتُ ذلك المعنىٰ العامّ علىٰ مصداق «السلام» أيضاً. والمراد بردّ السلام أن يكرّر المُسلَّمُ عليه سلامَ المسلِّم نفسه، والردّ بالأحسن أن يضيف إليه معنىً آخر، كأن يقول في جواب «السلام عليكم»: السلام عليكم ورحمة الله. وفي جواب «السلام عليكم ورحمة الله»: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهوالمنقول عن ابن عبّاس[3].

ومع مجيء الرواية بأنّ«من قال: السلام عليكم فهي عشر حسنات، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله فهي عشرون حسنة، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فهي ثلاثون حسنة»[4]. إلاّ أنّ الموصىٰ به أن يسّلم المبتدئُ بتحيّةٍ بحيث يبقىٰ

١ . بعض مصاديق الإحسان من الواجب الردّ عليها، سواء كان المبتدئ بها متوقّعاً لذلك أم لا، مثل جواب السلام؛ فإنّ ردّه واجب شرعي، وهناك مصاديق للإحسان لا يجب شرعاً المكافاة عليها، ولا يتوقّع المبتدئ بها ذلك؛ ولكن من الحسن الجميل أن تكافأ أيضاً، كما حصل في قصّة النبيّين شعيب وموسىٰ عليهما السلام، فإنّ النبيّ موسىٰ حينما سقىٰ لابنتي شعيب لم يكن يريد جزاءً ولا شكوراً؛ لكنّ النبيّ شعيب دعاه وجزاه أجر ما سقىٰ لهما. (انظر: سورة القصص، الآية ٢٣ وما بعدها).

٢ . النساء: ٨٦ .

٣ . مجمع البيان، ج٣ ـ ٤، ص١٣١، ذيل الآية ٨٦ من سورة النساء.

٤ . أصول الكافي، ج٢، ص٦٤٥.

مجال للردّ بأحسن منها. روي أنّ رجلاً سلّم على رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم، فقال رسول الله ﷺ: «وعليكم السلام ورحمة الله»، ثمّ جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال النبيّ: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، ثمّ جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال النبي: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، فقيل: يا رسول الله! زدت للأول والثاني في التحية ولم تزد في الثالث؟ فقال: «إنّه لم يُبقِ لي من التحيّة شيئاً فرددت عليه مثله»[1].

١ . مجمع البيان، ج٣ ـ ٤، ذيل الآية ٨٦ من سورة النساء. وفي بعض المصادر الأخرى هكذا: فقيل: يا رسول الله! رددت على الأول والثاني وقلت للثالث: وعليكم، فقال: «إنّ الأول سلّم وأبقى من التحيّة شيئاً، فرددت عليه بأحسن ممّا جاء به، كذلك الثاني، وإنّ الثالث جاء بالتحيّة كلّها، فرددت عليه مثل ذلك». (النكت والعيون، في معنى الآية٨٦ من سورة النساء).

السَّلامُ عَلى أئمّة الهُدى

فرط الكلامُ حول معنى «السلام» في مطاوي البحوث الفارطة، وما يجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ «السلام» المطلق هي ذات الباري تعالى، فهو: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾[1]، وكلّ «سلام» من غيره فمنه يكون منشأوه، ومن ثمّ يفيض على غيره، ومن ثمّ يعود إليه تعالى، كما هو الحال في الكمالات الوجوديّة الأخرى: «اللهمّ أنت السلام، ومنك السلام ولك السلام، وإليك يعود السلام»[2]. وما عند غيره تعالى من سلامٍ فهو بقدر ما تلقّاه من الفيض الإلهي؛ ولذا لا يقال: سلام على الله، بل نطلب هذه التحيّة الخاصّة من الله سبحانه لمن نريد بمعونة الحرف «على»، مثل: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[3] و(سلامٌ عليك).

---

١. الحشر: ٢٣.

٢. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٣٢١.

٣. الصافات: ١٠٩.

وهذا النحو من التعبير الطلبيّ دالٌّ على أنّ من نطلب التحيّة له مخلوقٌ لله تعالى، محتاج إلى فيضه، فزيارة الأئمّة الطاهرين تبدأ بكلمة تنفي شائبة الغلوّ فيهم، ويتعزّز هذا النفي بمتمّم التحيّة، وهي عبارة «ورحمة الله وبركاته».

«أئمّة» جمع «إمام»، مشتّق من المادّة «أمم»، بمعنى ما يُقصد ويُتوجّه إليه، قالوا: «كلّ مَن اقتدي به وقدّم في الأمور فهو إمام»[١].

«الهدى» والهداية تقابلان الضلال والضلالة، بمعنى بيان طريق الرشد والدلالة عليه[٢].

أئمّة النور وأئمّة الظلام

المعنى اللغوي لكلمتي «الإمام والإمامة» يتحمّل القول: بأنّ مصداق «الإمام» يختلف باختلاف الاعتبارات والمعاني والآمّين؛ فالنبيّ إمام الأمّة، والخليفة إمام الرعيّة، والقرآن إمام المسلمين[٣]. فالإمامة إذن ليست خاصّة بالانسان، بل شاملة لغيره أيضاً، وقد سمّى القرآن الكريم الطريق الكبيرة بين مكّة والشام، المارّة بمدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة «إماماً»، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٤]. وقد أطلق هذا العنوان على قادة الضلال أيضاً، قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾[٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[٦]. فالإمامة ليست خاصّة بقادة المهتدين

---

١ . كتاب العين، مادة «أمم»؛ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «أمّ».

٢ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «هدى». بتصرّف.

٣ . انظر: كتاب العين، مادة «أمم».

٤ . الحجر: ٧٩ .

٥ . التوبة: ١٢.

٦ . القصص: ٤١.

والراشدين، بل تشمل قادة الضالّين أيضاً[١]. فعن الصادق عن أبيه الباقر عليهما السلام قال: «الأئمّة في كتاب الله إمامان، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَاهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٢] لا بأمر الناس، يقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[٣]، يقدّمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلافاً لما في كتاب الله»[٤].

وهذه الرواية تفيد أنّ المعيار في عدالة وجور الإمام هو العمل بالقرآن والعمل بهوىٰ النفس والشيطان، هذا.

وأكثر الموارد القرآنيّة في استعمال «الإمام» في أئمّة النور والقادة الربانيّين.

ومن وصف «الأئمّة» بـ«الهدىٰ» في هذه الفقرة، يتبيّن أنّ أهل بيت العصمة والطهارة أئمّة نور وهداة إلىٰ الخير.

الإمامة في علم الكلام

ما سبق بيانه كان المعنىٰ اللغويّ لكلمة «الإمامة»، ولها معنىٰ خاصّ في المصطلح الكلامي، وهو: الرئاسة العامّة في أمور الدين والدنيا لشخص إنسانيّ[٥]. وبعضٌ أضاف إلىٰ تعريفها قيد «خلافة عن النبيّ صلى الله عليه وآله»[٦]، وبعضٌ آخر أضاف قيد «بحقّ الأصالة»، ولا حاجةَ إليهما[٧].

---

١ . «الإمام المؤتمّ به، إنساناً كأن يقتدىٰ بقوله أو فعله، أو كتاباً أو غير ذلك، محقّاً كان أو مبطلاً». (مفردات غريب القرآن، مادة «أمّ»).

٢ . الأنبياء: ٧٣.

٣ . القصص: ٤١.

٤ . بحار الأنوار، ج٢٤، ص١٥٦.

٥ . الباب الحادي عشر، ص٤٠؛ شرح المواقف، ج٨، ص٣٤٥.

٦ . شرح المقاصد، ج٥، ص٢٣٢.

٧ . انظر: الباب الحادي عشر، ص٤٠.

أقسام الهداية

للهداية أقسام عديدة: فهناك الهداية التكوينيّة، وتتجلّى في الأشياء الماديّة، قال الحقّ تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

وهناك الهداية التكوينيّة التشريعيّة، وتتجلّى في الأمور المعنويّة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٢].

وهناك هداية بمعنى الدلالة على الخير، كما في الموردين السالفين.

وهناك هداية بمعنى الإضلال والدلالة على الشرّ، قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[٣].

لكنّ هداية الله تعالى لا تكون إلاّ إلى الخير.

وهناك هداية بمعنى إراءة الطريق، كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٤]. وهذه الهداية عامّة، للمؤمنين وغيرهم؛ لأنّ الله تعالى أرسل رسله لهداية الناس جميعاً.

وهناك هداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب، كما في آية: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[٥]. وهي هداية خاصّة بفريق من الناس، يهديهم الله لمصلحةٍ ما، ولعلّةٍ موجودة تقتضي تخصيص الله تعالى هذه الهداية بهم.

والهداية أيضاً تارةً تكوينيّة محضة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ

---

١ . النحل: ١٥.

٢ . الأنبياء: ٧٣.

٣ . الحج: ٤.

٤ . البقرة: ١٨٥.

٥ . النور: ٣٥.

ثُمَّ هَدَى﴾[١]. وأخرىٰ تكون تشريعيّة محضة، نحو قوله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٢].

أبواب الهداية

تكرّر القول أن لا سبيل إلىٰ الرشد ولا عصمة من الضلال إلاّ بالتمسّك بعرىٰ أهل البيت عليهم السلام؛ للحديث النبويّ:

«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، طرفه بيدي وطرفه بأيديكم، فاسألوهم ولا تسألوا غيرهم فتضلّوا»[٣]. ولقوله في موضع آخر: «يامعشر المسلمين! لا تخالفوا عليّاً فتضلّوا»[٤].

مدح الذات في كلام الأئمّة

مدح الأئمّةُ عليهم السلام أنفسهم في العديد من الروايات، فعن عليّ عليه السلام أنّه قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فأنا عيبة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ سلوني فأنا فقأت عين الفتنة بباطنها وظاهرها؛ سلوا من عنده علم البلايا والمنايا والوصايا وفصل الخطاب؛ سلوني فأنا يعسوب المؤمنين حقّا...»[٥].

وتوجد عشرات الروايات من هذا القبيل عنه وعن بقيّة الأئمّة عليهم السلام.

وهذه المدائح منهم لأنفسهم جاءت بغرض هداية الناس إلىٰ صراط الحقّ؛ إذ إنّ وظيفتهم عليهم السلام غير مقصورة علىٰ تبيين المعارف الإلهيّة الكليّة وأحكام الفقه

---

١. طه: ٥٠.

٢. الإنسان: ٣.

٣. بحار الأنوار، ج٣٧، ص١٦٨.

٤. المصدر السابق، ج٢٢، ص٤٩٩.

٥. المصدر السابق، ج٢٦، ص١٥٢.

والأخلاق، بل تشمل إرشاد الناس إلى المهتدين العارفين؛ ليكونوا قدوةً عمليّةً لطلاّب الحقّ وناشديّ الحقيقة. وعلى هذا الأساس فمدحهم لأنفسهم وبيان كمالاتهم من وظيفتهم كأئمّة نور، ولولا ذلك لما كانت لهم حاجة إلى تزكية أنفسهم، بل إنّ مدح النفس لمحض المدح يتنافى ومقام العصمة، وقد كانوا عليهم السلام أبعد ما يكون عمّا نهى الله عنه، وقد نهى تعالى عن تزكية النفس[1]. وقد جاء في الرواية أنّ ابن الكوّا قام إلى أمير المؤمنين وهو يخطب الناس، فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن نفسك، فقال: «ويلك أتريد أن أزكّي نفسي! وقد نهى الله عن ذلك»؟!

ولكنّه أشار إلى فضيلة من فضائله لتتبيّن الحقيقة لابن الكوّاء وغيره، وليعلموا بأنّ قوله: «سلوني قبل أن تفقدوني» مبتنٍ على أساس متين من العلوم النبويّة، فقال:

«مع أنّي كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني، وإذا سكتّ ابتدأني، وبين الجوانح منّي علم جمّ، ونحن أهل البيت لا نقاس بأحد»[2].

فهذه المدائح هي في الحقيقة نصب منارات التقوى وأعلام الهداية.

إشارات

١ ـ الإمامة ذروة الذروة في الرفعة

الإمامة في الثقافة الاسلاميّة هي عماد المعنويّة وقوامها، وقمّة العظمة وحقيقتها، وأعلى مقام في الدين، وصفها عالم آل محمّد الإمام عليّ بن موسى

---

١ . ممّا لا خفاء فيه هنا أنّ اصطلاح «تزكية النفس» المأخوذ من الآية: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ يختلف عن التزكية المذكورة في آية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾؛ فإنّ التزكية الأولى المذمومة هي مدح وإطراء النفس، والثانية بمعنى بناء الذات والنهوض بها.

٢ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٥٢.

الرضا عليه‌السلام بقوله:

«إنّ الامامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء؛ إنّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، ومقام أمير المؤمنين عليه‌السلام وميراث الحسن والحسين عليهما‌السلام؛ إنّ الإمامة زمام الدّين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين؛ إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السامي؛ بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحجّ والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف.

الإمام يحلّ حلال الله، ويحرّم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذبّ عن دين الله، ويدعو إلىٰ سبيل ربّه بالحكمة، والموعظة الحسنة، والحجّة البالغة؛ الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم، وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار.

الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجىٰ وأجواز البلدان والقفار، ولجج البحار.

الإمام الماء العذب علىٰ الظماء، والدالّ علىٰ الهدىٰ، والمنجي من الردىٰ.

الإمام النّار علىٰ اليفاع، الحارّ لمن اصطلىٰ به، والدليل في المهالك، من فارقه فهالك.

الإمام السحاب الماطر، والغيث الهاطل، والشمس المضيئة، والسماء الظليلة، والأرض البسيطة، والعين الغزيرة، والغدير والروضة.

الإمام الأنيس الرفيق، والوالد الشفيق، والأخ الشقيق، والأم البرّة بالولد الصغير، ومفزع العباد في الداهية النآد.

الإمام أمين الله في خلقه، وحجّته علىٰ عباده، وخليفته في بلاده، والدّاعي إلىٰ الله، والذابّ عن حُرم الله.

الإمام المطهّر من الذنوب، والمبرأ عن العيوب، المخصوص بالعلم، المرسوم بالحلم، نظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين.

الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا لـه مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كلّه، من غير طلبٍ منه لـه ولا اكتساب، بـل اختصاص من المفضِّل الوهّاب.

فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام، أو يمكنه اختياره؟»[١].

وقد ذكر القرآن أنّ إحدىٰ دعوات ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ قولهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[٢]. وعندما بلغ النبيّ إبراهيم عليه السلام في مساره التكاملي إلىٰ قمّة الإمامة سألها لذريّته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣]. وقال الإمام الصادق في هـذا: «... فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾. قـال: فمـن عظمهـا في عين إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، قال: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال: لا يكون السفيه إمامَ التقيّ»[٤].

وقال الإمام الرضا في هذا: «... فقال الخليل عليه السلام سروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾»[٥].

وخلاصة هذا الكلام في نقاط ثلاث:

الأولى: إنّ الإمامة منصب يتكفّل تشريعاً بتبيين وتعليم وتنفيذ الأحكام والحِكم والمعارف الإلهيّة والذبّ عنها، وتنظّم الربط فيما بين الأسماء الحسنىٰ، وهي مظهر الولاية الكليّة في مدار التكوين.

---

١ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص١٢٢.

٢ . الفرقان: ٧٤.

٣ . البقرة: ١٢٤.

٤ . الكافي، ج١، باب طبقات الانبياء والرسل والأئمة، ح٢.

٥ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص١٢٢.

الثانية: إنّ هذا المنصب يستلزم التوفّر على أكمل العلوم وأعلى القدرات.

الثالثة: إنّ هذا المنصب ليس اكتسابيّاً ولا يحصل بالطلب والمسألة، بل هو موهبة إلهيّة خالصة[1].

٢ ـ مواصفات الإمام

تعتقد الشيعة بضرورة اتّصاف صاحب منصب الإمامة السامي بعدد من الصفات الخاصّة به، وأهمها اثنتان:

العصمة

ولهم عليها دلائل عدّة، عمدتها:

أ) إنّ الانسان عرضة للخطأ والضلال دوماً، فيجب أن يكون هناك إنسان في عصمة من ذلك ومن النسيان والسهو؛ ليكون قدوةً للآخرين، وليس هو غير الإمام. ولو لم يكن معصوماً من الزيغ والنسيان وما شابه للزم التسلسل، أو فقدان القدوة، وكلاهما لا يمكن؛ لبطلان التسلسل، ولضرورة وجود قدوة للبشر.

ب) إنّ القرآن وحده لا يقوم بحفظ الشريعة؛ لأنّ الكثير من الأحكام الشرعيّة الواردة في آياته وردت كخطوط كليّة، ممّا يحوجها للتفسير والتبيين وبيان تفصيلاتها وجزئيّاتها، وهذا هو حال السنّة النبويّة أيضاً، فلا بدّ من معصوم قادرٍ على فهم الدين وتبيينه بحقّ في أبعاده المختلفة؛ ليصونه من التحريف والتلاعب، ولو لم نفرض عصمته من الخطأ والنسيان والجهل وما شابه لما حصل الوثوق بكلامه والركون إلى أقواله.

---

١ . هذا المعنى بحاجة إلى توضيح أكثر، وهو ما ستسمعه في بحث فقرة «عصمكم الله من الزلل».

ج) إنّه لو جاز على الإمام النسيان والمعصية لوجب على الأمّة مواجهته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما عصى فيه، وهذا خلاف قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]؛ فإنّه تعالى أوجب طاعة «أولي الأمر» كوجوب طاعته وطاعة رسوله، وطاعتهما غير مقيّدة بشيء، فتكون طاعتهم كذلك، وهذا يعني عصمتهم. وإن قيل هنا بعدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قيل: يلزم من ذلك أنّ الولي غير المعصوم يأمر بعمله بالمعاصي وينهى عن الطاعات! وعلى الرعيّة طاعته في ذلك!

د) إنّ الغاية من نصب الإمام تسليم الأمّة له وطاعتها المطلقة لأمره ونهيه، بصفته حجّة الله تعالى على الناس[2]، بل إنّ قوام الأمّة والإمامة بهذا التسليم المطلق. وإذا ما كان وليّ الأمّة غير معصوم وكان كغيره فلن تسلم الأمّة له زمام أمرها، وهذا ينافي الغاية من نصبه[3].

هـ) إنّ الإمام يفوق أفراد الأمّة كافّة في العقل والعلم؛ لذا تكون الحجّة عليه أتمّ وثوابه أو عقابه أعظم من غيره، فلو لم يكن معصوماً لكان أسوأ حالاً من آحاد أمّته، وأقلّ درجةً منهم، وهذا ينقض الغرض وباطل جزماً[4].

و) إنّ القرآن يدلّ أيضاً على عصمة الإمام، فالنبيّ إبراهيم حينما حظي بالإمامة سأل ربّه: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، فقال تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[5]، فذكر

---

١. النساء: ٥٩.

٢. في الرواية عن حمزة بن الطيار أنّه قال للامام الصادق عليه السلام: جعلني الله فداك، فلو فلقت رمّانة فحلّلت بعضها وحرّمت بعضها لشهدت أنّ ما حرّمت حرام وما أحللت حلال. (رجال الكشّي، ج٢، ص٦٣٧، ط آل البيت، سنة ١٤٠٤).

٣. يختلف هذا الدليل عن سابقه في نكتة دقيقة.

٤. انظر: كشف المراد، المسألة الثانية: في أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً، ص٣٦٤.

٥. البقرة: ١٢٤.

«الظلم» وليس «الفسق» كمانع من نيل الإمامة. و«غيرالظالم» هو من لا يذنب طيلة عمره، و«العادل» هو من لا يتلبّس بالفسق فعلاً؛ ولكن لا يصدق عليه أنّه «غيرظالم»، إلاّ أن لا يفسق أبداً مدّة حياته[1].

يقول المعلّم العلاّمة الطباطبائي:

«وقد سئل بعض أساتيذنا رحمة الله عليه: عن تقريب دلالة هذه الآية على عصمة الإمام.

فأجاب: إن الناس بحسب القسمة العقليّة على أربعة أقسام:

من كان ظالماً في جميع عمره،

ومن لم يكن ظالماً في جميع عمره،

ومن هو ظالم في أوّل عمره دون آخره،

ومن هو بالعكس، هذا.

و إبراهيم عليه‌السلام أجلّ شأناً من أن يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذريّته، فبقي قسمان، وقد نفى اللهُ أحدهما، وهو الذي يكون ظالماً في أوّل عمره دون آخره، فبقي الآخر، وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره»[2].

ويمكن إيضاح ضرورة العصمة ببيانين آخرين:

الأول: إنّ للمعرفة الإنسانيّة درجات: أوّلها الحسّ والتجربة، تليها الرياضيّات، تليها الحكمة والكلام، وأرقاها العرفان النظري، والأرقى من كلّ المعارف وأسناها

١ . بيان آخر: الآية الشريفة نفت عهد الإمامة عن «الظالمن»، ومن يظلم في حياته وإن مرّة يدخل في عنوان «الظالمين»، فلا يكون له نصيب في الإمامة، فلا بدّ لنيلها من العصمة؛ لأنّ المعصوم من كلّ ذنب عمدي وسهوي خارج عن دائرة هذا العنوان، فثبت اشتراط العصمة في متولّي منصب الإمامة. (المعرّب).

٢ . الميزان، ج١، ص٢٧٤، ذيل الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

الوحي الإلهي. ولكلّ علم من هذا العلوم مسطرة وميـزان خـاصّ بـه، يُعـرف بـه صوابها من خطئها، فالمنطق ميزان علم الفلسفة، والأصـول ميـزان علـم الفقـه، والحكمة ميزان العرفان... وأمّا الوحي فهو بذاته ميزان لكلّ شيء، ولا ميزان فوقه يوزن به، فلا يوزن بميزان العقل أو البرهان الرياضي ولا بالحسّ وما جانس ذلك؛ لأنّ أحكام الوحي وحِكمه جزئيّة ومن عالم الغيـب، والغيبيّـات لا تُـدرك بـالحسّ لكي توزن، والمعارف الجزئيّة لا تُعلم بالبرهان العقلي والتحليل الرياضي، فـلا بـدّ من عصمة متلقّي الوحي.

الثاني: إنّه لا علم يضاهي أحكام الدين ومعارفه؛ لأنّ علم الطب ـ مـثلاً ـ وإن كان مهمّاً لكنّ مسرحه ومسرح العلوم الأخرىٰ لا يتعدّىٰ هـذه الحيـاة الـدنيا، بيـنما مجال المعارف الدينيّة يشمل الدنيا والآخرة؛ لذا صـار الخطـأ فيهـا لا يُتـساهل فيـه إطلاقاً.

وحفظ أحكام الدين ومعارفه الحقّـة المتلقّـاة بـالوحي غـير ممكـن بـلا عـصمة الإنسان الكامل.

وبما أنّ من أهمّ مسؤوليات خليفة الرسول الأكرم تبيين وتعليم وتفسير وتبليغ وتنفيذ ما جاء به الوحي؛ فلا مناص من اتّصافه بالعصمة.

الأفضليّة

قال خواجة طوس نصير الدين رضوان الله عليه في بيان ضرورة أفضليّة الإمام علىٰ غيره:

«الإمام يجب أن يكون أفضل من رعيّته؛ لأنّه إمّا أن يكون مساوياً لهم أو أنقص منهم أو أفضل. والثالث هو المطلوب، والأول محالٌ؛ لأنّه مـع التـساوي يـستحيل ترجيحه علىٰ غيره بالإمامة، والثاني أيضاً محال؛ لأنّ المفـضول يقـبح عقـلاً تقديمـه

علىٰ الفاضل... ويدخل تحت هذا الحكم كون الإمام أفضل في العلم والدين والكرم والشجاعة وجميع الفضائل النفسانية والبدنية»[١].

ملاحظتان: **الأولى**: قال بعض علماء العامّة: واشترطت الشيعة في الإمام أن يكون هاشميّاً بل وعلويّاً، ولا دليل عليه، بل الاجماع علىٰ نفيه[٢].

وجوابه:

أولاً: إنّ الشيعة ترىٰ أنّ تعيين الإمام بيد الله تعالىٰ؛ لأنّه تعالىٰ هو العالم بالأفضل وبالمعصوم، وليس لعنواني الهاشميّة أو العلويّة ذكر في كتب الكلام الشيعي كشرطين في الإمامة،وإن كان الأئمّة المستخلَفون من قِبل الله هم فعلاً علويّون.

ثانياً: إنّه وردت في بعض الكتب خصائص للإمام، مثل:

أن تكون له حالات خاصّة حين ولادته،

وأن لا يكون له ظلّ،

وأنّه يرىٰ من خلفه كما يرىٰ من بين يديه،

وأنّ تكون رائحته أطيب من رائحة المسك،

وأن يكون عنده سلاح رسول الله،

وأن يكون عنده الجامعة والجفر.

إلىٰ غير ذلك من خصائص،كما في الرواية عن عالم آل محمد، الإمام الرضا[٣].

---

١ . كشف المراد، المسألة الثالثة: أن يكون أفضل من غيره، ص٣٦٦.

٢ . شرح المقاصد، ونصّ كلامه: «واشترطت الشيعة أموراً منها: أن يكون هاشمياً، أي من أولاد هاشم بن عبد مناف أبي عبد المطلب، وليس لهم في ذلك شبهة فضلاً عن حجّة، وإنما قصدهم نفي إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. ومنهم من اشترط كونه علوياً نقياً لخلافة بني العباس، وكفىٰ بإجماع المسلمين علىٰ إمامة الأئمة الثلاثة حجّة عليهم». (ج٥، ص٢٤٦).

٣ . الاحتجاج، ج٢، ص٤٤٨.

وهذه ليست من شروط الإمام والإمامة، بحيث إنّ الأمّة تدين بإمامة وطاعة مَن تتوفر فيه.

بل هي مجرّد «علامات» لشخص الإمام، بمعنى أنّ مَن اصطفاه الله تعالى لهداية الناس متّصف بهذه العلامات، فإذا ما ورد عنوان «الهاشمي أو العلوي» فهو وارد كعلامة، لا كشرط جوهري[1].

الثانية: أجاب بعض علماء العامّة على أدلّة عصمة وأفضليّة الإمام؛ وهذا لأنّ المدرستين تختلفان في أصل معنى وتعريف «الإمام والإمامة»، فالفكر الشيعي الإمامي يرى أنّ الإمامة خلافة إلهيّة ورئاسة روحيّة في الدين والدنيا، وأنّ الإمام إنسان كامل، وهو واسطة الفيض الإلهي، ومنظّم علاقة الأسماء الحسنى ببعضها البعض؛ بينما يرى الفكر العاميّ أنّ الإمامة رئاسة دنيويّة لا تتعدّى السلطة السياسيّة لمثل رئيس الدولة؛ ولذا يقرّون بإمامة الأمويين والعباسيّين قتلة أئمّة الحقّ، ويوجبون طاعتهم، بل إنّهم يعتبون على الشيعة في عدم ودّهم لبني العباس[2].

ويتبيّن للناظر المتأمّل في ردودهم ضعف أصل مبناهم الفكري وهشاشة أساسه.

٣ ـ تعيين الإمام

سبق الكلام بأنّ العصمة والأفضليّة شرطان أساسيّان في الإمام بحسب الرأي الشيعي، وأنّ نصب الإمام لا يكون إلاّ من الله تعالى؛ لأنّه وحده تعالى العليم

---

١ . بمعنى: أنّ «الإمامة» متحقّقة سلفاً بتعيين واختيار إلهي في شخص الإمام، وهذا الاختيار معلول لأمور هي من علم الله تعالى، وليس لتلك العلامات والخصائص دخل أصلاً في هذه الاختيار الإلهي؛ لسبقه عليها، بل هي علامات لاحقة، تعين على تشخيص الإمام .(المعرّب).

٢ . شرح المقاصد، ج٥، ص٢٨٦. قال: «وآحاد الشيعة في هذا الزمان لا يسمّون لكبار الصحابة بالرضوان، فضلاً عن بني العباس».

بالمعصوم والأفضل، كما قال الرضا عليه السلام:

«وأنّى وهو بحيث النّجم من أيدي المتناولين ووصف الواصفين؟ فأين الاختيار من هذا؟ وأين العقول عن هذا؟»[١]

وحتى العامّة يقرّون بعدم إمكان معرفة المعصوم والأفضل[٢]؛ ولذا عدّوا هذين الشرطين من التكليف بما لا يطاق، فأنكروا ضرورتهما[٣].

طرق العامّة في انتخاب الإمام

يرى العامّة أنّ انتخاب الخليفة تكليف يقع على عاتق الأمّة، ويذكرون لذلك طرقاً ثلاثة:

أ) بيعة أهل الحلّ والعقد، من العلماء والرؤساء ووجوه النّاس الذين يتيّسر حضورهم من غير اشتراط عدد ولا اتّفاق من في سائر البلاد، بل لو تعلّق الحلّ والعقد بواحد مطاع كفت بيعته.

ب) استخلاف الإمام وعهده، وجعلُه الأمر شورى بمنزلة الاستخلاف.

ج) والثالث القهر والاستيلاء، فإذا مات الإمام وتصدّى للإمامة من يستجمع

---

١ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص١٢٥.

٢ . قال التفتازاني: «وإذا أنصفت فتعيين الأفضل متعسّر في أقلّ فرقة من فرق الفاضلين، فكيف في قريش! مع كثرتهم وتفرّقهم في الأطراف، وأنت خبير بأنّ هذا وأمثاله على تقدير تمامه إنّما يصلح للاحتجاج على أهل الحقّ دون الروافض، فإنّ الإمام عندهم منصوب من قبل الحقّ لا من قبل الخلق». (شرح المقاصد، ج٥، ص٢٤٧)

٣ . «الثالث: أنّ الأفضليّة أمر خفيّ قلّما يطلّع عليه أهل الحلّ والعقد، وربّما يقع فيه النزاع ويتشوّش الأمر...» (شرح المقاصد، ج٥، ص٢٤٧). وقال: «وقد يحتجّ كثيرٌ بأنّ العصمة ممّا لا سبيل للعباد إلى الاطّلاع عليه، فإيجاب نصب إمام معصوم يعود إلى تكليف ما ليس في الوسع». (نفسه، ص٢٤٩).

شرائطها من غير بيعة واستخلاف، وقهر الناس بشوكته انعقدت الخلافة له[١].

وبقليل من التمعّن في هذا الكلام يُعلم أنّ قائله لم يقمه على ميزان القرآن والسنّة، بل جهد فيه لتبرير أعمال سلفه وإضفاء الشرعيّة على خلافة الخلفاء، وممّا يرد عليه:

اولاً: إنّه نزل بالمقام الشامخ لإمام الأمّة الإسلاميّة من ثريّا الإمامة الإلهيّة إلى ثرى الخلافة البشريّة.

وذلك لأنّ بعض مدّعي الخلافة كان وثنيّاً ومن عبدة الأصنام، فليس بوسعهم اشتراط خصائص عالية وشرائط راقية في «الإمام»، وبتعبير أصح: «الخليفة»، فلا مناص أن ينزلوا بمستوى خلافة الرسول ﷺ إلى مستوى أولئك المدّعين من جهة، وحتى تكون مبذولةً للكلّ وسهلة التداول من جهة أخرى؛ لذا كانت شرائط الإمام عندهم هي:

«أن يكون مكلّفاً، مسلماً، عدلاً[٢]، حرّاً، ذكراً، مجتهداً، شجاعاً، ذا رأي وكفاية، سميعاً، بصيراً، ناطقاً، قريشيّاً؛ فإن لم يوجد من قريش من يستجمع الصفات المعتبرة وليَ كِناني، فإن لم يوجد فرجل من ولد إسماعيل، فإن لم يوجد فرجل من العجم»[٣].

وهذه الشرائط ـ عدا القرشيّة ـ هي أقل ما تُطلب في رئيس دولة إسلاميّة أو مدير مسؤول فيها.

---

١ . شرح المقاصد، ج٥، ص٢٣٣.

٢ . لكنّهم يوجبون طاعة الخليفة الظالم ما لم يحكم بخلاف الشرع، فلا تجب طاعته في ذلك. قال التفتازاني: «ويجب طاعة الإمام ما لم يخالف حكم الشرع، سواء كان عادلاً أو جائراً». وقال: «ولا ينعزل الإمام بالفسق». (شرح المقاصد، ج٥، ص٢٣٣).

٣ . شرح المقاصد، ج٥، ص٢٣٣.

وهم حينما يذكرون عنوان «الإمام» في كلماتهم فمرادهم منه الخليفة البشري، المستخلف بإحدىٰ الطرق المذكورة، وليس بمعنىٰ «الإمام» في الفكر الشيعي؛ فحذار من الغفلة والخلط بين المعنيين عند الفريقين.

ثانياً: هم يرون عدالة الصحابة كلّهم، وأنّ من رأىٰ النبيَّ وآمن به فهو عادل.

ثالثاً: إنّهم يتمسّكون دوماً باجتهاد الصحابة، متجاهلين شرائط الاجتهاد، فقتلىٰ صفّين والجمل في الجنّة؛ لأنّ معاوية وطلحة والزبير مجتهدون كاجتهاد علي بن أبي طالب[عليه السلام].

فهم بهذه المقدمات الثلاث منحوا الشرعيّة لخلافة الخلفاء الثلاثة، بل ولحكومة معاوية أيضاً، الذي استولىٰ علىٰ الحكم بالمكر والبغي والتضليل، بل ولحكومة ولده يزيد ملاعب الكلاب، الذي تسلّط علىٰ المسلمين إثرَ استخلاف أبيه له.

أدلّة انتخاب الإمام ببيعة الناس

استدلّ سعد الدين التفتازاني علىٰ وجوب نصب الإمام علىٰ الناس بأدلّة أربعة:

الأول: وهو العمدة إجماع الصحابة، حتىٰ جعلوا ذلك أهمّ الواجبات، واشتغلوا به عن دفن الرسول، صلىٰ الله عليه وسلم.

الثاني: إنّ الشارع أمر بإقامة الحدود وسدّ الثغور وتجهيز الجيوش للجهاد وكثير من الأمور المتعلّقة بحفظ النظام وحماية بيضة الإسلام، ممّا لا يتمّ إلاّ بالإمام، وما لا يتمّ الواجب المطلق إلاّ به وكان مقدوراً فهو واجب.

الثالث: إنّ في نصب الإمام استجلاب منافع لا تحصىٰ واستدفاع مضارّ لا يخفىٰ.

الرابع: التمسّك بمثل قوله تعالىٰ: ﴿**أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾، وقوله، صلىٰ الله عليه وسلم: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة

جاهليّة». فإنّ وجوب الطاعة والمعرفة يقتضي وجوب الحصول[١]. هـ

ذكر خاتمة الفقهاء والأصوليين الشيخ الأعظم الأنصاري في مسألة الإجماع، أنّ العامّة «هم الأصل له وهو الأصل لهم»[٢].

وعرّف الإجماع بأنّه «اتّفاق جميع العلماء في عصر، كما ينادي بذلك تعريفات كثير من الفريقين».

ويرى العامّة حصول الإجماع الحجّة باتّفاق أهل الحلّ والعقد على البيعة وصحّة الخلافة بذلك، وإذ أدركوا صعوبة اتّفاق أهل الحلّ والعقد في البلدان الاسلاميّة كافّة تراجعوا وقالوا: «وتنعقد الإمامة بطرق: أحدها بيعة أهل الحلّ والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يتيّسر حضورهم، من غير اشتراط عدد ولا اتّفاق من في سائر البلاد»[٣].

وإذ علموا بأنّ بعضاً من أهل الحلّ والعقد والأعيان كعليّ عليه السلام لم يحضروا بيعة السقيفة تراجعوا أكثر، فقالوا: «بل لو تعلّق الحلّ والعقد بواحد مطاع كفت بيعته»[٤].

وهذا تلاعب بالدليل وتعسّف في الحكم، فأيّ إجماع هذا الحاصل بفعل واحد؟! وهل هو إلاّ مثل أن يُطلب من رجل واحد أن يكوّن وحده صفّاً! أو كذاك الذي يتمنّى أن يكون أسداً وهو بلا رأس ولا ذيل ولا بطن.

---

١. شرح المقاصد، ج٥، ص٢٣٥.

٢. فرائد الأصول، ج١، ص١١٩.

٣. شرح المقاصد، ج٥، ص٢٣٣.

٤. المصدر السابق.

شعر:

من رأىٰ أسداً لا ذيل ولا رأس ولا بطن له؟

كلا، لم يخلق الله مثل هذا الأسد[١].

ملاحظة: لا قيمة للإجماع عند الشيعة إلاّ من حيث كشفه عن قول المعصوم، فلا قيمة لاتّفاق علماء العصور والبلدان كلّها بما هم علماء، فهو مغاير لبّاً وماهيّةً للإجماع في المصطلح العاميّ؛ لذا ينبغي احتسابه من الأدلّة النقليّة للسنّة الشريفة.

وكيف كان فإنّ الأدلّة الأربعة المذكور ـ علىٰ فرض صحّتها ـ إنّما تدلّ علىٰ ضرورة الإمامة ووجود إمام للأمّة، لا علىٰ وجوب نصبه علىٰ الناس، فالدليل أعمّ من المدّعىٰ.

أجل؛ لو ثبت أنّ الإمام ـ وبتعبير العامّة: الخليفة ـ لم يُعيَّن بطريق أخرىٰ لوصل الدور إلىٰ الناس وتعيّن عليهم نصبه.

أغلوطات مضلّلة

حاول متكلمو العامّة إثبات دعواهم بأنّ الله سبحانه لم يعيّن للأمّة إماماً بعينه؛ ليسوغ لهم إحالة ذلك إلىٰ رأي الناس، وقد حكىٰ التفتازاني أدلّتهم كالتالي[٢]:

١ ـ قول العباس لعلّي: امدد يدك أبايعك.

فهذا يدلّ علىٰ التعيين بالبيعة، فلو كان الإمام معيّناً سلفاً من عند الله فما معنىٰ كلام العبّاس هنا؟

---

١ . مثنوي معنوي، الدفتر الأول، البيت ٣٠٠١.

٢ . المؤلّف لم يحك نصّ كلام التفتازاني مترجماً بالفارسيّة، واقتصر علىٰ معناه المختصر، ولكنّي آثرت حكاية نصّ كلامه من كتابه. (المعرّب).

وجوابه:

إنّ كلمة «البيعة» مشتقّة من المادة «بيع»، ومعناه في العلوم الاجتماعيّة عقد الطاعة والمؤازرة. فكلام العباس هنا لا ينافي تعيين الإمام من عند الله تعالىٰ[1].

٢ ـ وقول عمر رضي الله تعالىٰ عنه لأبي عبيدة رضي الله تعالىٰ عنه: امدد يدك أبايعك. وقول أبي بكر: بايعوا عمراً أو أبا عبيدة، وقوله: وددت أنّي سألت النبي ﷺ عن هذا الأمر فيمن هو، وكنّا لا ننازعه.

وجوابه:

أولاً: إنّ أبا بكر وعمر مدّعيان ومنتفعان في هذا المسألة، فهما متّهمان، ولم يدّع أحد عصمتهما، فلا حجّة لقوليهما.

ثانياً: إنّ التصريحات النبويّة الكثيرة الواردة في شأن إمرة عليّ عليه السلام، التي كانت بمسمع من أبي بكر وعمر، ومنها ما جاء في يوم الغدير وبخبخة عمر وأبي بكر لعلي، لا تبقي مجالاً لقول: «وددت أنّي...».

٣ ـ دخول علي، رضي الله تعالىٰ عنه، في الشورىٰ، فإنّه رضي بإمامة أيّهم كان.

وجوابه:

أولاً: كان المحتمل بحسب الظاهر والجري الطبيعي أن تكون نتيجة الشورىٰ انتخاب علي للخلافة، فدخل فيها اعتناءً بهذا الاحتمال، ولو لم يدخل فيها لقال المؤرخون: إنّ علياً لو دخل في الشورىٰ لاختاروه للخلافة جزماً، فهو الذي فرّط فيها.

علماً أنّه عليه السلام كان يعلم بالعلم الغيبي بأنّ الشورىٰ لن تكون في صالح خلافته؛ لكنّ علم الغيب ليس مناطاً في التكليف.

---

١. ويشهد لهذا المعنىٰ أنّ المسلمين والمسلمات كانوا يبايعون النبيّ ﷺ علىٰ الطاعة، علماً أنّ نبوّته باختيار إلهي لا ببيعتهم، فالمبايعة إبراز لطاعة من وجبت طاعته سلفاً، لا لإيجاب نبوّته أو إمامته. (المعرّب).

ثانياً: إنّ عليّاً كان أحرص أمّة الرسول على حفظ الوحدة الإسلاميّة وألفتها، وهو القائل: «وليس رجل ـ فاعلم ـ أحرص على جماعة أمّة محمد ﷺ، وألفتها منّي»[1]. وقد جهد أبلغ الجهد في البعد عن الفرقة، وإن على حساب حقّه الشخصي، فصبر ربع قرن وفي العين قذى وفي الحلق شجى، حتى أعيا صبرهُ الصبر، ولم يجد بدّاً في سبيل ذلك من الطاعة للخلفاء؛ لأنّ وجود أمير ظالم خير للأمّة من الفوضى والهرج. قال: «وإنّه لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدوّ، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القويّ، حتى يستريح برٌّ، ويستراح من فاجر»[2].

وعليه: فدخوله عليه السلام في عملية التشاور ليس دليلاً على شرعيّتها وعدم تعيين الله تعالى لإمام. كما أنّ تنازل ابنه الإمام المجتبى عن الخلافة لمعاوية ليس دليلاً على شرعيّة حكومة طاغوت الشام؛ لأنّه كان صوناً للاسلام من الخطر الداخلي والخارجي.

٤ ـ قوله رضي الله تعالى عنه لطلحة رضي الله تعالى عنه: إن أردت بايعتك.

وجوابه:

أولاً: إنّ هذا الكلام لا وجود له في الكتب المعتبرة للشيعة.

ثانياً: إنّ طلحة في نظر أمير المؤمنين رجل مغرور، لا ينقاد للحقّ، ولما أنفذ ابنَ عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته، قال له: «لا تلقينّ طلحة، فإنّك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه[3]، يركب الصعب ويقول: هو

---

١ . نهج البلاغة، الكتاب ٧٨، الفقرة٣.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٤٠.

٣ . كناية عن الكِبر والتيه، والترفّع عن قبول الحقّ ومعاندته.

الذلول؛ ولكن الْقَ الزبير[١]، فإنّه ألين عريكة»[٢].

وعلّق ابن أبي الحديد على ذلك فقال:

«وكذلك كان طلحة، وقد وصفه عمر بذلك».

ويقال: «إنّ طلحة أحدث يوم أحد عنده كبراً شديداً لم يكن»[٣].

فإذا كان هذا حال طلحة في الغرور والكبر، فكيف يُعقل أن يعرض عليه البيعة مثلُ عليّ عليه السلام؟![٤]

---

١ . الزبير وإن كان ألين جانباً من طلحة وأطوع منه للحقّ، إلاّ أنه ـ وللأسف ـ أدركته سوء العاقبة، مع سابقته الطويلة في معونة الاسلام، ففي الرواية عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: قلت: الزبير شهد بدراً؟ قال: نعم، ولكنّه فرّ يوم الجمل، فإن كان قاتل المؤمنين فقد هلك بقتاله إيّاهم، وإن كان قاتل كفاراً فقد باء بغضب من الله حين ولاّهم دبره. (تفسير العياشي، ج٢، ص٥١، ذيل الآية١٦ من سورة الأنفال). وقد تحسّر ابنُ خاله أمير المؤمنين على مصيره السيء، وحينما جيء إليه برأسه وسيفه تناول سيفه وقال: طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنّ الحين ومصارع السوء. (بحار الأنوار، ج٣٢، ص٢٠٠). وبلغ به سوء المصير أن أصبح من أئمّة الكفر في الاسلام، ففي الرواية أنّ عليّاً عليه السلام قال: «ألا إنّ أئمة الكفر في الاسلام خمسة: طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري». (بحار الأنوار، ج٣٢، ص٢٣٥).

٢ . نهج البلاغة، الخطبة٣١.

٣ . شرح نهج البلاغة، ج١ ـ ٢، ص٣٧١، ذيل الخطبة٣١.

٤ . جاء في الرواية عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مرّ أمير المؤمنين بطلحة وهو صريع، فقال: أقعدوه. فأقعد، فقال: لقد كانت لك سابقة لكن دخل الشيطان في منخريك فأدخلك النار». (بحار الأنوار، ج٣٢، ص٢٠٠و٢٣٨). وروي أيضاً أنّه عليه السلام قال له بعد مقتله: «يا طلحة بن عبيد الله! لقد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً، فهل وجدت ما وعدك ربّك حقّاً؟»، ثمّ قال: اضجعوا طلحة وسار. فقال بعض من كان معه: يا أمير المؤمنين! أتكلّم طلحة بعد قتله؟ فقال: «أما والله لقد سمع كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر». (بحار الأنوار، ج٣٢، ص٢٠٠). فخُتم لهذا البطل الفاتح الملقّب بـ«طلحة الخير» بشرّ عاقبة.

٥ ـ قوله حين دُعي إلى البيعة: «اتركوني والتمسوا غيري»[١].

وجوابه:

إنّ مَن يرى الناس وقد جهلوا قدره وأدبروا عنه طيلة خمسة وعشرين عاماً، اعتادوا فيها على السيرة المعوّجة والمسيرة المنحرفة للخليفتين الأول والثاني، وسكنوا إلى الكرم الحاتمي للخليفة الثالث، فهو يعلم أنّهم لن يطيقوا عدله، ويعلم أنّ تدفّقهم على داره كان عن عاطفة لا عن وعي، وقد أثبتت الحوادث اللاحقة بعد البيعة صدق رأيه فيهم، فلم تكن مبايعتهم له عن صدق قلبي.

٦ ـ معاضدته [عليه السلام] لحكومة الخلفاء في حلّ المعضلات ومنح المشورة لهم.

وجوابه:

ما سبق، من أنّ علياً كان يحمل همّ الإسلام وكيان الأمّة الاسلاميّة، وضحّى في سبيل ذلك بحقّه الشخصي. وفي هذا السياق، روى ابن أبي الحديد أنّه «لامته فاطمة على قعوده وأطالت تعنيفه، وهو ساكت حتى أذّن المؤذّن، فلما بلغ إلى قوله: «أشهد أنّ محمّداً رسول الله»، قال لها: أتحبّين أن تزول هذه الدعوة من الدنيا؟ قالت: لا، قال: فهو ما أقول لك»[٢].

٧. إنّ علياً لم يذكر في مراسلاته مع معاوية النصّ عليه من النبي، بل احتجّ ببيعة الناس.

وجوابه:

كأنّه يقصد ما ورد في كتاب منه عليه السلام إلى معاوية، قال: «أمّا بعد فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام؛ لأنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان،

---

١ . ورد هذا الدليل في الشرح فقط: ج٥، ص٢٦٢.

٢ . ملحقات نهج البلاغة، ج١٩ ـ ٢٠، ص٤٧٥، الكلمة ٧٣٥.

علىٰ ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ»[1].

وهذا ليس برهاناً، بل هو جواب جدليّ من أمير المؤمنين، فهو عليه السلام يحتجّ علىٰ طاغوت الشام بما يلزمه؛ لأنّ الذي نصّب معاوية هو عمر، فإن كان معاوية لا يرىٰ شرعية الخلافة بالبيعة فلا شرعيّة لحكومته علىٰ الشام، وإن رأىٰ شرعيّتها فعليٌّ قد بايعه الذين بايعوا الخلفاء السابقين، من أهل الحلّ والعقد وعامّة الناس، فتكون طاعته لازمة علىٰ معاوية؛ لذا قال له في آخر الكتاب: «وقد أرسلت إليك والياً من قبلي جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع، ولا قوّة إلاّ بالله»[2].

فهو عليه السلام يحتجّ علىٰ الخصم بما يلزمه ويلتزم به، وقد احتجّ عليه السلام علىٰ إمامته كثيراً بصريح أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد ذكر العلاّمة الأميني عدداً من احتجاجاته، منها: احتجاجه يوم الشورىٰ، في سنة٢٣ أو٢٤، وفي الرحبة سنة٣٥، واحتجاجه علىٰ طلحة يوم الجمل سنة٣٦، ويوم صفّين سنة٣٧[3].

وممّا جاء في هذا الكتاب أيضاً:

«وإنّما الشورىٰ للمهاجرين والأنصار، إذا اجتمعوا علىٰ رجل فسمّوه إماماً، كان ذلك لله رضا، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردّوه إلىٰ ما خرج منه، فإن أبىٰ قاتلوه علىٰ اتّباع سبيل المؤمنين، وولاّه الله ما تولّىٰ».

وهذا أيضاً من باب الجدل والإلزام، لا من باب البرهان ومشروعيّة أصل مبدأ الشورىٰ في تعيين الخليفة؛ بدليل قوله في كلامٍ له: «واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة»[4].

---

١ . نهج البلاغة، الكتاب السادس.

٢ . المصدر نفسه.

٣ . الغدير، ج١، ص١٥٩ وما بعدها.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة١٩٠.

ونقل السيّدُ الرضي رحمه الله شعراً له عليه السلام قاله لأصحاب الشورىٰ:

فإن كنتَ بالشّورىٰ ملكتَ أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنتَ بالقربىٰ حججت خصيمهم فغيرك أولىٰ بالنبيّ وأقربُ[١]

وهذا النحو من الكلام لا يعدو طريقة الجدال ومحاججة الخصم بما يراه من دليل.

والقاعدة العامّة في الحكم علىٰ كلّ متكلّم هي الرجوع في فهم وتفسير متشابه كلامه ومبهمه إلىٰ محكمه وجليّه؛ لجواز صدور المتشابهات منه لأسباب وغايات عديدة، فالكاتب أو الشاعر الذي أفنىٰ عمره في التوحيد وعبادة الواحد الأحد لا يصحّ بحال الحكم بكفره بعدد من العبارات والأبيات المبهمة المعنىٰ عندنا، بل يجب إرجاع المبهم من كلامه إلىٰ المحكم من أشعاره وعباراته، وحملها علىٰ الجليّ البيّن من كلامه، كما هو الحال في آيات القرآن الكريم. فإنّ بجنب الآيات الكثيرة التي تنزّه الله تعالىٰ عن الجسميّة، وتنفي عنه الشبه لشيء من مخلوقاته[٢]، نجد أيضاً آيات ظاهرة في جسميّته تعالىٰ، كقوله سبحانه: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٣]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[٤]؛ لكن لا يمكن نسبة القول بجسميّة الباري إلىٰ القرآن، بل يجب تفسير مثل اليد والاستواء علىٰ العرش علىٰ ضوء المحكمات من آياته، كقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وكلمات القرآن الناطق، أمير العارفين عليّ عليه السلام، تجانس آيات الإمام الصامت في هذا الأمر، ولا ريب في أنّ الكتاب الذي بعثه عليه السلام إلىٰ معاوية والشاميين لا

---

١ . بحار الأنوار، ج٢٩، ص٦٠٩.
٢ . منها قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، الشورىٰ: ١١.
٣ . الفتح: ١٠.
٤ . طه: ٥.

ينسجم أبداً مع خطبته الشقشقيّة، التي خطبها وهو في كمال طمأنينته وحرّيته، فصدع فيها بالحقّ، وقدح فيها مَن سبقه من الخلفاء بكلمات بيّنة، وخصّ كلّ واحد منهم بكلام شديد الوقع لا لبس فيه؛ فما يُتوهّم بدواً من مشروعيّة الشورىٰ والإجماع وما شابه من مثل كتابه السادس وغيره، يغدو سراباً بالرجوع إلىٰ مجموع كلماته واحتجاجاته عليه السلام، لا سيّما بملاحظة تقطيع السيّد الرضي رحمه الله.

وخلاصة الكلام: إنّ أمير المؤمنين إنّما قال: «وإنّما الشورىٰ للمهاجرين والأنصار، إذا اجتمعوا علىٰ رجل فسمّوه إماماً، كان ذلك لله رضا...» لأنّ مبنىٰ جماعة السقيفة في المسائل الحقوقيّة قائم علىٰ مبدأ الشورىٰ والإجماع في شرعيّة الخلافة، ويرون في بحوثهم الكلاميّة أنّ اعتمادهما فيه رضا الله تعالىٰ، فتكلّم عليه السلام معهم علىٰ أساس ما يعتقدون به، وإن كان باطلاً في نفسه.

ملاحظة: لا مرية في أنّ استخلاف عليّ بن أبي طالب عليه السلام يستتبع رضا الله تعالىٰ؛ لدلالة آيات القرآن المفسَّرة بالسنّة النبويّة علىٰ إمامته، فهو قد تكلّم بالحقّ ونطق بالصدق، وإن كان علىٰ سبيل الجدل.

٨. عدم تعرّضه لذلك النصّ في شيء من خطبه ورسائله ومفاخراته ومخاصماته وعند تأخّره عن البيعة.

وجوابه:

إنّ الكاتب المحترم إمّا جاهل فلا معرفة له بالتاريخ، أو متجاهل للحقائق! إذ كيف يُعقل إنكار هذا الكمّ الكبير المرويّ عنه في احتجاجاته عليه السلام بالأحاديث النبويّة؟! وقد نقل العلاّمة الأميني قسماً منها[١]، فهو عليه السلام لم يسكت عن تبيين حقّه في الإمامة حتّىٰ بعد تولّيه الخلافة، والخطبة الشقشقيّة وغيرها تهدر باعتراضه علىٰ

١. انظر: الغدير، ج١، ص٣٦٠.

الظلم الذي لحق به، حتى وصل تظلّمه إلى سمع التاريخ. ومن احتجاجاته المشهورة أنّه ناشد الناس الله في الرحبة بالكوفة، فقال: «أنشدكم الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يقول لي وهو منصرف من حجّة الوداع: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ وال من والاه، وعادِ من عاداه»؟ فقام رجال فشهدوا بذلك، فقال عليه السلام لأنس بن مالك: لقد حضرتها، فما بالك؟ فقال: يا أمير المؤمنين! كبرت سنّي، وصار ما أنساه أكثر ممّا أذكره، فقال له: إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العمامة، فما مات حتى أصابه البرص، فكان لا يُرى إلاّ متبرقعاً»[1].

وقد نقل ذلك ابن قتيبة أيضاً، وهو المشهور بنصبه وانحرافه عن عليّ عليه السلام.

قال ابن أبي الحديد في فصل: المنحرفين عن علي: «أنّ رجلاً سأل أنس بن مالك في آخر عمره عن عليّ بن أبي طالب، فقال: إنّي آليت ألاّ أكتم حديثاً سئلت عنه في عليّ بعد يوم الرحبة، ذاك رأس المتّقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيّكم»[2].

ومثل هذا وقع لابن أرقم، فلم يشهد بما سمع من الرسول ﷺ، فدعا عليٌّ عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمى، فكان يحدّث الناس بالحديث بعد ما كفّ بصره[3].

٩ ـ إنكار زيد بن عليّ مع علوّ رتبته هذا النصّ، وكذا كثير من سادات أهل البيت.

وجوابه:

إنّ كتب الشيعة المعتبرة خلوٌ من هذا الإنكار المدّعى، بل إنّ النصّ على خلافة عليّ لا يمكن إنكاره.

---

١. شرح نهج البلاغة، ج١٩ ـ ٢٠، ص١٢٩.

٢. شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٢٩٠.

٣. انظر: المصدر السبق،ص٢٩١.

١٠ ـ تسمية الصحابة أبا بكر مدّة حياته بخليفة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم[١].

وجوابه:

ومَن مِن الماضين أو اللاحقين شكّك في خلافتهم الظاهريّة، كي يقال هذا الكلام؟

إلىٰ الآن يعبّر عن أبي بكر وعمر وعثمان بالخليفة الأول والثاني والثالث، فهم في النهاية تولّوا زمام الحكم، سواء بالحقّ أم بالباطل، وليس الكلام في مسألة الإمامة في الخلافة الظاهريّة، بل في «الإمامة» التي هي مقام عرشيّ في الرؤية الشيعيّة، لا تسعه سقيفة بني ساعدة، ولا يتمّ بالشورىٰ.

فاتّضح أن ليس لهم دليل صالح علىٰ عدم التنصيب الإلهي للإمام.

طرق تعيين الإمام عند الشيعة

للشيعة أدلّتها علىٰ أنّ تعيين الإمام بيد الله سبحانه، وأنّه تعالىٰ قد أقام للأمّة إماماً بعد نبيّه وأمره بإبلاغ ذلك للناس.

الدليل الأول

أوّل دليل هو قاعدة اللطف المعروفة، وتقريرها:

إنّ وجود الإمام لطف ورحمة، وقد أوجب تعالىٰ علىٰ نفسه الرحمة، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٢]. والنتيجة: إنّ الله تعالىٰ أوجب علىٰ نفسه تنصيب إمام.

---

١. الأدلّة السابقة وردت في المتن، وهذا الدليل ورد في الشرح فقط. (شرح المقاصد، ج٥، ص٢٦٢).

٢. الأنعام: ٥٤.

توضيح ذلك:

إنّ اللطف يقال لكلّ أمر يقرّب العبدَ من طاعة الله ويبعده عن معصيته، وقد أمر تعالىٰ عباده بطاعته ونهاهم عن عصيانه، ومقتضىٰ الحكمة تهيئة المقدّمات الموجبة لذلك، وإلاّ انتقض الغرض الجدّي من أمره ونهيه. فالأب الراغب جدّاً في تعلّم ابنه لا بدّ لتحقيق ذلك أن يعدّ له المقدمات اللازمة، كالكتاب والقرطاس والقلم والمعلّم و... ومن مقدمات ذلك الغرض الإلهي، وجود إمام يدلّ الناس علىٰ الطاعات ليعملوها، ويبيّن لهم المحرّمات ليتركوها، ويفهمهم أبعاد وفلسفة الطاعة ومخاطر المعصية؛ فيجب علىٰ الله في الحكمة تعيين إمام ودليل يقوم بذلك، وهو معنىٰ قاعدة اللطف[1].

ملاحظة: التعبير بـ «يجب علىٰ الله» ورد في بعض كتب الكلام، وفي كتب الحكمة يعبّر بـ «يجب عن الله أو يجب من الله»[2]. قال التفتازاني: المعتزلة يقولون: «يجب علىٰ الله»، ويقول الحكماء: «يجب عن الله»[3].

وهذا الوجوب والضرورة بسبب حاكميّة بعض الأسماء الإلهيّة علىٰ بعضها الآخر.

الدليل الثاني

إنّ من شرائط الإمام العصمة في العلم والعمل، من الخطأ والنسيان والعصيان؛ لئلاّ يتثبّط الناس عن اتّباعه وطاعته، ولئلاّ يفقد لياقة الوساطة بين الخالق والخلق. والعصمة كما نعلم ممّا لا سبيل للاطلاّع عليها إلاّ بطريق العلم الغيبي.

---

١ . هذا الدليل يوضح شيئاً من مقام الإمام، وللعرفاء دليل أدلّ، يبلغون بالإمام ـ بعنوان أنّه الانسان الكامل ـ مبلغ الأنبياء في المكانة. (الحماسة والعرفان، ص٩٣).

٢ . أسرار الحِكم، ج١، ص٣٧٥؛ مجموعة رسائل ملاّ هادي السبزواري، ص١٨٠.

٣ . شرح المقاصد، ج٥، ص٥.

ومن شرائطه أيضاً الأفضليّة المطلقة، وهي أيضاً لا تُعرف إلاّ بالإخبار الغيبي، وهذا يقضي بأنّ تعيين الإمام المتّصف بذلك بيد علاّم الغيوب عن طريق إبلاغ رسوله.

ملاحظة: لا يعتبر أهل السنّة العصمة والأفضليّة في الإمام، ويقولون: يكفي الظنّ بالعصمة والأفضليّة على فرض الشرطيّة[١]. وقد سبق القول: إنّهم نزلوا بالإمامة من عرش الخلافة الإلهيّة إلى حضيض الخلافة الظاهريّة، فلا جرم أن ينكروا هذه الشرائط فيها. لكنّ رئيس الدولة هو من لا يشترط فيه العصمة والأفضليّة المطلقة، وليس الإمام، وقولهم بكفاية الظنّ هنا يردّه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي﴾[٢]؛ اللهمّ إلاّ أن يدلّ دليل خاصّ على حجيّته، وبحث ذلك في كتب أصول الفقه.

يضاف إلى ذلك أنّ العقلاء لا يكتفون بالظنّ في حصول الشروط والأوصاف المشترطة في تولّي المناصب الدنيويّة والمعنويّة، بل يحرصون على توفّرها والعلم بحصولها؛ فإذا اشترطوا ـ مثلاً ـ في المرشّح لرئاسة الدولة أن يكون سائساً حكيماً و... فهم يحرصون على توفّرها فعلاً في المرشحين للانتخاب، ولا يكتفي المنتخبون في ذلك بالظنّ والاحتمال.

الدليل الثالث

إنّ الإمامة عهد الله، لا أمر الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣]، وأمّا آية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٤]، فالمراد بها تشاور الناس في أمورهم

---

١ . شرح المقاصد، ج٥، ص٢٥٣. والنقل بالمعنى.

٢ . النجم: ٢٨.

٣ . البقرة: ١٢٤.

٤ . الشورى: ٣٨.

وشؤونهم، فكما لا يحقّ لهم تعيين النبيّ بالتشاور، ولا أن يحرّموا الحلال ويحلّلوا الحرام بالآراء، كذلك ليس لهم تعيين الإمام بالاتّفاق والإجماع وما شابه، وإن أمكن لهم بهذه السبل تشخيص الإمام المعيّن سلفاً بأمر الله تعالى[١]، هذا.

وقد احتمل بعضهم أنّ «العهد» في الآية الشريفة هو «النبوّة» دون الإمامة[٢].

وجوابه:

أولاً: إنّ دلالة «العهد» على «الإمامة» صريحة في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً...﴾، فدعوى دلالتها على «النبوّة» خلاف ظاهرها. ولو أنّه كلّما عارض دليلٌ ما قناعةَ أحدِنا صحّ له التعويل على أيّ احتمال للقدح في دلالته ـ وإن على حساب ظاهر القرآن وصريحه ـ لما بقي من الدلالات حجر على حجر[٣].

ثانياً: إنّ استدلالنا بهذه الآية المباركة بغرض إثبات الإمامة من لسان القرآن الناطق، وهم الأئمّة الأطهار الصادقون المصدّقون عليهم السلام، [وقد نصّت رواياتهم على دلالة الآية على إثبات الإمامة وأنّ «العهد» فيها هو الإمامة][٤] فلا مجال للتشكيك.

---

١ . مراد المؤلّف أنّ تلك الطرق ربّما تؤدّي اتفاقاً إلى مبايعة الإمام الواقعي المعيّن من قِبل السماء، كما في مبايعة الناس عليّاً عليه السلام، وليس المراد أنّها طرق حتميّة للكشف عن الإمام؛ لأنّ طرق معرفة الإمام الشرعي لا بدّ أن تكون قطعيّة، وهي مذكورة في محلّها، منها المعجز وتعيين الإمام السابق. (المعرّب).

٢ . شرح المقاصد، ج٥، ص٢٥١.

٣ . بيان: وجه قصد «الإمامة» من «العهد» أنّ مدار الكلام بين النبيّ إبراهيم وربّه تعالى هو «الإمامة». و«الإمامةُ» فيها يراد منها أمر مستقل عن النبوّة؛ لأنّه لو كان المراد بها الإمامة المقترنة بالنبوّة لما كان معنى لاستثناء الظالمين من نيلها، بل يكون الاستثناء لغواً، لماذا؟ لأنّ من يكون نبيّاً هو غير ظالم بالضرورة .(المعرّب).

٤ . هذه الإضافة ضروريّة لسياق الكلام . (المعرّب).

الدليل الرابع

إنّ الإمامة هي خلافة عن الله ورسوله، وكلّ خليفة إنّما يُستَخلف من قِبل المستخلِف نفسه، فإذا ما انتخب الناسُ أحداً للخلافة فهو خليفة الناس، لا خليفة الله ورسوله؛ لأنّ الخليفة يُنسب إلىٰ مَن استخلفه.

وقال بعضهم في الردّ:

لمّا قام الدليل من قبل الشارع ـ وهو الإجماع ـ علىٰ أنّ من اختارته الأمّة خليفة لله ورسوله كان خليفة لهما، سقط ما ذكرتم؛ ألا ترىٰ أنّ الوجوب بشهادة الشاهد وقضاء القاضي وفتوىٰ المفتي حكم الله لا حكمهم[١]؟

وجوابه:

أولاً: إنّه لا إجماع في البين علىٰ ذلك.

ثانياً: لو سُلّم، فلا دليل علىٰ حجيّته واعتباره.

ثالثاً: إنّ لازم ذلك أنّ الله تعالىٰ ورسوله الكريم لم يفعلا شيئاً في الاستخلاف، بل انتظرا الناس ليقوموا به، فلو عيّنوا فاسقاً أو فسق بعدما عيّنوه فعلىٰ الله ورسوله إقرار خلافته! ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾[٢].

ملاحظة: ذكر فقهاء الشيعة أنّ ولاية وحاكميّة الوليّ الفقيه تثبت بانتخاب الجمهور؛ لكن لا بمعنىٰ استخلافه وتشريع حاكميّته بدلاً عن الله تعالىٰ، بل بمعنىٰ تفعيل حاكميّة الفقيه، والسند الشرعي لأصل ولايته هو فقاهته وعدالته، لا رأي الناس. فمن تتحقّق فيه شرائط الحاكميّة ـ وأهمّها الفقاهة والعدالة ـ تكتسب خلافته شرعيّة إلهيّة، ودور بيعة الجمهور هو تفعيل هذه الحاكميّة المشروعة سلفاً،

---

١. شرح المقاصد، ج٥، ص٢٥٦.

٢. الاسراء: ٤٣.

فالناس في الحقيقة يعملون بتكليفهم في هذه المبايعة، ويتّخذون رأيهم في انتخاب هذا الفقيه أو ذاك، فدور رأيهم تفعيل ما هو مشروع وثابت، لا تشريع ما لا دليل عليه ولا ثبوت له؛ اللهمّ إلاّ أن يُتوسّع في معنىٰ «المشروعيّة» بما يشمل الاقتدار الوطني وما شابه من معانٍ، فيكون رأي الشعب سبباً في اقتدار الفقيه الجامع للشرائط وسنداً في قيادته.

الدليل الخامس

كان النبيّ ﷺ يجعل له خليفة علىٰ المدينة إذا ما سافر، وإن سفراً قصيراً؛ فكيف يُحتمل عدم تعيينه خليفة له وهو يسافر سفراً لا رجعةَ منه؟!

قال بعضهم هنا في الردّ: إنّ التفويض إلىٰ اختيار أهل الحلّ والعقد واجتهاد أولي الألباب نوع استخلاف وبيان[1].

وجوابه:

إنّ تبيين طريق الاستخلاف ليس كافياً، بدليل:

* إنّ ابنته ﷺ فاطمة الزهراء عليها السلام، وهي ألصق الناس به، لم ترتضِ خلافة أبي بكر المعيّن في السقيفة.

* إنّ ابن عمّه وزوج ابنته والكثير من كبار الصحابة لم يقرّوا خلافة من استُخلف آنذاك، وإذا ما أنكرت العامّة كلّ شيء لا يسعهم إنكار صحبة عليٍّ للنبيّ ﷺ وقرب مكانته منه.

* إنّ الخلفاء الثلاثة أنفسهم لم يكونوا مقتنعين بكفاية ذلك؛ لذا نرىٰ الخليفة الأوّل عيّن من بعده خليفةً، ونرىٰ الخلفة الثاني حصر الخليفة في جماعة الشورىٰ، ولولا الحصار وثوران المدينة وغيرها ضدّ الخليفة الثالث وعلمه بعدم جدوىٰ

1. شرح المقاصد، ج٥، ص٢٥٧.

تعيين خليفة له لفعل الشيء نفسه.

وهذا ما يسمّيه بعضهم بحكمة وسداد خلفاء النبيّ! «نعوذ بالله ونستجير به.

الدليل السادس

لو سلّم صحّة تعيين الأمّة لخليفة النبي ﷺ، وسلّمنا توافقهم واجتماعهم على شخص بعينه؛ لكنّ الحالة الطبيعية للانتخاب أن يتألّف بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ فريق يجتمع تحت ظلال السقيفة، ويُدعى الأعيان وأهل الحلّ والعقد؛ لبحث المسألة وتبادل وجهات النظر في أبعادها، وتحديد الملاكات والمعايير الصحيحة في عمليّة الانتخاب، والتعرّف على المرشحين للخلافة، وتداول الحديث بشأن صلاحيتهم وأهليّتهم لها، إلى غير ذلك، ومن ثمّ يقدمون على الاستخلاف، وهذا إن لم يستغرق أياماً أو يوماً كاملاً فهو يستغرق بضع ساعات على الأقلّ، إلاّ أن يكون انتخاباً صوريّاً لا أكثر!

والسؤال هنا: خلال ساعات البحث والتداول مَن يقوم بوظيفة الإمام؟ وتحت قيادة مَن يكون أعضاء فريق السقيفة؟ والحال إنّ «الإمام» ليس فرداً كغيره في عالم الوجود، ولا تأثير له في المجتمع البشري، بل هو خليفة الله وحجّته وقناة فيضه لخلقه، آمر الملائكة ومنظّم تأثير الأسماء الحسنى فيما بينها. وفي هذا الصدد، ورد في الرواية أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ: «يا عليّ! أكتب ما أملي عليك. قلت: يا رسول الله! أتخاف عليّ النسيان؟ قال: لا، **وقد دعوت الله عزّ وجل أن يجعلك حافظاً؛ ولكن أكتب لشركائك، الأئمّة من ولدك، بهم تسقى أمّتي الغيث، وبهم يُستجاب دعاؤهم، وبهم يصرف الله عن الناس البلاء، وبهم تنزل الرحمة من السماء، وهذا** أوّلهم ـ وأشار الى الحسن ـ ثمّ قال: وهذا ثانيهم ـ وأشار الى الحسين ـ ثمّ قال:

والأئمة من ولده رضي الله عنهم»[١].

وقال في خطبة بعد بعد ما حمد الله وأثنى عليه، حاثّاً على التمسّك بالثقلين: «... فتعلّموا منهم ولا تعلّموهم، فإنّهم أعلم منكم، ولا تخلو الأرض منهم، ولو خلت لانساخت بأهلها. ثمّ قال: اللهمّ إنّك لا تخلي الأرض من حجّة على خلقك لئلاّ تبطل حجّتك، ولا تضلّ أولياءك بعد إذ هديتهم»[٢].

وقد روي في كتبنا الحديثيّة أن«لو خلت الأرضُ طرفة عين من حجّة لساخت بأهلها»[٣].

وفي رواية عن ثامن الحجج عليه السلام، قال بشأن بقاء الأرض بلا إمام: «معاذ الله لا تبقى ساعةً إذاً لساخت»[٤].

وفي الرواية عن الإمام الصادق عن أبيه عن عليّ بن الحسين عليهم السلام، قال: «نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين... ولولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها... ثمّ قال عليه السلام: ولم تخلُ الأرض منذ خلق الله آدم من حجّة لله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم السّاعة من حجّة الله فيها، ولولا ذلك لم يُعبد الله»[٥]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهمّ بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً، لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته»[٦].

---

١ . ينابيع المودة، ص٢٠.

٢ . المصدر السابق.

٣ . بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٩.

٤ . المصدر السابق، ج٢٣، ص٣٥.

٥ . المصدر السابق، ج٢٣، ص٥ ـ ٦؛ ينابيع المودة، ص٢١.

٦ . نهج البلاغة، الخطبة١٤٧، الفقرة١١.

وَمَصابيحَ الدُّجَى

كلمة «مصابيح» جمع «مصباح»، مشتقّة من المادة «صبح»، بمعنى انكشاف في ظلمة ماديّة أومعنويّة وحصول تنوّر ظاهري أوباطني، ومن مصاديق الأصل ظهور الفجر بذهاب الليل. والمصباح ما يكون به التنوّر وانكشاف الظلام[1].

و«الدجى» جمع «دجية» مشتقّة من المادة «دَجَى» بمعنى الانتشار، دجى الإسلام أي قوي وألبس كلّ شيء[2]. هذا هو المعنى الأصلي لهذه المفردة؛ لكن جرى استعمالها في انتشار شيء بعينه، وهو الليل، يقال: دجى الليل إذا غطّى كلّ شيء بسواده، وقال بعضٌ: الدجى سواد الليل مع غيم وأن لا ترى نجماً ولا قمراً[3].

وقال العلامة المجلسي: «ليل داجٍ... من دجى الليل دجواً إذا أظلم وتمّت ظلمته[4]».

---

١ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «صبح».

٢ . انظر: لسان العرب، مادة «دجى».

٣ . المصدر السابق.

٤ . بحار الأنوار، ج٨٤، ص١٨٨.

فعلى هذا يكون «مصباح الدجى» ما تنكشف به الظّلمة ويزول بنوره الظلام، سواء كان مصباحاً مادياً كما في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[1]، أم معنويّاً كما في آية: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[2].

أئمّة النور

إنّ المراد من الظلمة الداجية في هذه الفقرة من الزيارة إمّا ظلمة العدم، المتبدّدة بنور الوجود وظهور الموجودات به، وإمّا ظلمة الجهل والكفر والريب و ما شابه، المنكشفة بنور العلم والمعرفة.

وبأيّهما فُسّرت فالأئمّة موصوفون بأنّهم مصابيح نور، وقد يكون المراد بالظلمة هنا المعنيين المذكورين أو المعنى الجامع بينهما، وتوضيح ذلك:

إنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام متّصلون بالله تعالى من جهة وبسائر الموجودات من جهة أخرى؛ لأنّهم يتلقّون الفيض الإلهي ومن ثمّ يفيضونه على الموجودات، والعلم والمعرفة بعضٌ من تلك الفيوض والنعم، وببركتهما تنقشع ظلمة الجهل وينهاث الريب، بل أصل وجود العالم بأسره بعض تلك الفيوض، فبيُمنهم انخلعت عنه ظلمة العدم. قال الإمام الباقر عليه السلام: «لَنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله نورهم عمّن يشاء، فتظلمّ قلوبهم»[3].

وعليه فإنّ وصف «مصباح الهدى» يكشف عن حقيقة ارتباط تلك الذوات النورانيّة بالمخلوقات، وهذا الوصف والخاصيّة وإن ذُكر في القرآن لرسول الله:

---

١ . فصلت: ١٢.

٢ . آل عمران: ١٠٣.

٣ . بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٠٨.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[١]، لكنّه ليس مقصوراً في شخص النبيّ، بل يشركه فيه الأئمّة أيضاً[٢].

شرط الانتفاع بنور الهداية

لا بدَّ للساعي لتنوير قلبه المظلم من الاستعانة بمصباح، والمصباح هو نور هداية الأئمّة، وكما أنّ المستصبح يتبع نور المصباح ليرىٰ الطريق السالكة، فطالب الحقيقة يجب أن يستصبح بهداية الأئمّة في سيره ومسيرته.

وقد حذّر النبي الأكرم ﷺ أمّته من التقدّم علىٰ أهل بيته، فقال: «فلا تسبقوهم فتهلكوا»[٣]. وقال: «من أحبّ أن يركب سفينة النجاة، ويستمسك بالعروة الوثقىٰ، ويعتصم بحبل الله المتين، فليوالِ عليّاً بعدي، وليعادِ عدوّه، وليأتمّ بالهداة من وِلده...».[٤] وقال: «... فليتولَّ عليّ بن أبي طالب وذريّته الطاهرين، أئمّة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ، من بعده...»[٥].

شعر:

يا سالك سبيل الحقّ هلمّ وابتغِ الهمّة من الأولياء
لتكن همّتك عالية وانشد الحقّ
النبيّ سيدّ الأولياء وبعد المصطفىٰ عليّ
فكن من طلاّب المصطفىٰ واجعل همّتك في حبّ عليّ

---

١. الأحزاب: ٤٥ـ٤٦.
٢. لدلالة أحاديث صحيحة كثيرة علىٰ أنّ عترة النبي ﷺ عِدل الكتاب وسفينة النجاة وباب حطّة. انظر كتاب «الغدير» للعلامة الأميني، و«المراجعات» لشرف الدين. (المعرّب).
٣. بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٤٤.
٤. بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٤٣.
٥. المصدر نفسه، ص١٤٣.

إنّ اتّباع رسول الحقّ يجلب لك حبّ الحقّ
فاتّبع الرسول لتحظىٰ بحبّ الله
متىٰ ترىٰ عين بصيرتك النور؟!
ابتغِ من صاحب (إنّما)[1] نور بصيرة القلب
الدين سفينة النجاة، وآل الرسول ربّانها
فاركب هذه السفينة وتمسّك بيد ربّانها
إنّ الملاك يلقي في روع أذن القلب الواعية:
إن أردتَ المعرفة فاطلبها من بركاتنا.

وحدة القرآن والعترة

تكرّر القول إنّ هذين الإرثين النبويّين ـ القرآن والعترة ـ مظهران لحقيقة واحدة، ويعبرّان معاً عن حقّ واحد، وقد أكّد الرسول علىٰ ذلك في حديث الثقلين وغيره. وهذه الوحدة بينهما ظاهرة ومتجلّية في صور عديدة، منها نوريّة هاتين الدّرتين الثمينتين، فالأئمة وُصفوا هنا بأنّهم مصابيح الدجىٰ، والقرآن الكريم وُصف أيضاً بالنور: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ﴾[3].

وقال ﷺ للمقداد: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن»[4].

---

١ . إشارة إلىٰ آية: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ (الإنسان: ٩) أو آية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ (المائدة: ٥٥).

٢ . التغابن: ٨.

٣ . الأعراف: ١٥٧.

٤ . بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٧.

وما هذا الانسجام والتلاحم بين هذين المشعلين المتوقّدين إلاّ لأنّهما هاديان من عند: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]، فهما نوران منوّران، بنورهما تستنير الحياة وينجلي دجى الليل.

نور واحد في أربعة عشر مصباحاً

«مصابيح» صيغة جمع وكثرة، لكنّ هذا التعدّد لا ينافي وحدة نور الأئمّة؛ لأنّ المتعدّد هو المصباح، وليس النور المنبعث منه، وللتوضيح إليكم هذا المثال:

إنّ المصباح الكهربائي الذي يحوّل الطاقة إلى نور ربما عطب، فيؤتى بمصباح آخر، فيقوم بالدور نفسه؛ لأنّ الطاقة المحوّلة لم تتغيّر في المصباحين، والذي تعدّد هو المصباح، وهو أداة لتجلّي النور، وليس هو النور الكامن في الطاقة؛ ولذا تتعدّد المصابيح وتختلف باختلاف الأزمان والأمكنة والحاجات، فمنها الكبير والصغير والأخضر والأحمر والأبيض، وغير ذلك من الحالات؛ لكنّ النور نفسه يبقى في الكلّ واحداً، وإن تجلّى بألوان مختلفة.

والأئمة عليهم السلام هم أوعية حقيقة الإمامة، وهم يتجلّون بمظاهر مختلفة بحسب مقتضيات الزمان والمكان، فتارة في الصبر، وتارةً في الصلح والمسالمة، وتارة في الثورة الدامية، وتارة في الدعاء والعبادة، وتارة في تبليغ الدين وتعليم الحِكم والمعارف والتربية، وتارة في الابتلاء بالسجن و... فحقيقة الإمامة شيء واحد، ولها غاية واحدة، وهي هداية الخلق وتنوير عقول الناس، وسوق البشريّة إلى الله سبحانه؛ لكنّها تتمظهر بمظاهر متعدّدة تفاعلاً مع مقتضى كلّ زمان وأحداثه.

---

١. النور: ٣٥.

وأعْلامِ التُّقى

كلمة «أعلام» جمع «علَم»، مشتقّ من مادة «عِلم» وهو اسم لما يُعلم به[1]؛ ولهذا يقال لما يُنْصَبُ في الطّريق ليكون علامةً يُهْتَدىٰ بها: «عَلَم»[2].

و«التُّقىٰ والتقوىٰ» مصدران، والأصل فيهما «وُقىٰ و وقوىٰ»، فأبدلت الواو تاءً[3].

و كلمة «وَقىٰ» بمعنىٰ دفع الشرّ عن شيء بغيره[4]، وصونه عن الأذىٰ. ويسمّىٰ الدرع «وِقايةً»؛ لأنّه يقي المتدرّع به من الأخطار[5]. وفي الحديث النبوي: «اتّقوا النار

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «علم».

٢ . كتاب العين، مادة «علم». بتصرف.

٣ . هذا الإبدال سماعي، وقد حصل في غير هاتين المفردتين أيضاً، مثل «وُجاه: تجاه، وُهَمَه: تُهمة، وقاة: تقاة، وَترىٰ: تترىٰ، وُوراة: توراة، وَوأم: توأم، أخو: أخت، بِنْو: بنت...» (انظر: شرح الشافية، ج٣، ص٢١٩ ـ ٢٢٠).

٤ . مقاييس اللغة، مادة «وقي». قال نصّاً: «دفع شيء عن شيء بغيره».

٥ . المصدر السابق. قال: «والوقاية ما يقي الشيء».

ولو بشقّ تمرة»[١]. قال صاحب «المقاييس» في شرح هذه الرواية: «وكأنّه أراد: اجعلوها وِقايةً بينكم وبينها»[٢]. وسميّت المداراة وكتمان السر «تقيّةً» لوقايتها من أذى المخالف.

ومَن فهم أنّ «التّقوى» بمعنى «الخوف» فقد استعمل السبب في المسبّب؛ لأنّ «التقوى» في اللغة ليست هي الخوف، كما عرفت.

علامات التّقوى

تهتم الدول والمنظّمات بمختلف مجالاتها بجعل علامات وشعارات معيّنة لها، تُفهم من يعلم بدلالاتها المعانيَ المقصودةَ من ورائها؛ من ذلك أعلام العزاء والأفراح، أعلام الدول والشركات والأندية الرياضيّة و... وقد أدّت وسائل الاتّصال الحديثة اليوم إلى تقارب شعوب الأرض وسكّانها، وتوثيق عرى التواصل فيما بينهم، وكأنّهم يعيشون جنباً إلى جنب في قرية عالميّة؛ لذا تراهم يضعون علامات عالميّة الدلالة لتفهمها الشعوب كافّة، بدلاً من الدلالات المكتوبة؛ لاختصاص فهم اللغة المكتوبة بشعب معيّن وبمن يعرف تلك اللغة فقط.

وعلى امتداد الطرق ينصبون المرايا العاكسة والعلامات المروريّة والإنارة اللازمة؛ لتحذير سائقي السيارات من أخطار الطريق، من منعطفٍ وتقاطعٍ واستدارة ومزلقةٍ وانحدارٍ وتساقط الصخور، وما شابه من أخطار.

وهذه الأخطار تكون أكثر وأشد إهلاكاً في الطرق المعنويّة، حتى جاء في الرواية: «... ثمّ يوضع عليها الصراط، أدقّ من الشعرة، وأحدّ من السيف»[٣].

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٨٠.

٢. المقاييس، مادة «وقي».

٣. بحار الأنوار، ج٨، ص٦٥.

والكلام فيها وإن كان عن جهنّم وأحوال القيامة، لكنّ جهنم باطن الدنيا، وفي يوم القيامة يظهر ما كان في هذه الدنيا.

وقد بيّن الشارع المقدّس هذه الأخطار المميتة وحذّر منها عبر بيانه للأحكام، فأوضح للناس الواجبات والمحرّمات، وعلى سالك هذه الطريق فعل الواجب وترك المحرّم، ورعاية بقيّة الأحكام، وكلّ عالمٍ يعلّم الناس حدود الله في واجباته ومحرّماته فهو بذاته «عَلَم» هداية وتقوى؛ ولكن لا مجال لمقايسة أيّ أحد بأئمة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّهم في درجات عالية في كلّ شيء وعلى كلّ صعيد، بدليل:

أولاً: إنّ كلّ ما عند غيرهم مأخوذ من علومهم عليهم السلام، فغيرهم محض واسطة في تلقّي العلوم الإلهيّة منهم عليهم السلام وتعليمها للناس؛ بينما لم يتعلّم الأئمّة من بشر ولم يتخرّجوا من مدرسةٍ ما، بل إنّ علمهم إرث ورثوه عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عن الله سبحانه.

ثانياً: إنّ ما عند غيرهم قليل ولا شيء قياساً إلى ماعندهم عليهم السلام.

ثالثاً: إنّ الأئمّة معصومون في العلم والعمل، فعلمهم وعملهم حجّة في تبيين الأحكام الإلهيّة، كما أنّ سكوتهم عن أمر يُعدّ إمضاءً وتجويزاً شرعيّاً له في حال قدرتهم عليهم السلام على البيان الكلامي وعدم وجود مانع منه، وهذا ما يسمّى اصطلاحاً «تقرير المعصوم».

رابعاً: إنّهم عليهم السلام يفضلون من سواهم بأنّهم عِدل القرآن والمتحدَّون معه والمفسّرون لآياته، وهو علَم على التقوى أيضاً.

يُضاف إلى ذلك أنّ «العلَم» يدلّ على الاختصاص، فالطائرة أو الباخرة اللتان تجوبان البلدان حينما يُرى عليهما علامة أو علم يُعرف الدولة أو الشركة المالكة لهذه الطائرة أو الباخرة، وكذا بالنسبة لعلامات المنتجات الصناعيّة المصدّرة لمختلف الدول، فإنّ ما عليها من علامات أو أعلام تدلّ على الدولة أو الشركة المصنّعة.

إنّ في الناس من لا عقيدةَ له، فهو منسجم فكراً مع كلّ ملّة ودين، فمثل هؤلاء الناس لا يدلّ الارتباط بهم والتواصل معهم على اعتناق فكرٍ أو دينٍ ما.

وفيهم مَن يجسّد الكفر بعينه، واتّخاذ مثل هؤلاء وليجةً مـن دون غـيرهم يـدلُّ على الفكر الإلحادي؛ وممّن جسّد الكفر فرعون، وقد دخل بسببه آلُه ـ وهـم الـذين اتّخذوه وليّاً ـ في العذاب، قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1].

وفيهم من هو منتظم في سلك التوحيد، رافع لشعاره، فاتّخاذهم أولياء وخاصّة يدلُّ على الإيمان، كما هو شأن النبيّ إبراهيم عليه السلام، مؤسس بناء التوحيد ورمز عبوديّة الإله الواحد، فهو ليس أسوة في عبادة الإله الواحد وحسب، بل إنّ في اتّباعه انتفاعاً من هذه الأسوة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[2].

ولكلٍّ من هذه الفئات الثلاث للناس مراتب.

والأئمّة الأطهار عليهم السلام مصداق كامل ومظهر تامّ لعَلَم التقوى ومعيار الإيمان؛ فتولّيهم واللحاق بركبهم علامة الإيمان والتقوى، كما أنّ بغضهم ومعاداتهم علامة الكفر والنفاق، ومجانبةٌ للإيمان والتقوى. قال الإمام عليّ عليه السلام: «لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني؛ وذلك أنّه قُضي فانقضى على لسان النبيّ الأمّي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يا عليّ! لا يبغضك مؤمن، ولا يحبّك منافق»[3].

فملاك الإيمان حبّ عليّ، ومعيار النفاق بغضه عليه السلام؛ لأنّه إمام المتّقين، كما جاء في الرواية عن النبيّ قال: «ما في القيامة راكب غيرنا، ونحن أربعة.

---

١. غافر: ٤٦.

٢. الممتحنة: ٤.

٣. نهج البلاغة، الحكمة ٤٥.

فقام إليه العباس بن عبد المطّلب، فقال: من هم يا رسول الله؟

فقال: «أمّا أنا فعلى البراق، ووجهها كوجه الإنسان، وخدّها كخدّ الفرس، وعرفها من لؤلؤ مسموط، وأذناها زبرجدتان خضراوان، وعيناها مثل كوكب الزهرة، تتوقّدان مثل النّجمين المضيئين، لها شعاع مثل شعاع الشمس، يتحدّر من نحرها الجمان، مطويّة الخلق، طويلة اليدين والرجلين، لها نفس كنفس الآدميين، تسمع الكلام وتفهمه، وهي فوق الحمار ودون البغل.

قال العباس: ومن يا رسول الله؟

قال: وأخي صالح على ناقة الله عزّ وجل التي عقرها قومه.

قال العباس: ومن يا رسول الله؟

قال: وعمّي حمزة بن عبد المطّلب، أسد الله وأسد رسوله، سيّد الشهداء على ناقتي العضباء.

قال العباس: ومن يا رسول الله؟

قال: وأخي عليّ على ناقة من نوق الجنّة، زمامها من لؤلؤ رطب، عليها محمل من ياقوت أحمر، قضبانه من الدرّ الأبيض، على رأسه تاج من نور، عليه حلّتان خضراوان، بيده لواء الحمد، وهو ينادي: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً رسول الله، فيقول الخلائق: ما هذا إلاّ نبيّ مرسل أو ملك مقرّب، فينادي منادٍ من بطنان العرش: ليس هذا ملكاً مقرّباً، ولا نبيّاً مرسلاً، ولا حامل عرش، هذا عليّ بن أبي طالب، وصيّ رسول ربّ العالمين، وإمام المتّقين...»[1].

---

١ . بحار الأنوار، ج٧، ص٢٣٥.

إشارات

١ ـ حقيقة التقوى

التدبّر في حقائق هذا العالم يدلّ على أنّ كلّ متحرّك يواجه في مسار حركته خطر السقوط والهلاك، ولكي ينجو من ذلك هو بحاجة إلى سكّان ينظّم حركته، وخير مثال لذلك وسائل النقل المعروفة اليوم، من سيّارات ودرّاجات، وما شابه، ولكلّ وسيلة سكّان يناسب قدرتها وسرعتها وطبيعة استعمالها والطرق المتحرّكة فيها، فلكلّ وسيلة غرض معيّن؛ ولذا تفاوتت قدرة المكابح فيها أيضاً.

والإنسان موجود متحرّك، وحياته هي حركته. وعلى امتداد مسير حركته توجد الكثير من العقبات والمهالك، فلا بدّ له في حركته هذه من سكّان وكابح.

وبعبارة أخرى: الحياة العقليّة والإنسانيّة للإنسان المتألّه تفرض عليه اتّباع ضابط عقليّ ونهج نقلي، بحيث تكون حركته ومسيرته ضمن تلك الضوابط وغير خارجة عنها. ومن شأن هذا الاتّباع أنّ تتسلّط القوّة الباطنيّة على الأهواء الباطنيّة والخارجيّة وتلجمها. هذه القوّة الباطنيّة هي ما يُسمّى «التقوى»، وهي تتفاوت درجاتها من شخصٍ لآخر، بحسب ما يكلّفون به؛ لأنّ مَن يُكلّف بإدارة دولة مثلاً يكون احتمال خطئه وانزلاقه أكبر قياساً بمن يدير مدينة، ومن يدير مدينة فالمخاوف من عثراته أكبر ممّن يرعى قريةً صغيرة أو داراً؛ لذا اشترطوا العصمة المطلقة فيمن يُكلّف بإدارة عالم الوجود، والعصمة ليست سوى المرتبة الأكمل لملكة التقوى.

٢ ـ ضرورة التقوى

سلوك أيّ إنسان ناشئ من نزعاته الباطنيّة، وهذه النزعات قسمان: مؤقّتة وراسخة.

النزعات المؤقّتة هي الحادثة إثرَ حدث خاصّ وفي ظروف معيّنة؛ مثلاً: خطيب مفوّه يجيّش إحساسات مستمعيه ويستثير عواطفهم بغرض حثّهم على بناء مشفى أو عون محتاج، وينجح في مرماه، فتبرز في نفوسهم صفة «الجود»، ويتفعّل في صورة مساعدة ومواساة؛ لكن قد يكون هذا «الجود» في أكثرهم ظاهرةٌ مؤقّتة وعابرة، فلا يكاد يتكرّر منهم ذلك العطاء، إلاّ باستثارة عواطفهم مرّة أخرى.

والنزعات الراسخة القارّة هي ما تسمّى «الملَكات»، وهي تلك الساكنة في النفس دوماً، وكلّ ملَكة منشأٌ لما يناسبها من أفعال، كملكة السخاء في حاتم الطائي؛ وصعبٌ وعسير جدّاً زوال هذا الملكَات الراسخة، وإن كان ممكناً.

ومَن يحرص على دوران حركته وسلوكه مدار الشرع المقدّس والالتزام بأحكامه في مسيرته، فهو دوماً عرضة لهجمات عدوّ لدود، أقسم بعزّة الله تعالى على غوايته وإضلاله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]. لذا فهو بحاجة شديدة على امتداد طريق حركته إلى درع ليتوّقى بها في منازلته ذلك العدوّ؛ لأنّ عداوة الشيطان عداوة شرسة وهجومه شامل، يصبّ فيها كلّ قوّته، كما قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[2]. فيجب التدرّع الكامل ومحاربته حرباً شاملة لا هوادة فيها ولا نكول، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا

---

١ . ص: ٨٢ .

٢ . الأعراف: ١٦ ـ ١٧.

اسْتَطَعْتُمْ﴾[١].

ومعيّة الله تعالىٰ الدائمة وعلمه المحيط بعباده: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢] أرضيّة معدّة لهذه التقوىٰ والمراقبة المستمرّة. قال الامام عليّ عليه السلام في بيان ضرورة المراقبة الدائمة:

«فاتّقوا الله الذىٰ أنتم بعينه، ونواصيكم بيده، وتقلّبكم في قبضته؛ إن أسررتم علمه، وإن أعلنتم كتبه، قد وكّل بكم حفظةً كراماً، لا يسقطون حقّاً، ولا يثبتون باطلاً»[٣].

وقال: «أيّها الناس! اتّقوا الله الذي إن قلتم سمع وإن أضمرتم علم»[٤].

والدعوة إلىٰ تقوىٰ الله وطاعته هي صدىٰ نداء كلّ الأنبياء، كما قال تعالىٰ علىٰ ألسنتهم: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٥]، وهم قادة البشريّة في حربهم ضدّ الشيطان وهوىٰ النفس، وهداتهم في طيّ صراط التوحيد. ومن وصايا لقمان لابنه: «يا بنيّ! إنّ الدنيا بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير! فلتكن سفينتك فيها تقوىٰ الله»[٦].

أجل؛ الذنب سمّ زعاف، يسمّم الروح، وفي الرواية: «النظر سهم من سهام إبليس مسموم»[٧]. وكلّ ذنب هو سهم شيطاني مسموم، فيجب توقّيه ما أمكن، وهذا التوقّي أمر مطلوب، سواء كان عن ملكة أم لأمر عارض؛ لأنّ فيه النجاة من

---

١. التغابن: ١٦.

٢. الحديد: ٤.

٣. نهج البلاغة، الخطبة١٨٣، الفقرة١٠.

٤. نهج البلاغة، الحكمة٢٠٣.

٥. آل عمران: ٥٠؛ الشعراء: الآيات: ١١٠ ـ ١٢٦ ـ ١٣١ ـ ١٤٤ ـ ١٥٠ ـ ١٦٣ ـ ١٧٩، وهذه الآية جاءت علىٰ ألسنة النبيّ عيسىٰ ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

٦. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٩٩.

٧. الكافي، ج٥، ص٥٥٩.

الهلكة؛ ولكن لا ريبَ في أنّ مطلوب الشرع المقدّس هو تحصيل التقوىٰ كملكة راسخة لتحصّن الإنسانَ من كلّ ذنب، كما في الحقن الوقائي، لصون البدن من الأمراض والجراثيم، فإنّ له دوراً بارزاً في الطبّ، وللأطباء به عناية.

٣ ـ دائرة التقوى

التقوىٰ لغةً هي مطلق صيانة الشيء ممّا يعيبه ولا يُرغب به فيه، سواء كان ذلك العيب عيباً شرعيّاً أم عرفيّاً، وسواء كان دليله عقليّاً أم نقليّاً. وتعني أيضاً العمل بالحقّ ووفق الجري الطبيعي، ويقابلها «الفجور» بمعنىٰ خرق حدّ الاعتدال والخروج في السلوك عن المسار الطبيعي[١]. فتكون التقوىٰ علىٰ هذا المجاهدة لصون هذا «الاعتدال»، والبقاء في أيّ فعل ضمن الجري الطبيعي المعروف فيه، وهذا يتحقّق بطاعة الله تعالىٰ في أوامره ونواهيه، واتّباع الأوامر والزواجر العقليّة والعرفيّة. وبعبارة الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن تفسير التقوىٰ فقال: «أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك»[٢].

وعلىٰ هذا، فالتقوىٰ في الحقيقة هي عصارة الفضائل، واجتناب كلّ الرذائل.

والعلَم للتقوىٰ هو علَم لكلّ فضيلة، والحدّ الفاصل بين الحلال والحرام، وهذا معنىٰ ما ورد في زيارة أمير المؤمنين: «السلام علىٰ ميزان الأعمال»[٣].

---

١ . قال في «التحقيق في كلمات القرآن الكريم»: «والتقوىٰ تختلف خصوصياته باختلاف الموارد، والجامع هو صيانة الشيء عن المحرّمات الشرعيّة والعقليّة، والتوجّه إلى الحقّ وإلى تطهير العمل، وإلى الجريان الطبيعي المعروف، ويقابله الفجور، وهو انشقاق حالة الاعتدال والجريان الطبيعي المعروف، وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً».

٢ . بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٨٥.

٣ . المصدر السابق، ج٩٧، ص٢٨٧.

٤ ـ مكانة التقوى

لكلّ عبادة مكانة وقيمة خاصّة في منظومة المعارف الإسلاميّة، ففي الصلاة ورد أنّ«لكلّ شيء وجه، ووجه دينكم الصلاة»[١]، وأنّ«الصلاة عمود الدين...»[٢].

والزكاة تميث الذنب وتلي الصلاة في الفضل؛«لأنّه قرنها بها، وبدأ بالصلاة قبلها، وقال رسول الله ﷺ: الزكاة تذهب الذنوب»[٣].

وفي الصوم ورد أنّ: «الصوم جُنّة من النّار»[٤].

وفي مكانة الجهاد في الإسلام قالوا: «... وذروة سنامه الجهاد»[٥].

وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورد أنّ«ما أعمال البرّ كلّها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ كنفثة في بحر لجّيّ»[٦].

و«الولاية أفضل لأنّها مفتاحهنّ»[٧].

ولكن، مع كلّ هذه الاهتمام بهذه العبادات وغيرها، لم يُفتِ فقيه واحد بوجوبٍ أو استحبابٍ خاصّ بالتوصية بواحدة منها في خطبة صلاة الجمعة، التي تعتبر ملتقىً أسبوعيّاً للمسلمين، بينما أوجبوا التوصية فيها بالتقوىٰ، إن في إحدىٰ الخطبتين أو في كلتيهما؛ ذلك أنّ«التُقىٰ رئيس الأخلاق»[٨]، ولأنّ التوصية بالتقوىٰ

١ . المصدر السابق، ج٧٩، ص٢٢٧.
٢ . المصدر السابق، ج٧٩، ص٢١٨.
٣ . المصدر السابق، ج٦٥، ص٣٣٢.
٤ . المصدر السابق، ج٦٥، ص٣٣٣.
٥ . المصدر السابق، ج٦٥، ص٣٣١.
٦ . نهج البلاغة، الحكمة٣٧٤.
٧ . بحار الأنوار، ج٦٥، ص٣٣٢.
٨ . نهج البلاغة، الحكمة٤١٠.

توصية بالصلاة والزكاة والصوم وبسائر الطاعات، وتوصية بترك المحرّمات. وفي وصيّة جامعة لأخلاق القائد العسكريّ، قال أمير المؤمنين لشريح بن هانئ: «اتّقِ الله في كلّ صباح ومساء»[1].

٥ ـ درجات التقوى

للتقوىٰ ـ شأنها شأن سائر الكمالات الأخلاقيّة ـ مراتب ثلاث: عامّ وخاصّ وأخصّ. فتقوىٰ العموم اجتناب المحرّمات، وتقوىٰ الخاصّ اجتناب المحرّمات والمشتبهات، وتقوىٰ الأخصّ اجتناب المباحات بجعلها مستحبّات. قال الفيض الكاشاني: «وللصوم ثلاث مراتب: صوم العموم وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

فأمّا صوم العموم فهو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأمّا صوم الخصوص: فهو كفّ النظر، واللّسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأمّا صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة، والأفكار المبعدة عن الله تعالىٰ، وكفّه عمّا سوىٰ الله تعالىٰ بالكليّة»[2].

٦ ـ التقوى الخاملة والتقوى الفاعلة

تنقسم التقوىٰ إلىٰ تقوىٰ خاملة وأخرىٰ فاعلة، أو سلبيّة وإيجابيّة؛ الخاملة هي التقوىٰ التي يهجر صاحبها الحياة الاجتماعيّة ويعتزل الناس بغية صون نفسه من شرّ الهوىٰ وشراك الشيطان.

---

١ . نهج البلاغة، الكتاب٥٦.

٢ . المحجّة البيضاء، ج٢، ص١٣٠، الباب الثاني. وهذا النصّ لأبي حامد الغزالي لا للكاشاني. (المعرّب).

شعر:

التقيتُ بوليّ في الجبل

قد قنع من الدنيا بغار

قلتُ له: لِمَ لا تأتي المدينة

لتزيح عن قلبك ثقل الهموم؟

قال: هناك كثير من جميلات الوجوه الفاتنات

وإذا عظمت مزلقة الطين زلقت الفيلة أيضاً![1].

وهناك مَن يقضي على قوى النفس ويكبت ميولها كلّها أو يضع ما يعرقل الجوارح بغية تحقيق ذلك الهدف، كأن يضع في فمه حصيّة لئلا يغتاب أو يكذب أو يلغو.

والتقوى الفاعلة هي مَن يستجمع صاحبُها قواه وطاقته لمحاربة المنكرات، ولا يكون بحاجة إلى العزلة والانطواء في النجاة من المزالق الخُلقيّة والعقديّة وغير ذلك.

وتحوز التقوى الفاعلة على عناية أبلغ؛ لأنّ على المسلم مسؤوليّة تجاه المجتمع، وعليه أن يجاهد في معالجة المنكر، ويسعى في إصلاح الفاسد منه وهداية المنحرفين من أفراده، وهذا لا يتأتّى إلاّ ممّن لا يهجر المجتمع، ولديه مناعة داخليّة لئلا يبتلي بشيء من الآفات.

ومن يعتزل الناس لا يستطيع أبداً بذل أيّ جهد لإصلاحهم، بل إنّ عدّ التقوى الخاملة أحد قسمي التقوى من التساهل والمسامحة في التسمية؛ لأنّ «التقوى» هي تحقّق التوقّي والتحرّز الفعلي من آفات الذنوب والأفكار الداعية للعصيان، فمن

---

١ . گلستان سعدي، باب ٥، في العشق والشباب، الحكاية١٧، ص١٣٨.

يفرّ من ساحة الحياة الاجتماعيّة ليصون نفسه من التلوّث لم يحقّق معنى «التوقّي والتقوى» في نفسه، بل غاية ما نجح فيه هو استخلاص متاعه من لجّة الماء.

شعر:

جاء وليٌّ من رباط الصوفيّة إلى المدرسة

ولم يفِ لرفقة الطريق بعهده معهم

قلتُ: ما الفرق بين العالِم والعابد؟

حتى اخترت منهما أن تكون عالماً!

قال: ذاك «العابد» استخلص من الماء متاعه

وهذا «العالِم» يجهد في استخلاص الغريق[1].

ولا يفوتنّك ما ذُكر في فارط الكلام من محبوبيّة ترك الذنب بأيّ كيفيّة وعلى أيّ حال، فالتقوى الخاملة في نفسها درجة من الكمال، خاصّة في مقتبل العمر وأول السير، ومن شأنها أن تكون أرضيّة صالحة للتقوى الفاعلة.

٧ـ أهميّة التقوى

إنّ تأكيد القرآن الكريم والأئمّة المعصومين على «التقوى» يدلّ على ما لها من تأثير كبير وآثار خاصّة، ومن ذلك أن جعلها القرآن معيار الأكرم ومحور الكرامة عند الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، وقال تعالى في أولى آياته المنزلة في غار حراء على النبي: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾[3]. فوصف تعالى نفسه بـ «الربّ الأكرم»، وهو معلّم ومربّي الخلق، فكأنّه تعالى بهذا التوصيف يخبر بأنّ مثل

---

١ . گلستان سعدي، باب ٢، الحكاية٣٩، ص٧٨.

٢ . الحجرات: ١٣.

٣ . العلق: ١٣.

هذا المعلّم يناسبه معلّم خاصّ ليربّيه ويوصله إلى مقام الكرامة؛ لأنّه عندما يقال: «هذا معلّم كريم» فالمعنى أنّه يعلّم الكرامة ويربّي مَن تحته عليها. وبما أنّ «التقوى» ـ كما عرفتَ ـ هي معيار الكرامة عند الله؛ فأولى الآيات تدعو الإنسان إلى التقوى والتحلّي بها ليفوز بالكرامة عند الله سبحانه، وقد اختتم تعالى آياته المنزلة على رسوله الأكرم ﷺ بالدعوة إلى التقوى أيضاً، فقال: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[١]، فالقرآن بُدئ واختُتم بالدعوة إلى التقوى والتوصية بها[٢].

ومن آيات التقوى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٣]، وكلّ درجة من التقوى معدّة لدرجة أقوى من الاستطاعة، فالتقوى لا تنقص من القدرة وحسب، بل هي تزيدها وتضاعفها، ووُسع الإنسان واستعداده ليس محدوداً إلاّ أن يقنع بتقوى محدودة ضيّقة النطاق؛ لذا وردت التوصية بالتقوى المطلقة غير المحدودة.

وتحتلّ التقوى في روايات الأئمّة المعصومين مكانة خاصّة، فورد ذكرها والتوصية بها في أكثر خُطب نهج البلاغة. قال الشريف الرضي ؒ: وروى أنّه ؑ قلّما اعتدل به المنبر إلاّ قال أمام خطبته: «أيّها الناس! اتّقوا الله، فما خُلق امرؤ عبثاً فيلهو، ولا تُرك سدىً فيلغو...»[٤]. وحينما ذكر ؑ من عمق روحه صفاتِ المتّقين لصاحبه همّام صُعق همّام صعقة كانت نفسه فيها[٥].

١ . البقرة: ٢٨١.

٢ . الآية المذكورة وإن كانت من سورة البقرة، وآخر سورة نازلة هي سورة النصر؛ لكنّ آخر آية نزلت على المشهور هي هذه الآية، (انظر: الإتقان، ج١، ص١٠١، النوع الثامن)، لكن جاء الأمر الإلهي بجعلها في سورة البقرة.

٣ . التغابن: ١٦.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٠.

٥ . انظر: نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

٨ ـ التقوى معرفةٌ وعملٌ صالح

روىٰ إسحاق بن عمّار، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾[١] أقوّة في الأبدان أم قوّة في القلوب؟ قال: «فيهما جميعاً»[٢]. تدلّ الرواية علىٰ أنّ العلم وهو أخذ كتاب الله وتلقّيه بقلب قويّ، والعمل الصالح وهو أخذه ببدن قويّ، سببان للتقوىٰ.

توضيح ذلك: يجب أولاً تلقّي المعارف الإلهيّة والعقائد الإسلاميّة علىٰ ضوء البراهين العقليّة أو النقليّة المحكمة، وتعلّم ضوابط الدين في الأخلاق والفقه وفهمها جيداً، ومن ثمّ الاعتقادُ بها اعتقاداً محكماً راسخاً، وبعد تحقّق العلم والاعتقاد الراسخ، يجب الجدّ في العمل بتلك العقائد والتعاليم والدقّة فيه، والدفاع عنها باقتدار؛ كي يحصل الغرض منها وهو التقوىٰ. فالمعرفة الحقّة والعمل الصالح منبعان وشرطان أساسيّان للتقوىٰ.

ولذا ذُكرت التقوىٰ في آيات عديدة كنتيجة للعمل الصالح والتعبّد بأحكام الله تعالىٰ، من ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٥].

---

١ . البقرة: ٦٣؛ الأعراف: ١٧١.
٢ . بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٢٦.
٣ . البقرة: ١٨٣.
٤ . البقرة: ١٧٩.
٥ . البقرة: ٢١.

والتأثير متبادل بين التقوى والعمل الصالح، بمعنى أنّ كلّ درجة من التقوى سبب للتوفيق إلى عمل صالح، وكلّ عمل صالح هو مرقاة في سلّم تعالي التقوى وكمالها.

وهذا التأثير المتبادل محقّق أيضاً بين التقوى والمعرفة من جهة، وبين العلم والعمل من جهة ثانية، ففي الرواية: «من عمل بما يعلم علّمه الله ما لم يعلم»[1]، و«من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم»[2].

ومع وجود بواعث كثيرة للعمل الحسن مثل الوجدان الأخلاقي والعاطفة الإنسانيّة والمكانة الاجتماعيّة والأخلاق العامّة؛ لكنّ «التقوى» هي أفضل وأهمّ باعث لفعل الصالحات على أكمل وجه[3]؛ لأنّها الباعث الوحيد الذي يصبغ عمل الإنسان بصبغة الله ويمنحه شارة العبادة.

ملاحظة: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[4]، فهو سبحانه عالم بكلّ شيء وفي كلّ زمان من الأزمنة، فلا فرق في ذلك بين الماضي والحال والمستقبل.

والسؤال هنا: إنّ «لعلّ» من الحروف المشبهة بالفعل، وهي من حروف الترجّي، والإتيان بها في الكلام يدلّ على جهل المتكلّم بالمستقبل، والله تعالى لا يجهل بشيء أبداً؟

والجواب: إنّ «لعلّ» في كلامه تعالى ليس بمعنى ترجّيه الناشئ من الجهل، بل بمعنى أنّ الفعل الفلاني صالحٌ في نفسه لأن يكون معدّاً ومقدمةً لأمر ونتيجة معيّنة، ولكنّ الحتميّة موقوفة على مقدّمات أخرى أمرها بيد المكلّف وإرادته، فـ

---

١. بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٨٩.

٢. المصدر السابق، ج٦٥، ص٣٦٣.

٣. البواعث الأخرى، مثل العشق والحبّ لله تعالى ورضاه خارجة فعلاً من دائرة هذه البحوث.

٤. النساء: ٣٢.

«لعلّ» للدلالة على أصل الاستعداد. وبعبارة أخرى: هي في كلامه تعالى بمعنى أنّ هذا الفعل يُرجى من التقوى ومن شأنه التمهيد لها، مع علمه تعالى بذلك، فالترجّي منه تعالى بمعنى الظنّ والاحتمال لا معنى له.

٩ ـ آثار التقوى

قليلةٌ هي الأمور التي أكّدت عليها الآيات والروايات كتأكيدهما على التقوى.

وقد ذكر القرآن الكريم وروايات العترة الطاهرة آثار التقوى على مستويات عدّة، إليكم بعضها:

١ ـ الأخذ بنصيب وافر من هداية القرآن والاعتبار بمواعظه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١]، ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٤]، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٥]، ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٦].

ذلك لأنّ المتّقين صانوا ثروتهم الحقيقيّة وصدّقوا بكتاب الله وعملوا بأوامره ونواهيه، والقرآن وإن كان ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٧] جميعاً؛ لكنّ البشرى خاصّة بالمؤمنين

---

١. البقرة: ٢.

٢. الحاقة: ٤٨.

٣. آل عمران: ١٣٨.

٤. المائدة: ٤٦.

٥. الأنبياء: ٤٨.

٦. البقرة: ٦٦.

٧. البقرة: ١٨٥.

دون سواهم: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

٢ ـ الفوز بمعيّة الله الخاصّة: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢]، ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٣]. وأمّا المعيّة القيوميّة فهي عامّة، للمتّقين وغيرهم: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤].

٣ ـ المتّقي حبيب الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٥]، والتّقوىٰ الكاملة تكمن في المتابعة المطلقة للرسول الأكرم، ونتيجة هذه المتابعة حبّ الله تعالىٰ، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٦].

شعر:

اتّباع رسول الحقّ يجلب حبّ الحقّ
فاتبّع الرسول واطلب حبّ الله.

٤ ـ الختم بحسن العاقبة: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٧]، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[٨]، ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٩]. وفي آيات أخرىٰ فُسّرت العاقبة الكريمة بالنجاة من النار، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾[١٠]، ﴿وَيُنَجِّي

---

١. مريم: ٩٧.
٢. البقرة: ١٩٤.
٣. النحل: ١٢٨.
٤. الحديد: ٤.
٥. التوبة: ٤و٧.
٦. آل عمران: ٣١.
٧. الأعراف: ١٢٨؛ القصص: ٨٣.
٨. طه: ١٣٢.
٩. الزخرف: ٣٥.
١٠. مريم: ٧٢.

اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لايَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

وفي بعض الآيات فُسّرت بالفوز بالجنّة والتنعّم بنعيمها الأبديّ، كما في هذه الآيات:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾[٢]، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾[٣]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[٤]، ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[٥]، ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾[٦]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾[٧].

و ذكرت آيات أخرى حشرَ المتّقين إلى الله جزاءً للتقوى، وسوقَ المجرمين إلى جهنم كعاقبة لهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾[٨].

---

١. الزمر: ٦١.

٢. ص: ٤٩ ـ ٥١.

٣. النبأ: ٣١ ـ ٣٣.

٤. الزمر: ٧٣.

٥. الزمر: ٢٠.

٦. النحل: ٣٠ ـ ٣١.

٧. الدخان: ٥١ ـ ٥٥.

٨. مريم: ٨٥ ـ ٨٦.

٥ ـ التقوىٰ أقوىٰ بنيان وأصلب أساس: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ...﴾[١]. وفي كلام لأمير المؤمنين قال: «لا يهلك علىٰ التقوىٰ سِنخ أصل ولا يظمأ عليها زرع قوم»[٢].

٦ ـ المتّقي وليُّ الله: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

٧ ـ التقوىٰ خير لباس وزينة: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[٤]، وهي زينة للإنسان ولباس يواري قبيحه ورذائله، قال تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً﴾[٥]، وليس لباساً ماديّاً يقي البدن من الحرّ اللافح والبرد القريس، كما هو المقصود في آية: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[٦].

ولعلّ السرّ في تعبير القرآن عن الرجل وزوجه بأنّهما لباسين لبعضهما في قوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٧] هو أنّ كلاً منهما يقي الآخر ويصونه من الانحراف والمنكر الأخلاقي، ويستر عليه شينه وعيبه ويكون زيناً له. ولكن لا شيء يضارع التقوىٰ في وقاية وصيانة الإنسان؛ لأنّها تمنعه من القبائح المعنويّة، ولا يقاس بقبحها شيء، كما أنّه لا زينةَ كالتقوىٰ.

٨ ـ التقوىٰ تيسّر العسير ويُرزق المتّقي من حيث لا يحتسب: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ

---

١ . التوبة: ١٠٩.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة١٦، الفقرة٩.

٣ . الجاثية: ١٩.

٤ . الأعراف: ٢٦.

٥ . الأعراف: ٢٦.

٦ . النحل: ٨١ .

٧ . البقرة: ١٨٧ .

يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[١]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ﴾[٢]. وقال الإمام عليّ عليه السلام: «اعلموا أنّه من يتّقِ الله يجعل له مخرجاً من الفتن، ونوراً من الظلم»[٣]. وحينما شيّع بطل الربذة، قال له: «ولو أنّ السموات والأرضين كانتا على عبد رتقاً، ثمّ اتّقى الله، لجعل الله له منهما مخرجاً»[٤]. وفي كلام آخر قال:

«فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوّها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد إنصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدّبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجّرت عليه النّعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها»[٥].

ومن نافلة القول أنّ على المتّقي السعي والأخذ بالأسباب الطبيعيّة؛ لكنّ اعتماده على الغيب يكون أقوى من اعتماده على الشهادة، وليعلم بأنّ الله سبحانه يرزق المتّقي من طرق لا يرجو منها خيراً!.

٩ ـ التقوى تعين على معرفة الحقّ من الباطل، وتستر السيّئات، وهي سبب لغفران الذنوب وفيها أجرٌ عظيم، قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾[٧].

---

١ . الطلاق: ٤.
٢ . الطلاق: ٢ ـ ٣.
٣ . نهج البلاغة، الخطبة١٨٣، الفقرة١١.
٤ . نهج البلاغة، الخطبة١٣٠، الفقرة٣.
٥ . نهج البلاغة، الخطبة١٦١، الفقرة٩.
٦ . الأنفال: ٢٩.
٧ . الطلاق: ٥.

إنّ القدرة التامّة علىٰ تشخيص الحقّ من الباطل لا تحصل بالدرس والمدارسة المعروفة؛ لأنّ الإنسان خطّاء، وتتشابه عليه الدلائل، وإذا ما نجح في معرفة الحقّ فإنّه يزلّ في معرفة الأهمّ من المهمّ؛ ولكنّ المتّقي ينجح في معرفة الحقّ من الباطل والأهمّ من المهمّ ويسلم من الزلل في ذلك؛ لأنّه يسير بنور التقوىٰ، وكلّ نجاح متناسب نقصاناً وكمالاً مع درجة التقوىٰ.

١٠ ـ نيل الكرامة الإلهيّة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، وعن الإمام عليّ قال: «لا كرم كالتقوىٰ»[٢]. وإذا كانت التقوىٰ سبباً ومحوراً للكرامة فإنّ الكرامة تابعةٌ للتقوىٰ حدوثاً وبقاءً، شدّةً وضعفاً، ولا يمكن بحال نيل الكرامة العظمىٰ بدرجة منخفضة من التقوىٰ؛ لأنّ لازم ذلك حصول المقدار الزائد من الكرامة بلا محورها وسببها المفترض، وهو «التقوىٰ».

١١ ـ التقوىٰ تصعد بالمتّقي وعمله إلىٰ الله: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى﴾[٣]؛ ذلك أنّ التقوىٰ قرين المتّقي، فاذا ما بلغت إلىٰ الله بلغت بالمتّقي إليه أيضاً، وهذا كمال ونفع له.

١٢ ـ التقوىٰ خير زاد، والإنسان مسافر، يبدأ رحلته من التراب ويسير حتىٰ يلقىٰ ربّه: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[٤]. وكلّ مسافر بحاجة إلىٰ زاد يفي بمؤنته ويبلغه محلّه، سواء كان سفراً مكانيّاً ماديّاً أم معنويّاً، ولكلّ سفر ما يناسبه من زاد، فتختلف الأزواد باختلاف الأسفار، فأزواد السفر

---

١. الحجرات: ١٣.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ١١٣.

٣. الحج: ٣٧. قال أمين الإسلام الطبرسي: «وروي: أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا لطخوا البيت بالدم، فلما حجّ المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلت .(جوامع الجامع، ج٢، في تفسير الآية المذكورة).

٤. الانشقاق: ٦.

الطويل أو خارج الوطن أو سفر الشتاء أو السفر العائلي أو السياسي ليس كزاد السفر القصير أو الداخلي أو سفر الصيف أو الفردي أو الترويحي؛ فلا جرم لن يكون زاد سفر الآخرة والسير إلىٰ الله سبحانه كزاد الأسفار الدنيويّة، وأفضل زاد لسفر الآخرة بحسب توصية القرآن هو التقوىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[1].

وقال أمير المتّقين عليّ عليه السلام وقد رجع من صفّين فأشرف علىٰ القبور بظاهر الكوفة:

«يا أهل الدّيار الموحشة، والمحالّ المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التّربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة يا أهل الوحشة؛ أنتم لنا فرط سابق، و نحن لكم تبع لاحق، أمّا الدّور فقد سُكنت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، وأمّا الأموال فقد قُسمت، هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟. ثمّ التفت إلىٰ أصحابه فقال: أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزّاد التّقوىٰ»[2].

وكان عليه السلام يغتنم كلّ الفرص في التوصية بالتقوىٰ، وممّا قاله:

«رحم الله امرءاً... والتقوىٰ عدّة وفاته»[3].

وقال: «... فإنّ الدنيا لم تُخلق لكم دار مقام، بل خُلقت لكم مجازاً، لتزوّدوا منها الأعمال إلىٰ دار القرار»[4].

وقال: «لا خير في شيء من أزوادها إلاّ بالتقوىٰ»[5].

---

١. البقرة: ١٩٧.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ١٣٠.

٣. نهج البلاغة، الخطبة٧٦.

٤. المصدر السابق، الخطبة١٣٢، الفقرة٨.

٥. المصدر السابق، الخطبة١١١، الفقرة٨.

وقال: «واستظهروا بالتقوىٰ»[١].

وقال: «أوصيكم عباد الله بتقوىٰ الله، التي هي الزاد و بها المعاذ: زاد مبلِغ، و معاذ مُنجِح»[٢].

ملاحظة: كلمة «خير» اسم تفضيل، والأصل فيها «أخْيَر»، بمعنىٰ أحسن وأفضل، فتكون الدلالة الصريحة لقوله تعالىٰ: ﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٣] أنّ التقوىٰ أحسن زاد. والدلالة الضمنيّة له أنّه توجد أزواد كثيرة مناسبة للتزوّد بها؛ لكنّ أفضلها التقوىٰ! وهذا الفهم ليس مطابقاً للمعنىٰ الصحيح للآية، بيان ذلك:

إنّ «أفعل» وغيرها من صيغ التفضيل ليست دائماً بمعنىٰ الأحسن، بل قد تستعمل في التعيين والحصر؛ فمثلاً قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾[٤]، فكلمة «أولىٰ» صيغة تفضيل، وتُترجم في الفارسيّة بمعنىٰ «سزاورتر» أو «شايسته تر»، فيكون المعنىٰ: إنّ جميع أولي أرحام الميّت مستحقّون للإرث؛ لكنّ بعضهم أحقّ وأولىٰ من بعضهم الآخر، والحال أنّ الأمر ليس كذلك؛ لأنّ أرحام الطبقة الأولىٰ يحجبون ويمنعون أرحام الطبقة الثانية من الإرث، وأرحام الطبقة الثانية يحجبون أرحام الطبقة الثالثة، فكلمة «أولىٰ» في هذه الآية للتعيين، لا لمحض الأفضليّة. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٥]، فمعناها أنّه تعالىٰ يعلم أين يجعلها، بمعنىٰ نفي الجهل عن ذاته المقدّسة، لا بمعنىٰ أنّ غيره يشارك الله تعالىٰ في هذا العلم وإن بدرجة أضعف مثلاً.

---

١. المصدر السابق، الخطبة ٢٠٤.

٢. المصدر السابق، الخطبة ١١٤، الفقرة ٥.

٣. البقرة: ١٩٧.

٤. الأنفال: ٧٥.

٥. الأنعام: ١٢٤.

وعليه فكلمة «خير» في آية التقوىٰ وإن كانت اسم تفضيل من حيث الصياغة، لكنّ معناها التعيين لا التفضيل؛ فالمعنىٰ: أن لا زاد للآخرة إلاّ التقوىٰ. وكلام أمير المؤمنين نصٌّ في التعيين، حيث قال: «لا خير في شيء من أزوادها إلاّ بالتقوىٰ».

١٣ ـ التقوىٰ سند قبول العمل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[١]. وأعمال العباد كالنقود، والتقوىٰ كالرصيد والسند في خزينة الدولة في المصرف، فبدون ذلك الرصيد المصرفي لا قيمةَ ولا اعتبارَ للنقود.

وقد دلّت بعض الآيات صريحاً علىٰ أنّهَ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[٢]، فعمل واحدٌ مع التقوىٰ والإيمان خير وأفضل من كلّ علم وشيء دنيوي؛ ذلك أنّ التقوىٰ هي المعيار الوحيد لقبول العمل وشرطه، كما يُفهم من أداة الحصر «إِنَّمَا» في الآية الشريفة. ومن هنا قال عليٌّ أمير المؤمنين: «لا يقلّ عمل مع التقوىٰ، وكيف يقلّ ما يُتقبّل؟!»[٣].

وسرّ ذلك أنّ العمل المتقبّل مصبوغٌ بالصبغة الإلهيّة، والنيّة فيه وجه الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٤]، و ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾[٥]، وأيّ عمل لا يُبتغىٰ به وجه الله سبحانه ولا يصطبغ بصبغته لا وجود له يوم القيامة ولا أثر؛ لأنّه فانٍ مضمحلّ، فلا معنىٰ لقبول ما لا وجود له. قال أمير المؤمنين: «فمن أشعر التقوىٰ قلبَه برّزَ مَهَلُه وفاز عملُه»[٦].

---

١ . المائدة: ٢٧.

٢ . البقرة: ١٠٣.

٣ . نهج البلاغة، الحكمة ٩٥.

٤ . الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

٥ . النحل: ٩٦.

٦ . نهج البلاغة، الخطبة ١٣٢، الفقرة ٧.

ملاحظات: أ) التقوىٰ المقارنة للعمل توجب صحّته والثـواب عليـه، والعمـل العاري منها كالعمل العاري من الإخلاص، لن يكون متقبّلاً عند الله تعالىٰ.

ب) إذا صدر عملُ عاملٍ عن تقوىٰ، لكنّه ارتكب ذنباً ما، فإنّ فسقه يمنـع مـن قبول ذلك العمل.

ج) قبول العمل موقوف علىٰ الجمع بين التقوىٰ في العملِ نفسه والتقوىٰ التامّـة للعامل في كلّ أمر، وآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1] ناظرة إلىٰ كمال القبول.

١٤ ـ التقوىٰ اعتصامٌ بعروة الله الوثقىٰ، قال الإمام عليّ عليه السلام: «... فاعتصموا بتقوىٰ الله فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته»[2].

١٥ ـ التقوىٰ توجب للمتقيّ حقّاً علىٰ الله تعالىٰ، قال الإمام عـليّ عليه السلام: «عباد الله! أوصيكم بتقوىٰ الله، فإنّها حـقّ الله عليكم، والموجبـة عـلىٰ الله حقّكـم، وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها علىٰ الله، فإنّ التقوىٰ في اليوم الحِرز والجُنّـة، وفي غدٍ الطريق الىٰ الجَنة؛ مسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ»[3].

ملاحظة: لا حقّ لأحد علىٰ الله تعالىٰ، ولا يجري عليه سبحانه حكم أحد أبـداً؛ لكنّه تعالىٰ كتب علىٰ نفسه الإثابة علىٰ الطاعة، و ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[4]؛ فليس معنىٰ قول الإمام: «الموجبة علىٰ الله حقّكم، وأن تستعينوا عليها بـالله»، أنّ التقـوىٰ في نفسها وبلا عناية إلهيّة توجب عليه تعالىٰ حقّاً، بحيث يقع تعالىٰ قهراً تحت حكـم غيره، بل معناه أنّ الله تعالىٰ كتب علىٰ نفسه إثابة مـن اتّقـىٰ وعمـل عـن تقـوىٰ بـما يقدّره سبحانه، وهذا يرجع إلىٰ حكومة بعض الأسماء الحسنىٰ علىٰ بعـضها الآخـر، فأمير المؤمنين يوصي بالاستفادة من هذه الحقّ اللطفي الإلهي.

---

١ . المائدة: ٢٧.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠، الفقرة ٣.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠، الفقرة ٥.

٤ . الأنعام: ٥٤.

١٦ ـ التقوىٰ شفاء القلب والروح: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فإنّي أوصيكم بتقوىٰ الله الذىٰ ابتدأ خلقكم، وإليه يكون معادكم، وبه نجاح طلبتكم، وإليه منتهىٰ رغبتكم، ونحوه قصد سبيلكم، وإليه مرامي مفزعكم؛ فإنّ تقوىٰ الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمىٰ أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم»[١].

١٧ ـ التقوىٰ عزّ: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا عزّ أعز من التقوىٰ»[٢].

١٨ ـ في التقوىٰ سلامة البدن: «ألا وإنّ من صحّة البدن تقوىٰ القلب»[٣].

السلامة البدنيّة نتيجة التوقّي من أسباب المرض والأسقام، وسلامة البدن تهيّء الأرضيّة لتقوىٰ القلب[٤].

١٩ ـ التقوىٰ مفتاح حلّ المعضلات والتحرّر من العبوديّة: «... فإنّ تقوىٰ الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كلّ ملَكة، ونجاة من كلّ هلَكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتُنال الرغائب»[٥].

٢٠ ـ التقوىٰ مركب سريع لطيّ طريق الجنّة: «ألا وإنّ التقوىٰ مطايا ذُلُل، حُمل عليها أهلها وأعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة»[٦].

وفي مقابلها الخطايا والمعاصي: «... ألا وإنّ الخطايا خيلٌ شُمُس حُمل عليها

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة١٩٨، الفقرة٤.

٢ . المصدر السابق، الحكمة٣٧١.

٣ . المصدر السابق، الحكمة٣٨٨.

٤ . باعتبار قدرة البدن السالم على العمل الصالح، وهو أهمّ محصّل للتقوىٰ. (المعرّب).

٥ . نهج البلاغة، الحكمة٢٣٠.

٦ . المصدر السابق، الخطبة١٦، الفقرة٥.

أهلها، وخُلعت لجُمها، فتقحّمت بهم في النار»[١]. ولهذا التقابل بين المعصية والتقوىٰ أوضح عليه السلام أنّ التقوىٰ تقي الوقوع في الشبهات: «حجزته التقوىٰ عن تقحّم الشبهات»[٢]، وتحمي من المحرّمات: «إنّ تقوىٰ الله حمت أولياء الله محارمه»[٣].

٢١ ـ التقوىٰ زمامٌ لترويض النفس وتطويعها: قال عليه السلام: «وإنّما هي نفسي أروّضها بالتقوىٰ»[٤]. وقال أيضاً: «ألا وبالتقوىٰ تُقطع حُمّة الخطايا»[٥].

٢٢ ـ التقوىٰ حصن حصين: قال: «اعلموا عباد الله أنّ التقوىٰ دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله، ولا يحرز من لجأ إليه»[٦].

إنّ الاستعاذة بحرم الله الآمن من شرّ شياطين الإنس والجنّ، إن في بدء تلاوة القرآن وإن في غير ذلك، إحدىٰ الآداب الدينيّة: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٧]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...﴾[٨]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...﴾[٩].

ومن الوصايا الأخلاقيّة المنقولة عن العارف الكامل المرحوم الميرزا جواد الملكي التبريزي، قوله: إذا تعرّض أحد لهجوم حيوان مفترس، وكان بقرب حصن

١ . المصدر نفسه.

٢ . المصدر نفسه.

٣ . المصدر نفسه، الخطبة ١١٤، الفقرة ٦.

٤ . المصدر نفسه، الكتاب ٤٥، الفقرة ١٠، وهو كتاب كتبه لعثمان بن حنيف.

٥ . المصدر نفسه، الخطبة ١٥٧، الفقرة ٥.

٦ . المصدر نفسه. قال الراغب: «العزّة حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، من قولهم: أرض عزاز، أي صلبة». (مفردات غريب القرآن، مادة «عز»). فمعنىٰ «دار حصن عزيز» أنّها دار محكمة البناء وغير قابلة للنفوذ إليها.

٧ . النحل: ٩٨.

٨ . سورة الفلق.

٩ . سورة الناس.

حصين، فكرّر جملة: «سأتحصّن من شرّ هذه المفترس بهذا الحصن»، فلن ينجو ما لم يتحرّك فعلاً باتّجاه الحصن والدخول فيه.

فالاستعاذة القوليّة المحضة وإن كانت مفيدةً ولازمةً؛ لكنّ الأهمّ منها والأكثر فائدة الاستعاذة العمليّة، وهي الدخول في حصن التقوىٰ.

قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في جواب تعلّلات طاغوت الشام واتّهامه الإمامَ بضلوعه في قتل عثمان:

«فاتّق الله في نفسك، ونازع الشيطان قيادك»[1].

فمن يلجأ إلىٰ حصن التقوىٰ فقد أمن من شرور شياطين الإنس والجن وهوىٰ النفس، تلك الشرور المتجلّية في الآثام في الذنوب، ومن يفرّط في ذلك فقياده بيد الشيطان، يقوده حيثما يشاء.

ومن كلامه عليه‌السلام بعد الحثّ علىٰ التقوىٰ: «عباد الله! إنّ تقوىٰ الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتىٰ أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنَّصَب، والريّ بالظمأ، واستقربوا الأجل فبادَروا العمل، وكذبوا الأمل فلاحَظوا الأجل»[2].

٢٣ ـ التقوىٰ منتهىٰ رضا الله وحاجته من عباده: «وأوصاكم بالتقوىٰ، وجعلها منتهىٰ رضاه، وحاجته من خلقه»[3].

٢٤ ـ التقوىٰ عامل حفظ للإنسان المتّقي: «مَن اتّقىٰ يُتّقىٰ»[4]. فمن يتّخذ التقوىٰ شعاراً يكون مصوناً من شرّ النفس وشرّ الفتّانين وشياطين الإنس والجنّ؛ لأنّ هيبة

---

١ . نهج البلاغة، الكتاب ٥٥.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١١٤، الفقرة ٦.

٣ . المصدر السابق، الخطبة ١٨٣، الفقرة ١٠.

٤ . بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٨٢.

المتّقي كثيراً ما تمنع أولئك الشياطين من التفكير في افتتانهم، وإذا ما سعوا في ذلك فإنّ الله تعالىٰ يفشل مسعاهم.

ولهذه الآثار وغيرها للتقوىٰ جاء في توصيات أمير المؤمنين عليه السلام: «اتّقِ الله بعض التّقىٰ وإن قلّ، واجعل بينك وبين الله ستراً وإن رقّ»[١].

والخلاصة

أ) إنّ التقوىٰ في الحكمة النظريّة غيرها في الحكمة العمليّة، والتقوىٰ بلحاظ العقل النظري غيرها بلحاظ العقل العملي.

ب) إنّ تقوىٰ العرفان والحكمة والكلام متفاوتة فيما بينها، كما أنّ تقوىٰ العرفاء أنفسهم تتفاوت من شخص لآخر، وكذا حال التقوىٰ في الحكماء والمتكلمين، فهي ليست سواء في جميعهم؛ لأنّ التقوىٰ تعكس رؤية المتّقي الخاصّة للعالم وتفسيره له. فالقائل بعينيّة صفات الله تعالىٰ وذاته يحرص علىٰ أن يتدرّع بالمعرفة ويتّقي تقوىً بحيث لا تتطرّق الكثرةُ إلىٰ حرم صفات وذات الباري سبحانه؛ وأمّا القائل بزيادة الصفة علىٰ ذات الواجب فهو يبرأ من العينيّة في سعة من مقتضياتها، وهكذا بالنسبة لأصحاب النظريات المعرفيّة التوحيديّة الأخرىٰ.

ج) إنّ تقوىٰ المجبّر والقدريّ تختلف عن تقوىٰ القائل بالأمر بين الأمرين والتوسّط بين الجبر والقَدَر (التفويض)؛ لأنّ أهل بيت العصمة عليهم السلام، الذين خطّوا الصراط المستقيم بين حدّي الجبر والتفويض بيّنوا وأكدوا علىٰ مراعاة هذا السياج المعرفي (التقوىٰ) من منطلق أنّ كلّ شيء من عند الله تعالىٰ وبإرادته، ولكنّ السيئة والشرور ليست من الله تعالىٰ، ففرّقوا بين «من عند الله» و«من الله»، كما قال تعالىٰ:

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٢٤٢.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً * مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِالله شَهِيداً﴾[1].

د) للتقوىٰ في المعارف التوحيديّة خصائص، فهي بنحوٍ لا تسري كثرةٌ ما إلىٰ مقام الوحدة، ولا سبيل للحلول والاتّحاد وسائر الأوصاف السلبيّة إلىٰ مقام الكمال والصفات الثبوتيّة لله تعالىٰ.

ولتقوىٰ الوحي والنبوّة والرسالة والولاية والعصمة وما جانس ذلك خصائص أيضاً، فهي بنحوٍ لا يتطرّق السهو والنسيان والعصيان إلىٰ ساحة الوحي المتلقّىٰ من قِبل الأنبياء وسائر المعصومين؛ لأنّ المعرفة التنزيهيّة[2] للمعصوم هي بنيان مرصوص، يحول دون طروء التوّهم والتخيّل والنسيان علىٰ مقام العصمة حين تلقّي حكم الله وإبلاغه وتنفيذه.

وهناك أيضاً خصائص للتقوىٰ في مسائل المعاد، وهي تختلف باختلاف النظريات.

هـ) كلّ موجود بحدّه الوجودي الخاصّ هو «كلمة الله»؛ لأنّه آية لله وعلامة علىٰ الغيب، لكنّ هذا الوصف اختصّ بالآيات الكبرىٰ، كالمسيح عليه السلام. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ﴾[3].

وحقيقة التقوىٰ هي أيضاً من عظيم كلمات الله، والمتّقون الذين تبلورت التقوىٰ وآثارها الوجوديّة في ضمائرهم هم كلمة التقوىٰ. وفي شأن ذوي الفضيلة الحائزين

---

١ . النساء: ٧٨ ـ ٧٩.

٢ . المراد بالمعرفة التنزيهيّة ظاهراً هي المعرفة التي يكون بها المعصوم معصوماً ومنزّهاً عن الزلل. (المعرّب).

٣ . النساء: ١٧١.

علىٰ ملكة التقوىٰ وكمالها الوجوديّ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[١]، ولا شكّ في أنّ أهل البيت هم أتمّ وأكمل مصداق للمتّقين.

و) كما أنّ للتقوىٰ الرئاسة علىٰ الأخلاق، فالمتّقون لهم السيادة المعنويّة علىٰ الجماعة المؤمنة، قال رسول الله ﷺ: «المتّقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة»[٢].

ز) تمتاز التقوىٰ ـ كبعض الأصول المهمّة الأخرىٰ ـ من بين الفضائل بتفرّدها وعدم وجود البديل عنها، فإذا ما تلاشت أو ضمرت فلا من عوض لها. قال أمير المتّقين عليه السلام: «التقوىٰ لا عوضَ عنه ولا خلفَ فيه»[٣]. وبما أنّ التقوىٰ متّحدة مع المتّقي، فالمتّقي الكامل في نفسه لا نظير له ولا خلف، فإذا مات وظهر متّقٍ غيره فهو ليس بديلاً عنه، بل هو أصيل في نفسه، وإن عنون بعنوان «الخلَف».

ح) صراع الفضيلة والرذيلة دليل التضادّ؛ لذا ينفر الملَك من الأبالسة الذين يلبسون تمويهاتهم ومحرّفاتهم لبوس الوحي الإلهي.

شعر

إنّ إبليس يهرب من قارئ القرآن

ويسعىٰ في إبعاد بني آدم عن القرآن.

وفي هذا يقول أمير المتّقين: «حرامٌ علىٰ كلّ قلب متولّهٍ بالدنيا أن يسكنه التقوىٰ»[٤].

ط) التقوىٰ وإن كانت من الملكات الأخلاقيّة، إلاّ أنّها بحاجة إلىٰ دعامة

---

١. الفتح: ٢٦.

٢. أمالي الطوسي، ص٢٢٥، ح٣٩٢.

٣. شرح غرر الحِكم، ج٢، ص١٥٣، ش٢١٥٤.

٤. شرح غرر الحكم، ج٣، ص٤٠٥، ش٤٩٠٤.

معرفيّة؛ لذا ترىٰ المتّقي مصوناً من الشبهات العلميّة والشهوات العمليّة. وفي الرواية أنّ رسول الله ﷺ قرأ آية: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ وقال: «من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة»[1]. وقال في رواية أخرىٰ: «تمام التقوىٰ أن تتعلّم ما جهلت وتعمل بما علمت»[2]. بمعنىٰ أنّ المتّقي الكامل يتعلّم كلّ ما يجب أن يعلمه، ويعمل كلّ ما يجب عمله؛ لينجو من المزالق العلميّة والزلاّت العمليّة.

١ . مجمع البيان، ج٩، ص٢٦٠.
٢ . ميزان الحكمة، ح٢٢١٧٩.

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الروايات

● الإمام علي عليه السلام

فهرس الأعلام

فهرس الكتب

فهرس المصادر

الإتقان في علوم القرآن: للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الشريف الرضى- بيدار- عزيزي، محمد أبو الفضل إبراهيم.

إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب: المسعودي صاحب تاريخ مروج الذهب، ١٤٠٤هـ.ق، منشورات الراضي، قم.

الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، القرن السادس، أسوة، ط١، ١٤١٣هـ.ق، قم، تحقيق: الشيخ إبراهيم بهادري ومحمد هادي به.

أسد الغابة في معرفة الصحابة: عزّ الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري (م٦٣٠هـ.ق)، دار الكتب العلمية، بيروت، الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.

أسرار الحِكَم: الحكيم ملاّ هادي السبزواري، الدار الإسلامية للنشر، ١٣٨٠هـ.ش، مع حواشي الحاج الميرزا أبو الحسن الشعراني.

الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

الأصول من الكافي: لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (م٣٢٨/ ٣٢٩هـ.ق)، ط٤، ١٤٠١هـ.ق، دار صعب- دار التعارف، بيروت.

أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد: سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٤٠٣هـ.ق، قم.

الأمالي: لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥- ٤٦٠هـ.ق)، دار الثقافة، ط١، ١٤١٤هـ.ق، قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، قم.

الباب الحادي عشر مع شرحيه: النافع يوم الحشر ومفتاح الباب: للعلامة الحلي (م٧٢٦هـ.ق)، ١٣٦٥هـ.ش، مؤسسة الدراسات الإسلامية في جامعة مكجيل، تحقيق: الدكتور مهدي محقق.

بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار: المولى محمد باقر المجلسي، ١٤٠٣هـ.ق، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد: أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار) (م٢٩٠هـ.ق)، ١٣٧٤هـ.ش، مؤسسة الأعلمي، مطبعة أمير، طهران، الحاج ميرزا محسن كوتشه باغي.

بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: العلامة الحاج الشيخ محمد تقي التستري، أمير كبير، ط١، ١٤١٨هـ.ق، مؤسسة نهج البلاغة، طهران.

تحف العقول عن آل الرسول: الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني (القرن الرابع)، جماعة المدرسين، ط٤، ١٤١٦هـ.ق، قم، علي أكبر الغفاري.

التحقيق في كلمات القرآن الكريم: حسن المصطفوي، مركز نشر الكتاب، دار السعادة، ١٣٩٥هـ.ش، طهران.

تسنيم: تفسير القرآن الكريم لآية الله جوادي آملي، ط١، ١٣٧٨هـ.ش، مركز إسراء للنشر، قم.

تفسير الصافي: المولى محسن الملقّب بالفيض الكاشاني (م١٠٩١هـ.ق)، ١٤٠٢هـ.ق، مطبعة سعيد، دار المرتضى، مشهد.

تفسير العياشي: المحدّث الجليل أبو النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

تفسير نور الثقلين: المحدّث الجليل العلامة الخبير الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (م١١١٢هـ.ق)، مؤسسة إسماعيليان، ١٣٧٣هـ.ش، مطبعة إسماعيليان، قم.

التنقيح في شرح العروة الوثقى: الميرزا علي التبريزي الغروي، ١٤١٧هـ.ق، مؤسسة أنصاريان، مطبعة الصدر، قم.

تهذيب الأحكام في شرح المقنعة: شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (م٤٦٠هـ.ق)، ١٤٠١هـ.ق، دار صعب- دار التعارف، بيروت.

تهذيب الأخلاق في التربية: ابن مسكويه، ط١، ١٤٠١هـ.ق، دار الكتب العلمية، بيروت.

جامع الأسرار ومنبع الأنوار: السيد حيدر الآملي (م٧٨٧هـ.ق)، ١٣٦٤هـ.ش، مطبعة النشر العلمي الثقافي.

جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد: إمام المفسرين الفضل بن الحسن الطبرسي، ١٤١٢هـ.ق، دار الأضواء، بيروت.

الحماسة والعرفان (فارسي): الحكيم المتألّه آية الله عبد الله جوادي آملي، ١٣٧٧هـ.ش، دار إسراء للنشر، مطبعة أسوة، قم.

الدرّ المنثور في التفسير المأثور: للإمام عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي (م٨٤٩- ٩١١هـ.ق)، ١٤١٤هـ.ق، دار الفكر، بيروت.

ديوان حافظ: الخواجة حافظ الشيرازي، ١٣٦٥هـ.ش، دار نشر صفي عليشاه، إعداد الدكتور خليل خطيب رهبر.

ديوان سنائي: أبو المجد مجدود بن آدم سنائي غزنوي، ١٣٣٦هـ.ش، إعداد الدكتور مظاهر مصفّى، مطبعة أمير كبير، طهران.

ديوان شهريار.

ديوان ناصر خسرو قبادياني: إعداد مجتبى مينوي ومهدي محقق، ١٣٥٧هـ.ش، انتشارات أمير كبير.

رجال الكشّي: اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشّي، أبو جعفر الشيخ الطوسي، ١٤٠٤هـ.ق، آل البيت، قم.

الرحيق المختوم: شرح الحكمة المتعالية، الحكيم المتألّه آية الله جوادي آملي، ١٣٧٥هـ.ش، مركز إسراء للنشر، مطبعة أسوة، قم.

روضة الكافي: الفروع من الكافي، ج٨، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (م٣٢٨/ ٣٢٩هـ.ق)، ط٣، ١٤٠١هـ.ق، دار صعب- دار التعارف، بيروت.

السيرة النبوية لابن هشام (م٢١٨ أو ٢١٣هـ.ق): ١٤١٣هـ.ش، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام: المحقق الحلّي (٦٠٢- ٦٧٦هـ.ق)، ١٤٠٣هـ.ق، ط١، دار الأضواء، بيروت، تحقيق عبد الحسين محمد علي.

شرح الأسماء الحسنى: السيد حسين درودآبادي (١٢٨٠- ١٣٤٤هـ.ق)، ط١، ١٣٧٩هـ.ش، منشورات بيدارفر، محسن بيدارفر، قم.

شرح أصول الكافي: صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (م١٠٥٠هـ.ق)، ط١، ١٣٦٧هـ.ش، دار خواندنيها، محمد خواجوي، طهران.

شرح شافية ابن الحاجب: الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاسترآبادي النحوي، ط١، منشورات مكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران.

شرح غرر الحكم ودرر الكلم: جمال الدين محمد الخوانساري، ط١٣٧٣،٥هـ.ش، مؤسسة النشر في جامعة طهران.

شرح غررالحكم ودرر الكلم: عبد الواحد الآمدي (م٥١٠هـ.ق)، ١٣٧٣هـ.ش، انتشارات جامعة طهران.

شرح المقاصد: للعالم الإمام مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد التفتازاني (٧١٢- ٧٩٣هـ.ق)، ١٣٧٠هـ.ش، انتشارات الشريف الرضي، مطبعة أمير، قم.

شرح المواقف: للقاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي (م٧٥٦هـ.ق)، ١٤١٥هـ.ق، انتشارات الشريف الرضي، مطبعة أمير، قم.

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي (٥٨٦- ٦٥٦هـ.ق)، ١٤١٥هـ.ق، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حمّاد الجوهري، ١٣٦٨هـ.ش، مطبعة گويا، انتشارات أميري، طهران.

صحيح البخاري: دار الجيل، بيروت، الشيخ أحمد محمد شاكر.

صحيح مسلم: للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

صحيفة النور: مجموعة توجيهات وإرشادات الإمام الخميني باللغة الفارسية، ط١، ١٣٦٩هـ.ش، انتشارات سروش.

العروة الوثقى: السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، ١٤١٢هـ.ق، مؤسسة إسماعيليان، قم.

علل الشرائع: لمحمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي الشيخ الصدوق (م٣٨١هـ.ق)، ط١، ١٤١٦هـ.ق، مؤسسة دار الحجّة للثقافة.

العناصر الرئيسية في السياسة: آية الله عبد الله جوادي آملي.

العين: ترتيب كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ط١، ١٤١٤هـ.ق، انتشارات أسوة، مطبعة باقري، قم.

الغارات: أو الاستنفار والغارات، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال، المعروف بابن هلال الثقفي، ط١، ١٤١٠هـ.ق- ١٩٩٠م، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.

الغدير في الكتاب والسنّة والأدب: للعلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، ط٥، ١٣٧١هـ.ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.

فرائد الأصول: الشيخ مرتضى الأنصاري (١٢١٤- ١٢٨١هـ.ق)، ط١، ١٤١٦هـ.ق، مطبعة مهر، قم المقدّسة.

فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات: نور الدين بن نعمة الله الحسيني الموسوي الجزائري، ط٤، ١٣٧٥هـ.ش، مكتب نشر الثقافة الإسلامية.

قاموس الرجال: العلامة آية الله العظمیٰ الشيخ محمد تقي التستري، ١٤١٠هـ.ق، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة.
القرآن في القرآن: آية الله جوادي آملي، ١٣٧٨هـ.ش، دار إسراء للنشر، مطبعة أسوة، قم.
الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري (٤٦٧- ٥٣٨هـ.ق)، ١٣٩٧هـ.ق، دار الفكر.
الكشكول: الشيخ البهائي، ط٢، ١٣٦٢هـ.ش، المكتبة الإسلامية للحاج السيد محمد كتابجي، طهران، الحاج محمد باقر الساعدي الخراساني.
كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: العلامة الحلّي (م٧٢٦هـ.ق)، ط٥، ١٤١٥هـ.ق، انتشارات جماعة المدرسين، قم.
گلستان سعدي: إعداد الدكتور خليل خطيب رهبر، ١٣٦٦هـ.ش، انتشارات صفي عليشاه، مطبعة مروي.
لسان العرب: العلامة ابن منظور (٦٣٠- ٧١١هـ.ق)، ١٤٠٥هـ.ق، نشر أدب الحوزة، قم.
مثنوي معنوي: مولانا جلال الدين محمد البلخي، ط١، ١٣٧٥هـ.ش، مطبعة آفتاب، انتشارات راستين طبقاً لنسخة رينولد نيكلسن.
مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٤٦٨- ٥٤٨هـ.ق)، ط٢، ١٤٠٨هـ.ق، دار المعرفة، بيروت، السيد هاشم رسول المحلاتي، السيد فضل الله اليزدي الطباطبائي.
مجموعة رسائل الحاج ملاّ هادي السبزواري.
مجمع الرجال: القهبائي، مكتبة إسماعيليان، قم، تعليقات: العلامة الأصفهاني.
المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء: المولیٰ محسن الكاشاني (م١٠٩١هـ.ق)، ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، علي أكبر الغفاري.
مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: العلامة المجلسي (م١١١١هـ.ق)، ط٢، ١٣٦٣هـ.ش، دار الكتب الإسلامية، طهران، السيد هاشم رسول المحلاتي.
مستند العروة الوثقى: محاضرات آية الله العظمیٰ السيد أبو القاسم الخوئي، ط١، ١٤١٤هـ.ق، الدار العلمية، قم، حجة الإسلام والمسلمين الشيخ مرتضیٰ البروجردي.
مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: العالم الجليل ثقة الإسلام أبو الفضل علي الطبرسي (المتوفیٰ في أوائل القرن السابع الهجري)، ١٤١١هـ.ق، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيّومي (م٧٧٠هـ.ق)، ١٤٠٥هـ.ق، دار الهجرة، قم.

معاني الأخبار: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (الصدوق) (م٣٨١هـ.ق)، ط٣، ١٤١٦هـ.ق، جماعة المدرسين، قم، علي أكبر الغفاري.

معجم الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، ١٤١٢هـ.ق، جماعة المدرسين، قم.

كليات مفاتيح الجنان: الحاج الشيخ عباس القمّي (١٢٩٤- ١٣٥٩هـ.ق)، مطبعة أسوة.

مفردات غريب القرآن: العلامة الراغب الأصفهاني (المتوفى في حدود ٤٢٥هـ.ق)، ط١، ١٤١٦هـ.ق، دار القلم والدار الشامية، بيروت، صفوان عدنان الداودي.

معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (م٣٩٥هـ.ق)، ١٤٠٤هـ.ق، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، قم، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون.

مقتل الحسين: للخوارزمي أبي المؤيد الموفق بن أحمد المكّي أخطب خوارزم (م٥٦٨هـ.ق)، مكتبة المفيد، تحقيق الشيخ محمد السماوي.

ملحقات شرح نهج البلاغة.

ميزان الحكمة: محمدي الري شهري، ١٤١٦هـ.ق، مكتب الإعلام الإسلامي.

الميزان في تفسير القرآن: للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ط٣، ١٣٩٣هـ.ق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

من لا يحضره الفقيه: أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (م٣٨١هـ.ق)، ١٤١١هـ.ق، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، محمد جعفر شمس الدين.

النهاية في مجرّد الفقه والفتاوى: لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ.ق)، ط٢، ١٤٠٠هـ.ق، دار الكتاب العربي، بيروت.

نهج البلاغة: السيد الرضيّ (٣٥٩- ٤٠٦هـ.ق)، محمد بن حسين بن موسى، دار الأسوة، صبحي الصالح.

نهج الفصاحة: مجموعة الكلمات القصار للرسول الأكرم ، ط١٦، ١٣٦١هـ.ش، مطبعة بهمن، مؤسسة نشر جاويدان، أبو القاسم بايندة.

وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملين ١٤١٤هـ.ق، مؤسسة آل البيت، دار إحياء التراث.

ينابيع المودّة: القندوزي الحنفي (١٢٢٠- ١٢٩٤هـ.ق)، ط٨، ١٣٨٥هـ.ش، دار بصيرتي، السيد حسن الخرسان.